

قَصَصُ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ

عَمْرِي بْنُ مُحَمَّدٍ نَوَازِلِيِّ آلِ نُوْفَلٍ

مَكْتَبَةُ الْمَوَازِي

قَصَصُ الْقُرْآنِ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

مكتبة المؤرخ

القاهرة: ٠٢/٢٧١٢٥٤٢ - ٠١٢٢٦٩٧٦٧٤

الطائف: ٠٢/٧٤٣٥٩٤٢ - ٥٥٧٩٠٩٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى أمي وأبي.

إلى من رباني صغيراً، وآزروني كبيراً.

إلى من يفرحان لفرحي، ويألمان لترحي.

إلى من تكبدا الصعاب لأعيش بغير نصب ولا تعب.

إلى من طعما الكدر؛ لأطعم اللين اللطيف.

إلى من لو حزت لهما الدنيا؛ لم أوف حقهما.

فاللهم أسبغ عليهما نعمة العافية، وارزقهما طمأنينة النفس، وصلاح البال، وخير الدنيا، وجنة الآخرة؛ إنك وليّ ذلك والقادر عليه، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد بن محمد نور الدين آل نوفل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَدَهُ حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصَّمَدُ الواحد، الحيُّ القيوم الذي لا يموت؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهب العظام؛ منزلُ القرآن، والخالقُ للإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا ﷺ ما اختلف المَلَكُوان، وتعاقب الجديدان؛ أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين؛ الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

جعل أمثاله عبرًا لمن تدبرها، وأوامره هُدًى لمن استبصرها؛ وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار؛ فقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

خاطب به أوليائه ففهموا، وبين لهم فيه مراده فعلموا. فحَمَلَةُ الْقُرْآنِ هم حَمَلَةُ سِرِّ اللَّهِ المكنون، وحَفَظَةُ عِلْمِهِ المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمنائه، وهم أهلُه وخاصّته وخيرته وأصفياءه؛ فما أَحَقَّ مَنْ عِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ أَنْ يَزْدَجِرَ بنواهيهِ، ويتذكّر ما شَرَحَ له فيه، ويحشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه. فإنه قد حُمِّلَ أعباء الرسل، وصار شهيدًا يوم القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ألا وإنَّ الحجة على من عِلْمُهُ فأغفله، أو كد منها على من قصر عنه وجهله. ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيهِ فلم يرتدع؛ وأرتكب من المآثم قبيحًا، ومن الجرائم فضوحًا؛ كان القرآن حجةً عليه، وخصمًا لديه، قال رسول الله ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك» خرّجه مسلم.

هذا وقد حثني بعض إخواني - أكرمهم الله - على جمع بعض من قصص القرآن؛ فاستعنت بالله الذي يهدي من يشاء لما يشاء، فكلّ ميسر لما خلق له؛ كما صح عن الصادق

المصدق عليه الصلاة والسلام.

فما كان مني غير أني جمعت النصوص من كتب التفسير والتأريخ، وألفت بينها؛ وعزوت قدر المستطاع، وليعلم القاريء الكريم أن جل ما كتبه؛ قد استقيته من الكتب التالية:

- ١- تاريخ ابن اسحاق.
 - ٢- جامع البيان في تفسير القرآن للإمام الطبري.
 - ٣- الجامع لأحكام القرآن لإمام القرطبي.
 - ٤- كتب السنن التسعة.
 - ٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية.
- فالله أسأل أن يتقبل مني، وأن يجعله نافعا، وأن يعلمنا القرآن ويزيننا به ويُطيب به نفوسنا، ويشرح به صدورنا ويزيل به غمومنا وهمومنا ويجعله يوم القيامة حجة لنا ويلبسنا به يوم القيامة الحلل، ويظللنا به خير الظلل، ويعلمه ذرياتنا، ويجعله بعد رضاه غاية غايتنا، والله الموفق، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وصلى اللهم على محمد وعلى آله وسلم.

وكتبه

أبو إسماعيل

عمر بن محمد نور الدين آل فؤاد

القصص في القرآن

من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن كتاب الله نزل به ملك الوحي جبريل عليه السلام على نبينا محمد ﷺ، وقد ورد في كتب السنن أن هناك سور وآيات كانت لها خصوصيات - إن جاز التعبير - في النزول ؛ فغالب القرآن نزل به جبريل عليه السلام مفردًا بلا تشييع، وهناك سور وآيات نزل مع جبريل عليه السلام ملائكة يحفونه ويحفون ما نزل به على نبينا محمد ﷺ.

فأما المشيخ كما ورد في كتب السنن^(١) : ففاتحة الكتاب قد نزلت ومعها ثمانون ألف ملك ، وسورة الإنعام شيعها سبعون ألف ملك، وآية الكرسي نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك، وسورة يونس نزلت ومعها ثلاثون ألف ملك، وآية ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ نزلت معها عشرون ألف ملك، قيل وسورة الكهف أيضًا شيعها سبعون ألف ملك.

ولم يكن هذا التشييع والاحتفاء إلا لخصوصية آية أو سورة بعينها وفضلها؛ فليعلم. وإلى جانب الشرائع والأحكام؛ فقد حوى كتاب الله أخبار الأمم، وشرعية الخلق؛ بل والخبز، والطبخ، وما إلى ذلك من الأمور الحياتية التي لا يعلم كثير ممن غفلوا عن كتاب الله أنها بين جنبات هذا الكتاب الأقوم .

ومثال ذلك من الأمور الحياتية - للاعتبار - ما ورد في كتاب الله قوله تعالى عن صاحب يوسف عليه السلام في السجن : ﴿أَحْمِلْ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾. والطبخ: ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. والغسل: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ﴾، والجزارة: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾. والبيع، والشراء في آيات كثيرة. والصبغ صبغة الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾. و: ﴿بَيْضٌ﴾ و﴿وَحُمْرٌ﴾. والحجارة: ﴿تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾. والكيل، والوزن في آيات كثيرة. والرمي: ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ﴾، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. وفيه من أسماء الآلات، وضرب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع، ويقع في الكائنات،

(١) بعضها على اختلاف بين العلماء .

ما يحقق معنى قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وأما أنواع العلوم، فليس منها باب، ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه علم عجائب المخلوقات، وملكوت السموات، والأرض، وما في الأفق الأعلى، وتحت الثرى، وبدء الخلق، وأسماء مشاهير الرسل، والملائكة.

وأما القصص فالقرآن جمع من عيون أخبار الأمم السابقة، وأخبار النبيين والمرسلين، والصالحين:

كقصة آدم مع إبليس في إخراجهم من الجنة. وفي الولد الذي سمي عبد الحارث، ورفع إدريس، وغرق قوم نوح.

وقصة عاد الأولى والثانية، وقوم تبع، ويونس، وأصحاب الرس، وثمود، والناقة، وقوم لوط، وقوم شعيب الأولين والآخرين، فإنه أرسل مرتين.

وقصة موسى في ولادته، وإلقائه في اليم، وقتله القبطي، ومسيره إلى مدين، وتزوجه ابنة شعيب، وكلامه تعالى بجانب الطور، وبعثه إلى فرعون، وخروجه، وإغراق عدوه، وقصة العجل، والقوم الذين خرج بهم، وأخذتهم الصاعقة، وقصة القتل، وذبح البقرة، وقصته في قتل الجبارين، وقصته مع الخضر، والقوم الذين ساروا في سرب من الأرض إلى الصين.

وقصة طالوت، وداود مع جالوت، وفتنته، وقصة سليمان، وخبره مع ملكة سبأ، وفتنته، وقصة القوم الذي خرجوا فراراً من الطاعون، فأماهم الله، ثم أحياهم، وقصة إبراهيم في مجادلة قومه، ومناظرة نمرود، وقصة وضعه ابنه إسماعيل مع أمه بمكة، وبناء البيت، وقصة الذبيح، وقصة يوسف، وما أبسطها، وأحسنها قصصاً.

وقصة مريم، وولادتها عيسى، وإرساله، ورفع، وقصة زكريا، وابنه يحيى، وقصة أيوب، وذو الكفل، وقصة ذي القرنين، ومسيره إلى مطلع الشمس، ومغربها، وبناء السد، وقصة أهل الكهف، الرقيم، وقصة بخت نصر، وقصة الرجلين اللذين لأحدهما الجنة، وقصة أصحاب الجنة، وقصة مؤمن آل يس، وقصة أصحاب الفيل، وقصة الجبار الذي أراد أن يصعد إلى السماء.

وقصة قتل قابيل أخاه هابيل، وقصة دفن هابيل بدلالة الغراب، وقصة وصية يعقوب بنيه، ودعوة إبراهيم، وبشارة عيسى بنينا محمد ﷺ، وبعثه، وهجرته. وغزواته: غزوة بدر

في سورة الأنفال، وأحد في آل عمران، وبدر الصغرى فيها، والخندق في الأحزاب، والنضير في الحشر، والحديبية في الفتح، وتبوك في براءة، وحجة الوداع في المائدة. ونكاحه زينب بنت جحش، وتحریم سرية، وتظاهر أزواجه عليه، وقصة الإفك، وقصة الإسراء، وانشقاق القمر، وسحر اليهود.

وفي كتاب الله بدء خلق الإنسان إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح، وما يفعل بها بعد عودها إلى السماء، وفتح الباب للروح المؤمنة، وإلقاء الكافرة، وعذاب القبر، والسؤال فيه، ومقر الأرواح، وأشرط الساعة الكبرى العشرة، وهي: نزول عيسى، وخروج الدجال، ويأجوج، ومأجوج، والدابة، والدخان، ورفع القرآن، وطلوع الشمس من مغربها، وغلق باب التوبة، والخسف وأحوال البعث: من نفخ الصور للفرع، وللصعق، وللقيام، والحشر، والنشر، وأحوال الموقف، وشدة الشمس، وظل العرش، والصراط، والميزان، والحوض، والحساب لقوم، ونجاه آخرين. ومنه: شهادة الأعضاء، وإيتاء الكتب بالآيمان، والشمائل، وخلف الظهر، والشفاعة أي بالإذن، والجنة، وأبوابها، وما فيها من الأنهار، والأشجار، والثمار، والحلي، والأواني، والدرجات، ورؤية الله تعالى. والنار، وما فيها من الأودية، وأنواع العقاب وأصناف العذاب، والزقوم، والحميم، إلى غير ذلك، مما لو بسط لجا في مجلدات.

وفي القرآن أيضاً جميع أسماء الله الحسنى، وفيه أسمائه مطلقاً. وفيه: من أسماء النبي ﷺ. وفيه: شعب الإيمان البضع والسبعون. وفيه: شرائع الإسلام الثلاثمائة وخمسة عشر، وفيه: أنواع الكبائر، وكثير من الصغائر، وفيه تصديق كل حديث صح عن النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢]. وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢].

هذا وقد سأل نفر من الصحابة رسول الله ﷺ أن يقصّ عليهم القصص؛ فقد ورد عن ابن عباس، قال: قالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. قال: فنزلت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. أي نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم، وإن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ. فالقصص في القرآن قصص حق ورواية صدق في كتاب الله للعبرة والاعتاظ، فيه تنبيه للمسلمين وإيقاظ.

وفي قصص القرآن الكريم ما فيه من بليغ الحكم، وروائع السير، ولفت الأنظار إلى ما فيه الاعتبار والاستبصار؛ فالقاص هو الله جل وعلا الذي يأتي بالقصة على حقيقتها. قال سبحانه: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بوحينا إليك هذا القرآن. الذي فيه من أسرار البيان ما يعجز عن البيان، فأماط اللثام عن قصص كانت قد اندثرت ، وروايات عملت فيها أيدي أهل الكتاب فحرفت وبدلت ، وقدمت وأخرت ؛ لكن الله قص القصص وأنباء الأولين في كتابه للاعتبار بها، وتسلية للنبي ﷺ وتبصرة لأولي النهى.



أحوال القصص في كتاب الله

❖ الحالة الأول غيوب الماضي:

وتتمثل في تلك القصص الرائعة التي يفيض بها التنزيل، ولم يكن لعلم محمد ﷺ بها من سبيل. منها قصة نوح التي قال الله فيها: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ [هود: ٤٩].

ومنها قصة موسى التي يقول الله فيها: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين، ولكننا أنشأنا قرونًا فتناول عليهم المنى لما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا، ولكننا كنا مُرسِلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتُنذِر قَوْمًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦].

ومنها قصة مريم وفيها يقول: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: ٤٤].

❖ الحالة الثانية غيب الحاضر:

أما غيب الحاضر فتريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنة والنار ونحو ذلك، مما لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح، الذي أیده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام. وأمثلة هذا الضرب كثيرة في القرآن، لا تحتاج إلى عرض ولا بيان.

ومنه أيضاً ما فضح الله به المنافقين في عصر الرسول مما كان قائماً بهم وخفى أمره عليه كقوله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ❖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ❖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥]. وكقوله في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَن حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ❖، وسورة التوبة فيها من هذا الضرب شيء كثير.

ومن غيب الحاضر أو الماضي ما جاء في طي القرآن من حقائق ومنافع ومبادئ لم يكشف عنها إلا العلم الحديث.

✽ الحالة الثالثة غيب المستقبل:

وأما غيب المستقبل، فمثل له بأحدى عشرة مثل:

● المثال الأول: إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون في بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذي يقول الله فيه:

﴿غَلَبَتِ الرُّومُ ✽ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ✽ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ✽ فِي بَضْعِ سِنِينَ، لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ✽ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ ✽ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ✽ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ✽﴾

[الروم: ٢-٦].

وبيان ذلك أن دولة الرومان وهي دولة نصرانية كانت قد انهزمت أمام دولة الفرس وهي وثنية، في حروب طاحنة بينهما سنة ٦١٤ م فاغتم المسلمون بسبب أنها هزيمة للدولة متدنية أمام دولة وثنية، وفرح المشركون وقالوا للمسلمين في شماتة العدو: إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب وقد غلبهم المجوس، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم، فنزلت الآيات الكريمة يبشر الله فيها المسلمين بأن هزيمة الروم هذه سيعقبها انتصار في بضع سنين، أي في مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وتسع، ولم يك مظهرًا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصر على الفرس في مثل هذه المدة الوجيزة. بل كانت المقدمات والأسباب تأبى ذلك عليها؛ لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت في عقر دارها، كما يدل عليه النص الكريم: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ✽﴾ [الروم: ٣]. ولأن دولة الفرس كانت قوية منيعة وزادها الظفر الأخير قوة ومنعة. حتى إنه بسبب استحالة أن ينتصر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة، راهن بعض المشركين أبا بكر على تحقيق هذه النبوة. ولكن الله تعالى أنجز وعده وتحققت نبوءة القرآن سنة ٦٢٢ ميلادية الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى، وهي البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز في هذا الوقت الذي ينتصر فيه الروم؛ ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ

الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرَ اللَّهِ ﴿[الروم : ٤ - ٥] .

ولقد صدق الله وعده في هذه كما صدقه في تلك وكان ظفر المسلمين في غزوة بدر الكبرى واقعاً في الظرف الذي ظفر فيه الرومان. وهكذا تحققت النبوءتان في وقت واحد، مع تقطع الأسباب في انتصار الروم كما علمت، ومع تقطع الأسباب أيضاً في انتصار المسلمين على المشركين على عهد هذه البشارة؛ لأنهم كانوا أيامئذ في مكة في صدر الإسلام والمسلمون في قلة وذلة، يضطهدهم المشركون ولا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة. ولكن على رغم هذا الاستبعاد أو هذه الاستحالة العادية، نزلت الآيات كما ترى تؤكد البشارتين وتسوقهما في موكب من التأكيدات البالغة التي تنأى بها عن التكهنات والتخرصات. وإن كنت في شك فأعد على سمعك هذه الكلمات:

﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٥ - ٦] . ثم ألفت ترى معي أنّ هذه العبارة الكريمة : ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم : ٤] قد حاظت هاتين النبوءتين بسياج من الدقة والحكمة، لا يترك شبهة لمشتبه ولا فرصة لمعاند؛ لأنّ البضع كما علمت من ثلاث إلى تسع.

والناس يختلفون في حساب الأشهر والسنين: فمنهم من يؤقت بالشمس ومنهم من يؤقت بالقمر. ثم إنّ منهم من يجبر الكسر ويكمّله إذا عد وحسب، ومنهم من يلغيه.

يضاف إلى ذلك أنّ زمن الانتصار قد يطول حبله، فتبتدىء بشارته في عام ولا تنتهي مواقعه الفاصلة إلاّ بعد عام أو أكثر. ونظر الحاسبين يختلف تبعاً لذلك في تعيين وقت الانتصار: فمنهم من يضيفه إلى وقت تلك البشائر ومنهم من يضيفه إلى يوم الفصل، ومنهم من يضيفه إلى ما بينهما. لذلك كله جاء التعبير بقوله جلت حكمته: ﴿سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم : ٣ - ٤] من الدقة البيانية والاحتراص البارع بحيث لا يدع مجالاً لطاعن ولا حاسب. وظهر أمر الله وصدق وعده على كل اعتبار من الاعتبارات في كل اصطلاح من الاصطلاحات. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

• المثال الثاني : إنباء القرآن بأنّ الله عاصم رسوله ﷺ وحافظه من الناس، لا يصلون إليه بقتل، ولا يتمكنون من اغتيال حياته الشريفة بحال، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] .

ولقد تحققت نبوءة القرآن هذه، ولم يتمكن أحد من أعداء الإسلام أن يقتله عليه الصلاة والسلام، مع كثرة عددهم ووفرة استعدادهم ومع أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ويتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء عليه وعلى دعوته؟ وهو أضعف منهم استعداداً وأقل جنوداً. فمن الذي يملك هذا الوعد وتنفيذه إذن إلا الله الذي يغلب ولا يغلب، والذي لا يقف شيء في سبيل تنفيذ مراده ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. واقراء التاريخ وسل المؤرخين، كم من الملوك والأمراء والفراعين ضرحت الأرض بدمائهم، وهم بين جنودهم وخدمهم وحشمهم؟ وهذا مشاهد حديثاً ابضاً؛ فليعتبر!!

فهل يمكن بعد هذا أن يكون القرآن الذي احتوى ذلك الضمان من كلام محمد عليه الصلاة والسلام، وهو من قد علمت ضعفه وقوة أعدائه يومئذ؟ حتى لقد كان يتخذ الحراس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت إذا ثقته واعتداده بما أعظم من ثقته واعتداده بمن كانوا يجرسونه. وسرعان ما صرف حراسه وسرحهم عند نزول الآية قائلاً: «أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ» كما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري.

وكذلك روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا فِي سَفَرِنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كُنَّا بِذَاتِ الرَّقَّاعِ نَزَلَ نَبِيُّ اللَّهِ تَحْتَ شَجَرَةٍ وَعَلَّقَ سَيْفَهُ فِيهَا.

فجاء رجل من المشركين فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاخْتَرَطَهُ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أَتَتَخَافُنِي؟ قال: «لا»، قال: مَنْ يَمْتَنِعُ مِنِّي؟ قال: «اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ، ضَعِ السَّيْفَ» فوضعه. ومما يجدر التنبيه له أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف.

ومن شواهد حماية الله لرسوله ﷺ وإنجازه له هذا الوعد، ما ورد عن علي رضي الله عنه قال: كنا إذا احمر البأس وحى الوطيس اتقينا برسول الله فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك أيضاً ما ثبت من أنه في يوم حنين حين أعجبت المسلمين كثرتهم وأدهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل سبحانه سكينته على رسوله، حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب أخذ بلجامها بكفها إرادة ألا

تسرع. فأقبل المشركون إلى رسول الله . فلما غشوه لم يفر ولم ينكص، بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه وجعل يقول: « أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ » كأنما يتحداهم ويذلهم على مكانه. فوالله ما نالوا منه نيلاً، بل أيده الله بمجده، وكف أيديهم عنه بيده.

● المثال الثالث: ما جاء في معرض التحدي بالقرآن، من قوله سبحانه: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٤] ، وقوله: ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فإن ما تراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين وجميع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قد تناول أطواء المستقبل (والمستقبل غيب) لا يملكه محمد ولا مخلوق غيره ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال متحققة، حيث انقرضت طبقة المخاطبين به دون أن يستطيعوا معارضة أقصر سورة منه، ومضت بعدهم أجيال وأجيال من عرب وأعجم، وكلهم قد باءوا بالعجز ولم يستطيعوا المعارضة إلى اليوم، مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة، أكثر وأقدر وأحصر على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين.

لاحظ مع هذا ما يثيره مثل هذا التحدي الطويل العريض الجريء، من الحمية الأدبية التي تبعث روح المنافسة على أشدها في نفوس من يتحداهم. ثم لاحظ أن المتأخرين من الناقدين لا يعيهم في العادة أن يستدركوا على السابقين، إماماً نقصاً يعالجونه بالكمال، أو كمالاً يعالجونه بما هو أكمل منه. وإذا فرضنا أن واحداً قد عجز عن هذا فمن البعيد أن تعجز عنه جماعة. وإذا عجزت جماعة فمن البعيد أن تعجز أمة. وإذا عجزت أمة فمن البعيد أن يعجز جيل. وإذا عجز جيل فمن البعيد أن تعجز أجيال فكيف يصدر إذن مثل هذا التحدي عن رجل يعرف ما يقول، فضلاً عن رجل عظيم، فضلاً عن رسول كريم، فضلاً عن محمد أفضل المرسلين ﷺ؟

وهل يمكن أن يفسر هذا التحدي الجريء الطويل العريض إلا بأنه استمداد من وحي السماء، واستناد إلى من يملك السمع والأبصار، وحديث عن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟

● المثال الرابع: ما جاء في التنبؤ بمستقبل الإسلام ونجاحه نجاحاً باهراً، فقد أخبر

القرآن والمسلمون في مكة قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس؛ بأن الإسلام سيظهر ويبقى، وأن كتابه سيكتب له الحفظ والخلود منفرداً بهذه الميزة عن سائر كتب الله. اقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] ، وفي سورة إبراهيم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يِاذُنَ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] ، وفي سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أجل في هذه السور الثلاث المكية، قطع القرآن هذه العهود المؤكدة بتلك اللغة الواثقة، والإسلام يومئذ في مكة مدفوع مضطهد، والمسلمون قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وليس هناك من بواسم الآمال ما يلقي ضوءاً على نجاح هذا الدين الوليد، ولئن التمسست هذه الآمال في نفس الداعي من طبيعة دعوته، فما كانت لتصل إلى هذا الحد من اليقين والتأكيد. ولئن وصلت إلى هذا الحد ما دام صاحبها حياً يتعهدا بنفسه ويغذيها بنشاطه، فليس لديه من العوامل ما يجعله يثق بهذا النجاح بعد موته، مع ما هو معروف بأن المستقبل مليء بشتيت المفاجآت، والليالي من الزمان خيالي مثقلات، والتاريخ لا يزال يقص علينا وعلى الناس نبأ من قتل من الأنبياء، وما ضاع أو حرف من كتب الله ووحى السماء وما حبط من دعوات الحق ونهض من دعوات الباطل... كل ذلك قد كان ومحمد لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الأخرق الذي يسير مع الأوهام، أو يطير مع الخيال، أو يطلب المجد عن طريق الأجلام المكذوبة والآمال المعسولة. بل كان معروفاً منذ نشأته، بتواضعه ورجاحة عقله واتزانه ودقته، حتى لقد كان يتثبت في كلامه ويتحرى إلى أن لقب واشتهر بأنه الصادق الأمين، وجاء القرآن نفسه يشهد بأنه كان قبل نبوته لا يطمع في نبوة ولا يأمل في وحي؛ ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وكذلك لم يكن بعد نبوته بالذي يضمن بقاء هذا الوحي وحفظه؛ ﴿وَلَكِنْ شَتْنَا لِنَذْهَبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ * [إبراهيم: ٢٤] ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧].

فلا مناص إذن من أن تكون تلك البشارات المؤكدة والعهود الموثقة، صادرة من أفق

غير أفقه، آنية من ملك قاهر لا راد لحكمه، معبرة عن مراد من يملك العالم ويحكمه في ماضية وحاضره ومستقبله.

ومما يؤيد صدق هذه التنبؤات، أنَّ الإسلام لقي من ضروب العنت مراراً وتكراراً، في أزمان متطاولة وعهود مختلفة، ما كان بعضه كافياً في محوه وزواله، ولكنه على رغم أنف هذه الأعاصير العاتية بقي ثابتاً يسامي الجبال، شامخاً يطاول السماء. وكذلك لقي كتابه العزيز ولا يزال يلقي من الهمز واللمز والطعن والسباب والمحاولات القاتلة، ما لا يتصوره إنسان في أي زمان، وما لم يلق كتاب قبله من الكيد والتضليل والبهتان، ومع ذلك كله فالقرآن، لا يزال جالساً على عرشه في سمائه، يمد العالم كله بحرارته وضياؤه، ولم تنل منه هذه المحاولات.

● المثال الخامس: تنبؤ القرآن بأنَّ المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد ميواتية، ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتي على نحو ما أخبر القرآن، في أقصر ما يكون من الزمان أجل، إِنَّا لَنَقْرَأُ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ الْمَكِيَّةِ: ﴿وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] ، وفي سورة غافر المكية أيضاً ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ، وكذلك نقرأ في سورة النور المدنية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ * وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ * وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

على حين أنَّ السيرة النبوية لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد والأذى الذي أصاب الرسول وأتباعه في مكة والمدينة، على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة. حتى لقد كان أكبر أُماني المسلمين بعد هجرتهم وتنفسهم الصعداء قليلاً، أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين في مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبي ابن كعب قال: لما قَدِمَ رسولُ الله وأصحابُه المدينةَ وآوَتْهُمُ الْأَنْصَارُ، رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانُوا لَا يَبْتَغُونَ إِلَّا بِالسَّلَاحِ وَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: «أَتُرُونَ أَنَا نَعِيشُ حَتَّى نَبْنِي أَمْنِينَ مَطْمَئِنِينَ لَا نَخَافُ؟» فنزلت الآية.

وكذلك روى ابن أبي حاتم عن البراء قال: «نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد» أي قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ... الخ.. هكذا كان

حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً يا لها نبوءة تأتي عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها، ومن يخرق - إن شاء - عادات الكون ونواميسه من أجلها. ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] .
﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج : ٤٠] .

• المثال السادس: ماورد في القرآن بأن الرسول وأصحابه وقد كانوا بالمدينة، سيدخلون مكة آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين، إذ قال سبحانه:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ؛ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح : ٢٧] ، ثم وقع هذا التنبؤ كما أخبر، مع أن ظروفه لم تكن تسمح به في مجرى العادة فدل ذلك على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا مخلوق سواه، بل هو القادر على أن يبلغ مراده ويخرق العادة .

ولزيادة البيان نذكر أن رسول اله رأى في نومه كأنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين فقص رؤياه على أصحابه فرحوا وحسبوا أنهم من عامهم. ثم خرجوا يسوقون الهدى إلى مكة لا يقصدون حرباً وإنما يقصدون عمرة ونسكاً ولكنهم ما كادوا يبلغون الحديبية حتى صدقهم قريش وأبت عليهم ما أرادوا. وكادت تكون حرب لولا أن الرسول رضي بصلح بينه وبينهم وإن كان قاسياً.

ثم قفل راجعاً على أن يؤدي نسكه في العام القابل نزولاً على مواد هذا الصلح القاسي. وعز ذلك على أصحابه، واتخذ المنافقون منه حطباً لنفاقهم ومادة لدسهم ولمزهم، فقال عبد الله بن أبي رأسهم: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام. ولكن على رغم هذا وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش ونكثهم العهود وتقطيعهم الأرحام، نزلت الآية الكريمة تحمل هذا الوعد بل تلك الوعود الثلاثة المؤكدة، وهي دخول مكة وأداء النسك والأمن على أنفسهم من قريش حتى يتحللوا ويقفلوا راجعين إلى المدينة. وقد أنجز الله وعده فتم الأمر على أكمله في العام الذي بعد عام الحديبية. ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

● المثال السابع : تنبؤ الكفار بهزيمة جموع الأعداء في وقت لا مجال فيه لفكرة الحرب، فضلاً عن التقاء الجمعين وانتصار المسلمين وانهمزام المشركين وذلك قوله سبحانه في سورة القمر المكية: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر : ٤٥] والجهاد لم يشرع إلّا في السنة الثانية للهجرة. فأين ما يتنبأ به القرآن إذن؟ إنه لا بد أن يكون كلاماً تنزل ممن يعلم الغيب في السموات والأرض. أمّا محمد الرجل الأمي فأنى له ذلك إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم؟.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه أنّ عمر رضي الله عنه جعل يقول حين نزلت هذه الآية: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولها.

● المثال الثامن: تنبؤ القرآن في مكة بهذا المستقبل الأسود الذي ينتظر كفار قريش، ثم وقوع ذلك كما تنبأ. اقرأ قوله سبحانه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ * يَعْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان : ١١ - ١٦] .

وسبب نزول هذه الآيات أن أهل مكة لما تمردوا على رسول الله واستعصوا، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، أي بالجوع والقحط الشديدين، عسى أن يتوبوا ويؤمنوا با ورسوله. فأجابه الله بهذه الآيات. وفيها عند التأمل خمسة تنبؤات:

- أولها: الإخبار بما يغشاهم من القحط وشدة الجوع، حتى ينظر الرجل إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان.

- ثانيها: الإخبار بأنهم سيضرعون إلى الله حين تحل بهم هذه الأزمة: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان : ١٢] .

- ثالثها: الإخبار بأن الله سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً.

- رابعها: الإخبار بأنهم سيعودون إلى كفرهم وعتوهم.

- خامسها: الإخبار بأن الله سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم بدر. ولقد حقق الله ذلك كله ما انخرم منه ولا نبوءة واحدة، فأصيبوا بالقحط حتى أكلوا العظام، وجعل

الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من شدة جوعه وجهده. ثم قالوا متضرعين ذلك الذي حكاه الله عنهم:

﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٢] . ثم كشف الله عنهم هذا العذاب قليلاً، ثم عادوا إلى كفرهم وعتوهم. ثم انتقم الله منهم يوم بدر فبطش بهم البطشة الكبرى حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون .

أرأيت ذلك كله؟ وهل يمكن أن يصدر مثله من مخلوق؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم.

● المثال التاسع: ما ورد في كتاب الله عن المستقبل المظلم الأسود، المضروب على اليهود بوجه مؤكد مؤبد، ثم تحقق هذا النبأ كاملاً عاماً يتناول القرون والأجيال من عهد نزول القرآن لم ينخرم مرة من المرات في يوم واحد من الأيام.

اقرأ ما نزل في شأنهم من قوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى * وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُوَلُّوكمُ الْأَدْبَارَ * ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾

[آل عمران : ١١١ - ١١٢] .

ثم انظر كم ورد في هذا النظم الكريم، وضعه الله كأنه الأغلال في عنق هذا الشعب الماكر اللئيم؟ ألسنت ترى فيه أنهم لا يستطيعون أن ينالوا من المسلمين بالحرب والقتل والأسر؟ إنما ضررهم أذى بالغدر وبسوء الاستغلال والمكر. وعلى فرض أنهم يقاتلون المسلمين، فسيلوذون حينئذ بالفرار، ويولون الأدبار، ولا سبيل لهم في المستقبل إلى الانتصار ثم إن الذلة قد ضربت عليهم كما يضرب الحجر على السفهاء لا يستطيعون الفكاك إلا إن دخلوا في عهد من الله أو عهد من الناس. ثم إن المسكنة وهي خوف الفقر قد ضربت عليهم كذلك، فهم أشد الشعور خوفاً من الفقر، ولذلك كانوا أشدها طمعاً وشرهاً في جمع الدنيا، لا يعرفون القناعة وإن غرقوا في المال إلى أم رؤوسهم، ولا يتورعون عن الجري وراء الدنيا بأحط الوسائل، وإن كانوا يملكون الآن ما يقرب من نصف ثروة العالم، وإعلام ودعاية تدندن لهم صباح مساء؛ حتى غدا قتلهم لأطفال الحجارة في فلسطين من الأمور المشروعة - زعموا - ، وأن يُمس أخس فرد فيهم قيامة تقام لها الدنيا ولا تقعد.

ثم اقرأ في شأن هذه الطائفة قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ

عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧] .

في هذا النص الكريم، صكاً مسجلاً بعبودية هؤلاء وذلتهم إلى الأبد؟ وتداول القرون والأحقاب من لدن نزول القرآن إلى اليوم لم يزد هذا التنبؤ إلا تصديقاً وتحقيقاً، ما حرمه مرة وإنما أشبعه إعجازاً وتأيداً؟. رغم ما يبدوا من علوهم في الأرض؛ إلا أن من ابتلي برؤية تلك الوجوه المسوخة وهو على بصيرة من ربه ليرى - والله - كم هم إذلاء جبناء، الخسة طبعهم والدناءة نسيج جلودهم.

ومن كان في شك فلينظر في التاريخ قديمه وحديثه، أو فاستمع إلى صوت المآسي الماثلة القرية، ثم قل: صدق الله. ما القرآن إلا كلامه، وما محمد إلا عبده ورسوله.

وإليك مثلاً آخر في شأن هؤلاء أبدع في الإعجاز وأروع.

● المثال العاشر: تحدى القرآن لأعداء الله اليهود في شيء يظهر أنه سهل بسيط، وأنه وكان في متناول قدرتهم وفي دائرة استطاعتهم، ومع ذلك انصرفوا عنه. وعجزوا. فدل هذا التحدي مع الانصراف والعجز، على أن القرآن كلام من يستطيع تصريف القلوب وتحريك الألسنة، وهو الله وحده. أمّا محمد صلوات الله وسلامه عليه فمحال أن يقامر بنفسه وبدعوته ويتحدى بهذا الأمر الظاهرة سهولته، وهو بشر لا يعلم الغيب ولا يستطيع أن يقلب القلوب ولا أن يعقد الألسنة.

وبيان ذلك أن اليهود زعموا أنهم هم الشعب المختار من بين شعوب الخلق، وادّعوا أن الدار الآخرة وقف عليهم وخالصة لهم من دون الناس، فخطب الله رسوله ﷺ في سورة البقرة يرد عليهم ويتحداهم بقوله:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤] ، ثم قال: ﴿ وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥] ، وها قد مضى على نزول القرآن ما يزيد عن أربعة عشر قرناً، وما تمنى أحد منهم الموت لو كانوا صادقين. بل أعلن القرآن في السورة نفسها مبلغ حرصهم على الحياة وأملهم فيها فقال:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ. وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمَا هُوَ بِمُرَحِّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦] . فكان ذلك علماً جديداً من أعلام النبوة، لأنه تنويه بغيب حاضر، لم يكن يعلمه محمد ولا قومه.

فهل يتصور عاقل أن محمداً عليه الصلاة والسلام وهو في موقف الخصومة الشديدة من اليهود، تطوع له نفسه أن يتحداهم هذا التحدي من عنده في لغة الوثائق الذي لا يتردد، والأمن الذي لا يخاف المستقبل؟ وهل كان يأمن أن يرد عليه واحد منهم فيقول: إني أتمنى الموت؟

وهنا تكون القاضية فتنقطع - لا قدر الله - حجة الرسول، ويظهر عجزه، وتفشل دعوته، أمام قوم هم من أشد الناس عداوة للذين آمنوا، ومن أحرصهم على إفحام الرسول وتعجيزه.

فصدور هذا التحدي من رجل عظيم كرسول الله محمد ﷺ، ثم استخذاء هؤلاء وانصرافهم عن الرد عليه وعن إسكاته وهو في مقدور أقل رجل منهم، ثم تسجيل هذا الاستخذاء عليهم في الحال بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وفي الاستقبال بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]

كل أولئك أدلة ساطعة على أن القرآن كلام علام الغيوب، قاهر الألسنة ومقلب القلوب. وهي أيضاً براهين قاطعة على أن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون مصدر هذا الكتاب ولا منبع هذا الفيض، بل قصاره أنه مهبط هذا التنزيل، وأنه يتلقاه من لدن حكيم عليم.

● المثال الحادي عشر: وهو من عجائب هذا الباب، أن القرآن عرض لتعيين بعض أحداث جزئية، تقع في المستقبل لشخص معين، ثم تحقق الأمر كما أخبر. هذا هو الوليد ابن المغيرة المخزومي يقول الله فيه: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾، أي سنجعل له علامة على أنفه يعرف بها وقد كان، ففي غزوة بدر الكبرى خطم ذلك الرجل بالسيف أي ضرب به أنفه، وبقي أثر هذه الضربة سمة فيه وعلامة له، وكان الوليد هو الذي نزل فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وما بعدها من الآيات التي ذكرناها قبلاً. وهو أيضاً الذي نزلت فيه هنا هذه الآيات من سورة القلم:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلِّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَنَبِينٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ [القلم: ١٠ - ١٦].

تلكم المعجزات والآيات ليست كل ما في كتاب الله من معجزات قصها الله على رسوله ﷺ ، ولا جلها؛ ففي قصص القرآن آيات ومعجزات لا تنقضي بالأيام أو تداول الزمان ؛ بل تبقى معجزات قصص القرآن باقية لمن يسر الله له استنباط معانيه، ودُل على عظيم ما فيه . ونشير هنا إلى أن هناك من القصص ما كان يرويه الرسول ﷺ عن بني إسرائيل وقال عليه الصلاة والسلام « حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ » رواه الإمام أحمد . وقد اعتمد أهل العلم هذا الحديث كقاعدة في الحديث عن بني إسرائيل؛ نوضح فيما يلي معنى هذه القاعدة :



بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام، حدثنا زيد بن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: قال: « حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَحَدِّثُوا عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ » . وقال أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهِ » وقال: « حَدِّثُوا عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ حَدِّثُوا عَنِّي وَلَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ » قال: « وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ » قال همام: أحسبه قال « مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث همام ورواه أبو عوانة الأسفرائيني عن أبي داود السجستاني، عن هذبة، عن همام، عن زيد بن أسلم به. ثم قال: قال أبو داود أخطأ فيه همام، وهو من قول أبي سعيد كذا قال، وقد رواه الترمذي عن سفيان، عن وكيع، عن سفيان بن عُيينة، عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فالحق أعلم.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أنه سمع رسول الله يعني يقول: « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

وهكذا رواه البخاري عن أبي عاصم النبيل عن الأوزاعي به، وكذا رواه الترمذي عن بندار، عن أبي عاصم، ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي. وقال: حسن صحيح. وروى أبو بكر البرار عن عبد الله بن عمر، وقال كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ يُحَدِّثُنَا عَامَّةً لَيْلَةً عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى نُصْبِحَ مَا نَقُومُ فِيهَا إِلَّا لِمُعْظَمِ صَلَاةٍ ، ورواه أبو داود عن محمد بن مُثَنَّى ثم روى البرار بسنده. قال:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُنَا عَامَّةً لَيْلَةً عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَقُومُ إِلَّا لِمُعْظَمِ صَلَاةٍ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى هو القطان، عن محمد بن عمرو، وحدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « حَدِّثُوا عَنِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ » إسناده صحيح ولم

يخرجه. وروى الحافظ أبو يعلى بسنده عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهِمْ الْأَعَاجِيبُ » .

ثم أنشأ يحدث قال: « خَرَجَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى أَتَوْا مَقْبَرَةً مِنْ مَقَابِرِهِمْ فَقَالُوا لَوْ صَلَّيْنَا رَكَعَتَيْنِ وَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَيُخْرِجَ لَنَا رَجُلًا قَدْ مَاتَ نُسَائِلُهُ يُحَدِّثُنَا عَنِ الْمَوْتِ، فَفَعَلُوا. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَطْلَعَ رَجُلٌ رَأْسَهُ مِنْ قَبْرِ مِنْ تِلْكَ الْقُبُورِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَثَرُ السُّجُودِ فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ مَا أَرَدْتُمْ إِلَيَّ فَقَدْ مِتُّ مِنْذُ مِائَةِ عَامٍ فَمَا سَكَنتُ عَنِّي حَرَارَةُ الْمَوْتِ حَتَّى الْآنَ فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُعِيدَنِي كَمَا كُنْتُ » ، وهذا حديث غريب إذا تقرر جواز الرواية عنهم، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً، فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه. ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته لما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من طريق الزُّهْرِيِّ عن أَبِي ثَمَلَةَ الْأَنْصَارِيِّ، عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله ﷺ فقال: إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَتَكَلَّمُ هَذِهِ الْجَنَازَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « اللَّهُ أَعْلَمُ » فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّهَا تَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ فَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُمْ وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُمْ » تفرد به أحمد.

وروى الإمام أحمد بسنده أن عمر بن الخطاب أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ قال فَعَضَبَ وقال: « أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهِ بَيْضَاءَ نَفِیَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فِتْكَذْبُوا بِهِ أَوْ بِاطِلٍ فَتَصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » .

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدّلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرّفوها وأوّلوها، ووضعوها على غير مواضعها، ولا سيما ما يبدو من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً، وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها، ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير،

وهم كثير، مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الضالة، وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم، وتأمل ما فيها من سوء التعبير، وقبيح التبديل والتغيير، وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير. وهذه التوراة التي يبدوها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه، وما أبدوه وما أخفوه، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب، باطلة من حيث معناها وألفاظها. وهذا كعبُ الأخبار من أجود من ينقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفاً لقلبه، فتوسّع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري وقال أبو اليمان: حدثنا شعيب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة. وذكر كعب الأخبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب، يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً إلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل والله أعلم.

فتلكم بعض ماورد في شأن التحديث عن اليهود والرواية عنهم سقناه هنا ليعلم الحكم في ذلك ابتداءً؛ ثم ليعلم أن هناك من الأئمة الأعلام المنقول عنهم لروايات بعض القصص انما استقوا روايتهم من بعض الروايات التي من هي روايات أهل الكتاب، ولكن يبقى حكمها لانصده إلا ما وافق كتاب الله (القرآن الكريم)، ولا نكذبه إلا ما عارض كتاب الله.

ذلك ويبقى كتاب الله محفوظاً بما حوى من شرائع وقصص وأنباء وأخبار، وآيات وسور

وآثار. إلى أن يأذن الله جل وعلا برفعه، والرفع للحفظ أيضاً والله أعلى وأعلم. جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره؛ ويقوم بقسطه، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

ونبدأ بعون الله بقصة أهل الكهف والرقيم؛ فالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرْبَتَا عَلَى أَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلَمْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا

رَشَدًا * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاذًا تَسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٠﴾ [الكهف: ٩ - ٢٦].

كان سبب نزول قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن قريشاً بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ويسألونه عنها ليختبروا ما يجيب به فيها، فقالوا: سلوه عن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا، وعن رجل طَوَّافٍ في الأرض وعن الروح.

فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الاسراء: ٨٥] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] وقال ههنا ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي ليسوا بعجب عظيم بالنسبة إلى ما أطلعناك عليه من الأخبار العظيمة والآيات الباهرة والعجائب الغريبة. ثم قص عليه ربه القصص ليؤيده ويكتب الكافرين والمشركين.

أما الكهف فهو الغار في الجبل. والكهف: النقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار. وقيل: كل غار في جبل: كهف. وما يروى عن أنس من أن الكهف نفس الجبل غريب، غير معروف في اللغة. قال شُعَيْبُ الْجَبَلِيُّ: اسم كهفهم (حيزم).

واختلف في مكان الكهف فالذي تضافرت به الأخبار أنه في بلاد الروم، وأما الرقيم فقد قيل في بعض الروايات أنه الكتاب المرقوم فيه أسماء الفتية الذين فروا بدينهم ودخلوا الكهف، وما جرى لهم، وكتب من بعدهم، وقد اختار هذا القول ابن جرير وغيره. وقيل: هو اسم الجبل الذي فيه كهفهم. قاله ابن عباس وشُعَيْبُ الْجَبَلِيُّ: اسمه (بناجلوس). وقيل: هو اسم واد عند كهفهم، وقيل: اسم قرية هنالك، وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف، وقيل لوح من حجارة كتب فيه أسماؤهم وجعل في سور المدينة وروي ذلك عن السدي. وقيل لوح من رصاص كتب فيه شأنهم ووضع في تابوت من نحاس في فم الكهف وقيل لوح من ذهب كتب فيه ذلك وكان تحت الجدار الذي أقامه الخضر عليه السلام.

وروي عن ابن عباس أنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسكوا به من دين عيسى

عليه السلام، وقيل من دين قبل عيسى عليه السلام فهو لفظ عربي وفعيل بمعنى مفعول. وأظهر الأقوال بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن: أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من رقت الكتاب إذا كتبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ مَرْقُومٌ ﴾. سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماءهم وأنسابهم وقصصهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماءهم. فهو كتاب مكتوب بما يعلمه الله، والعلم عند الله تعالى.

أما ما قيل في كلبهم؛ فقد وردت به أخبار لم أقف على شيء منها يستحق التحقيق والبيان وإن كان له اسم كما ذكر ذلك شُعَيْبُ الجبائي: واسم كلبهم (حمران). فلا يفيد كثيراً في هذه القصة.



ذكر فتية الكهف

قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ أَلَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِزْقَانَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة لنبيه ﷺ ، أنه يقص عليه نبأ أصحاب الكهف بالحق. ثم أخبره مؤكداً له أنهم فتية آمنوا بربه، وأن الله جل وعلا زادهم هدى. فإنه من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى. لأن الطاعة سبب للمزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَزَادَتْهُمْ رِزْقًا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَكُن لِهِمْ تَحَوُّلٌ مِمَّا رَزَقَهُمْ وَهُمْ عَلَىٰ حَقِّ ظُهُورِ الْعَرْشِ يُرْجَوْنَ فِيهَا وَعِشْوَةٌ لِيَفْجَرُوا مِنْهُمُ الْمَوْتِ وَأَن يُكَلِّمَهُمُ الْبَرُّ ﴾ [الأنعام: ١٦]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ، وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِنَّمَا وَهْمٌ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد وينقص أيضاً، كما استدلل بها البخاري رحمه الله على ذلك^(١). وهي تدل عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه؛ فالإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية. والعلم عند الله تعالى.

وقد ثبت الله قلوب هؤلاء الفتية وقواها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من أن يصدعوا بالحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار في جبل لا أنيس به، ولا ماء ولا طعام. فمن كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه، ويشته على تحمل

(١) كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٢٤/١).

الشدائد، والصبر الجميل. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وكقوله في أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويفهم من هذه الآية الكريمة: أن من كان في طاعة ربه جل وعلا أنه تعالى يقوي قلبه، ويشته على تحمل الشدائد، والصبر الجميل.

وكان عدد الفتية فيما ذكر ابن عباس: سبعة وثامنهم كلبهم :

وقال في قوله تعالى ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. وقال: وكان اسم أحدهم وهو الذي كان يلي شراء الطعام لهم الذي ذكره الله عنهم أنهم قالوا إذ هبوا من رقدتهم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ كان اسمه (يمنيخ).

وكان ابن إسحاق يسميهم فيقول: كان أحدهم وهو أكبرهم والذي كلم الملك عن سائرهم (مكسملينا) والآخر (محسملينا) والثالث (يخليخا) والرابع (مرطوس) والخامس (كسوطونس) والسادس (بيرونس) والسابع (رسمونس) والثامن (بطونس) والتاسع (قالوس) وكانوا أحداثا .

وقد اعتزل الفتية قومهم لما فشا فيهم من أصناف الشرك والوثنية والكفر بالله جل وعلا. ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الكهف: ١٦] أي وإذ فارقتمهم في دينهم وتبرأتم مما يعبدون من دون الله، وذلك لأنهم كانوا يشركون بالله كما قال النبي إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

وهكذا هؤلاء الفتية قال بعضهم: إذ قد فارقتم قومكم في دينهم فاعتزلوهم بأبدانكم لتسلموا منهم أن يصلوا إليكم بشر، فيسبل عليكم الله ستره وتكونوا تحت حفظه وكنفه ويجعل عاقبة أمركم إلى خير .

فأوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ دخلوه:

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ رَغْبَةً مِنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، فِي أَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ رَحْمَةً. ۖ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ فَيَسِّرْ لَنَا. بَمَا نَبْتَغِي وَمَا نَلْتَمَسُ مِنْ رِضَاكَ وَالْهَرَبِ مِنَ الْكُفْرِ بِكَ، وَمِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ الَّتِي يَدْعُونَ إِلَيْهَا قَوْمَنَا، وَالرَّشَدَا: سَدَادُ الْعَمَلِ بِالَّذِي يُحِبُّ اللَّهُ وَيَرْضَى. ۖ ﴾



زمان الفتية

أما ما قيل عن زمان الفتية . هل كانوا قبل المسيح عليه السلام أم بعده؛ فالراجح أنهم كانوا بعد المسيح عليه السلام، وغاية ما لدى المعارضين لهذا أنهم قالوا: إن اعتناء اليهود بأمرهم ومعرفة خيرهم يدل على أن زمانهم متقدّم على ما ذكره بعض المفسّرين أنهم كانوا بعد المسيح، وأنهم كانوا نصارى.

ولكن الظاهر من السياق أن قومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام. قال كثير من المفسرين والمؤرخين وغيرهم: كانوا في زمن ملك يقال له (دقيانوس)، وكانوا من أبناء الأكابر. وقيل من أبناء الملوك، واتفق اجتماعهم في يوم عيد لقومهم فرأوا ما يتعاطاه قومهم من السجود للأصنام والتعظيم للأوثان، فنظروا بعين البصيرة، وكشف الله عن قلوبهم حجاب الغفلة، وألهمهم رشدهم، فعلموا أن قومهم ليسوا على شيء، فخرجوا عن دينهم وانتموا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ويقال إن كل واحد منهم لما أوقع الله في نفسه ما هداه إليه من التوحيد، انحاز عن الناس، واتفق اجتماع هؤلاء الفتية في مكان واحد كما صح في البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قال: « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا انْتَلَفَ وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » ^(١) فكلّ منهم سأل الآخر عن أمره وعن شأنه فأخبره ما هو عليه. واتفقوا على الانحياز عن قومهم والتبري منهم والخروج من بين أظهرهم والفرار بدينهم منهم، وهو المشروع حال الفتن وظهور الشرور.



ذكر من قال : أن الفتية كانوا على شريعة عيسى ﷺ

اختلف أهل العلم في سبب مصير هؤلاء الفتية إلى الكهف الذي ذكره الله في كتابه، فقال بعضهم: كان سبب ذلك، أنهم كانوا مسلمين على دين عيسى، وكان لهم ملك عابد وتَن، دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم منه خشية أن يفتنهم عن دينهم، أو يقتلهم، فاستخفوا منه في الكهف.

روى الطبري ^(١) بسنده عن عمرو: كانت الفتية على دين عيسى على الإسلام، وكان ملكهم كافرا، وقد أخرج لهم صنما، فأبوا، وقالوا: ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنْهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطَا ﴾ ؛ قال: فاعتزلوا عن قومهم لعبادة الله، فقال أحدهم: إنه كان لأبي كهف يأوي فيه غنمه، فانطلقوا بنا نكن فيه، فدخلوه، وفقدوا في ذلك الزمان فطلبوا، فقل: دخلوا هذا الكهف، فقال قومهم: لا نريد لهم عقوبة ولا عذابا أشد من أن نردم عليهم هذا الكهف، فبنوه عليهم ثم ردموه. ثم إن الله بعث عليهم ملكا على دين عيسى، ورفع ذلك البناء الذي كان ردم عليهم، فقال بعضهم لبعض: كَمْ لَبِثْنَا؟ فَقَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ... حتى بلغ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة وكان ورق ذلك الزمان كبارا، فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام وشراب فلما ذهب ليخرج، رأى على باب الكهف شيئا أنكره فأراد أن يرجع، ثم مضى حتى دخل المدينة، فأنكر ما رأى، ثم أخرج درهما، فنظروا إليه فأنكروه، وأنكروا الدرهم، وقالوا: من أين لك هذا؟ هذا من ورق غير هذا الزمان، واجتمعوا عليه يسألونه، فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم، وكان لقومهم لوح يكتبون فيه ما يكون، فنظروا في ذلك اللوح، وسأله الملك، فأخبره بأمره، ونظروا في الكتاب متى فقد، فاستبشروا به وبأصحابه، وقيل له: انطلق بنا فأرنا أصحابك، فانطلق وانطلقوا معه، ليرىهم، فدخل قبل القوم، فضرب على آذانهم، فقال الذين غلبوا على أمرهم: ﴿ لَتَتَخَذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾.

وروى رواية مشابة أيضًا فقال : مَرَجَ أمر أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت

(١) جامع البيان في تفسير القرآن (١٣٢/١٥) .

فيهم الملوك، حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم على ذلك بقايا على أمر عيسى ابن مريم، متمسكون بعبادة الله وتوحيده، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم، ملك من الروم يقال له: دَقِينُوس، كان قد عبد الأصنام، وذبح للطواغيت، وقتل من خالفه في ذلك ممن أقام على دين عيسى ابن مريم. كان ينزل في قُرى الروم، فلا يترك في قرية ينزلها أحدا ممن يدين بدين عيسى ابن مريم إلا قتله، حتى يعبد الأصنام، ويدبح للطواغيت، حتى نزل دقینوس مدينة الفتية أصحاب الكهف فلما نزلها دقینوس كبر ذلك على أهل الإيمان، فاستخفوا منه وهربوا في كل وجه. وكان دقینوس قد أمر حين قدمها أن يتبع أهل الإيمان فيُجمعوا له، واتخذ شُرطا من الكفار من أهلها، فجعلوا يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم التي يستخفون فيها، فيستخرجونهم إلى دقینوس، فقدمهم إلى الجامع التي يذبح فيها للطواغيت فيخبرهم بين القتل، وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت، فمنهم من يرغب في الحياة ويُفطع بالقتل فيفتن، ومنهم من يأبى أن يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك أهل الصلابة من أهل الإيمان بالله، جعلوا يُسلمون أنفسهم للعذاب والقتل، فيقتلون ويقطعون، ثم يربط ما قطع من أجسادهم، فيعلّق على سور المدينة من نواحيها كلها، وعلى كل باب من أبوابها، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فمنهم من كفر فترك، ومنهم من صلب على دينه فقتل فلما رأى ذلك الفتية أصحاب الكهف، حزنوا حزنا شديدا، حتى تغيرت ألوانهم، ونحلت أجسامهم، واستعانوا بالصلاة والصيام والصدقة، والتحميد، والتسبيح، والتلهيل، والتكبير، والبكاء، والتضرّع إلى الله، وكانوا فتية أحداثا أحرارا من أبناء أشراف الروم.

قال مجاهد: لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حادثة أسنانهم وضح الورق وكانوا من قوم يعبدون الأوثان من الروم فهداهم الله للأسلام وكانت شريعتهم شريعة عيسى في قول جماعة من سلف علمائنا.

وقال عمرو بن قيس الملائي في دين الفتية أصحاب الكهف والرقيم: كانت الفتية على دين عيسى بن مريم على الإسلام وكان ملكهم كافرا وكان بعضهم يزعم أن أمرهم ومصيرهم إلى الكهف كان قبل المسيح وأن المسيح أخبر قومه خبرهم فإن الله عز وجل ابتعثهم من رقدتهم بعد ما رفع المسيح في الفترة بينه وبين محمد والله أعلم أي ذلك كان.

وهذا الذي ذهب إليه طائفة من أهل الإسلام أي أن أمرهم كان بعد المسيح فأما أنه كان في أيام ملوك الطوائف فإن ذلك مما لا يدفعه دافع من أهل العلم بأخبار الناس القديمة. هكذا نقله غير واحد من أهل العلم .



وصف الكهف

ذكر تعالى صفة الكهف الذي آوى إليه الفتية وإن بابه موجه إلى نحو الشمال وأعماقه إلى جهة القبلة، وذلك أنفع الأماكن أن يكون المكان قبلياً وبابه نحو الشمال فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾ وقرئ: «تَزَوَّرُ» ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ فالشمس في زمن الصيف وأشباهه تشرق أول طلوعها في الغار في جانبه الغربي، ثم تشرع في الخروج منه قليلاً قليلاً. وهو ازوارها ذات اليمين، أي: ناحية اليمين، وهي الجهة المسماة باليمين، فترتفع في جو السماء، وتتقلص عن باب الغار، ثم إذا تضيفت للغروب تشرع في الدخول فيه من جهته الشرقية قليلاً قليلاً إلى حين الغروب، كما هو المشاهد بمثل هذا المكان، والحكمة في دخول الشمس إليه في بعض الأحيان أن لا يفسد هواؤه ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ والقرض: القطع. قال الكسائي والأخفش والزجاج وأبو عبيدة: تعدل عنهم وتتركهم، وقرضت المكان: عدلت عنه، تقول لصاحبك: هل وردت مكان كذا؟ فيقول: إنما قرضته إذا مرّ به وتجاوز عنه، والمعنى: أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين أي: يمين الكهف، وإذا غربت تمرّ ﴿ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ أي شمال الكهف لا تصيبه. بل تعدل عن سمتة إلى الجهتين، والله أعلم.



مقدار لبثهم في الكهف

إذا تتبعنا سرد القصة فإننا نلاحظ أن ذكر نومهم ومدة لبثهم في الكهف كان من العلامات البارزة في سياق الآيات. فقد ضرب الله على آذانهم بالنوم في الكهف وضرب أي ألقى عليهم النوم.

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: أغناهم. والمعنى: سد الله آذانهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، و ضرب على آذانهم الحجاب تشبيهاً للإنامة الثقيلة المانعة من وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها؛ فمن المعلوم أن أقرب طرق الاستيقاظ للنائم تكون باسماعه صوتاً نداءً كان أم ضجيجاً.

وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وكان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد ثلاثمائة وازدادوا تسعاً. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلع عليه من خلقه.

قال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإغثار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيه أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر. فأمر الله تعالى أن يرَدَّ علم ذلك إليه. قال ابن عطية: فقوله على هذا «لبثوا» الأول يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإغثار إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلاء.

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد. أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك. أو إلى وقت تغييرهم بالبلى؛ وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصاً. أي لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علمه ذلك.

ثم بعثهم الله وأيقظهم من تلك النومة ليظهر ﴿ أَيُّ الْحَزَيْنِ ﴾ أضبط لما لبثوا. وكأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، فبعثهم الله ليتبين لهم ذلك، ويظهر من ضبط الحساب ممن لم يضبطه، أي: أحصى للبثهم. وكان بقاؤهم على هذه الصفة دهرًا طويلاً من السنين لا يأكلون ولا يشربون ولا تتغذى أجسادهم في هذه المدة الطويلة من آيات الله وبرهان قدرته العظيمة . وقد أثني سبحانه عليهم بقوله: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ ﴾ أي: إلى الحق ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح ﴿ وَمَن يَضِلَّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أي: ناصرًا يهديه إلى الحق.

كما حكى سبحانه طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا ﴾ جمع يقظ بكسر القاف وفتحها ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ أي: نيام، وهو جمع راقد كقعود في قاعد. قيل: وسبب هذا لأن أعينهم مفتوحة لئلا تفسد بطول الغمض ﴿ لَوْ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ ، والفرار: الهرب أي من حالهم وهيتهم ﴿ وَلَمُلِئْتَ ﴾ قرىء بتشديد اللام وتخفيفها ﴿ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾ قرىء بسكون العين وضمها أي: خوفاً يملأ الصدر ، قيل سبب الرعب : الهيبة التي ألبسهم الله إياها.

وقيل: طول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم ووحشة مكافهم، وهذا القول غريب يدفعه قوله تعالى مخبراً عنهم أنهم - الفتية - قد قدروا مدة لبثهم باليوم أو بجزء منه: ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فإن ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئاً، ولم يجدوا من أظفارهم وشعورهم ما يدل على طول المدة .

وقد بعثهم الله بقدرته بعثهم من نومهم، وقدرته على الإمامة والبعث جميعاً، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ليتساءلوا بينهم أي: ليقع التساؤل بينهم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال وظهور القدرة الباهرة، والاختصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرد لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ مبنية لما قبلها من التساؤل أي: كم مدة لبثكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة ، وإن ظنوا أن الأمر لم يكن إلا يوماً أو بعض يوم ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ أي: قال بعضهم جواباً عن سؤال من سأل منهم، قال بعض المفسرين: إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا يوماً، فلما

رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار، ثم بعثهم الله مرة أخرى وأحياهم بعد طول رقاد كما قال سبحانه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَتَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ هؤلاء الفتية الذين أَوَوْا إلى الكهف بعد ما ضرب الله على آذانهم فيه سنين عددا من رقدتهم، لينظر في عبادته فيعلموا بالبحث، أي الطائفتين اللتين اختلفتا في قدر مبلغ مكث الفتية في كهفهم رقادا أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا وأيهم أصوب لتقدير لبثهم فيه .

ومن عظيم رحمة الله بهم وكرامة منه سبحانه لهم أنه جل وعلا كان يقلبهم على حالتهم في تلك النوم كي لا تبلى أجسادهم أو يصيبها قرح كما هو معروف لمن أصابه مرض يلزمه الفراش فإنه يقلب من جنب إلى آخر محافظة على لحمه وجلده. كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ قيل في كل عام يتحولون مرة من جنب إلى جنب ويحتمل أكثر من ذلك فالله أعلم.

هذا وقد صحبتهم كلب لم يدخل معهم الكهف وإنما رقد أمامه . ﴿وَكَلْبُهُمْ بِأَسْطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال شُعَيْبُ الْجَبَائِي :اسم كلبهم (حمران)، والوصيد اسكفة الباب. وقالوا الوصيد عتبة الباب، والمراد أن كلبهم الذي كان معهم وصحبهم حال انفرادهم من قومهم، لزمهم ولم يدخل معهم في الكهف، بل ربض على بابه ووضع يديه على الوصيد، وهذا من جملة أدبه ومن جملة ما أكرموا به، فإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما صح هذا عن رسول الله ﷺ، ولما كانت التبعية مؤثرة حتى كان في كلب هؤلاء صار باقياً معهم ببقائهم، لأن من أحب قومًا سعد بهم، فإذا كان هذا في حق كلب فما ظنك بمن تبع أهل الخير وهو أهل للاكرام. وقد ذكر كثير من القصص والمفسرين لهذا الكلب نبأ وخبراً طويلاً أكثره متلقى من الاسرائيليات، وكثير منها كذب ومما لا فائدة فيه باختلافهم في اسمه ولونه. (١)

وأما الرقيم الذي اقترن بأصحاب الكهف فالراجح أنه الكتاب الذي كان القوم الذين منهم كان الفتية كتبوه في لوح بذكر خبرهم وقصصهم ثم جعلوه على باب الكهف الذي

أووا إليه أو نقروه في الجبل الذي أووا إليه أو كتبوه في لوح وجعلوه في صندوق خلفوه عندهم إذ أوى الفتية إلى الكهف.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم: طائفة واحدة أضيفت إلى شيتين: أحدهما معطوف على الآخر، خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى وأن الله قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم: وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف الذي هم فيه، فدعو الله بأعمالهم الصالحة: وهم البار بوالديه، والعفيف، والمستأجر. وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد في هذا المقام فهذا بعيد والله أعلم.

ونرجع إلى الفتية ؛ ففي رواية أنه قد كان لهم في ذلك الزمان ملك يقال له (دقنوس) يعبد الأصنام فيما ذكر عنه، وأكثر المفسرين على أن قوله ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ أي بين يدي ملك بلادهم، وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان، يزعمون أن اسمه: دقيانوس. فبلغه عن الفتية خلافهم إياه في دينه فطلبهم فهربوا منه بدينهم حتى صاروا إلى جبل لهم يقال له (نيحلوس).

وكان سبب إيمانهم وخلافهم به قومهم فيما رواه عبدالرزاق قال حدثنا معمر قال أخبرني إسماعيل بن سدوس أنه سمع وهب بن منبه يقول جاء حواري عيسى بن مريم إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقبل له إن على بابها صنما لا يدخلها أحد إلا سجد له فكره أن يدخلها فأتى حماما وكان فيه قريبا من تلك المدينة فكان يعمل فيه يؤاجر نفسه من صاحب الحمام ورأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودر عليه الرزق فجعل يعرض عليه الإسلام وجعل يسترسل إليه وعلقه فتية من أهل المدينة وجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة وكان يشترط على صاحب الحمام أن الليل لي لا تحول بيني وبين الصلاة إذا حضرت فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فغيره الحواري فقال أنت ابن الملك وتدخل ومعك هذه الكذا فاستحيا فذهب فرجع مرة أخرى فقال له مثل ذلك وسبه وانتهره ولم يلتفت حتى دخل ودخلت معه المرأة فماتا في الحمام جميعا فأتي الملك فقبل له قتل صاحب الحمام ابنك فالتمس فلم يقدر عليه فهرب قال من كان يصحبه فسموا الفتية فالتمسوا فخرجوا من المدينة

فمروا بصاحب لهم في زرع له وهو على مثل أمرهم فذكروا أنهم التمسوا وانطلق معهم ومعه الكلب حتى أواهم الليل إلى الكهف فدخلوه فقالوا نبئت ها هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف فكلما أراد رجل أن يدخل أرعب فلم يطق أحد أن يدخل فقال قائل أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف فدعهم فيه يموتوا عطشا وجوعا ففعل فغبروا بعدما بنى عليهم باب الكهف زمانا بعد زمان.

ثم إن راعيا أدركه المطر عند الكهف فقال لو فتحت هذا الكهف فأدخلته غنمي من المطر فلم يزل يعالجه حتى فتحه ودخل فيه ورد الله إليهم أرواحهم في أجسادهم من الغد حين أصبحوا فبعثوا أحدهم بورق يشتري لهم طعاما فكلما أتى باب مدينتهم رأى شيئا ينكره حتى دخل على رجل فقال : بعني بهذه الدراهم طعاما قال ومن أين لك هذه الدراهم قال : خرجت وأصحاب لي أمس فأوانا الليل حتى أصبحوا فأرسلوني فقال : هذه الدراهم كانت على عهد الملك فلان فأنى لك بما فرفعه إلى الملك وكان ملكا صالحا فقال من أين لك هذه الورق قال: خرجت أنا وأصحاب لي أمس حتى أدركنا الليل في كهف كذا وكذا ثم أمروني أن أشتري لهم طعاما قال وأين أصحابك قال في الكهف قال فانطلقوا معه حتى أتوا باب الكهف فقال دعوني أدخل إلى أصحابي قبلكم فلما رأوه ودنا منهم ضرب على أذنه وآذانهم فجعلوا كلما دخل رجل أرعب فلم يقدرُوا على أن يدخلوا إليهم فبنوا عندهم كنيسة واتخذوها مسجدا يصلون فيه.

هذا وقد جاءت بعض الروايات الأخرى لأصحاب الكهف كما أوردها الطبري أيضًا وغيره فقال : حدثنا الحسن بن يحيى قال حدثنا عبدالرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن عكرمة قال كان أصحاب الكهف أبناء ملوك الروم رزقهم الله الإسلام فتفردوا بدينهم واعتزلوا قومهم حتى انتهوا إلى الكهف فضرب الله على سمعهم فلبثوا دهرًا طويلا حتى هلك أمتهم وجاءت أمة مسلمة وكان ملكهم مسلما واختلفوا في الروح والجسد فقال قائل تبعث الروح والجسد جميعا وقال قائل تبعث الروح وأما الجسد فتأكله الأرض فلا يكون شيئا فشق على ملكهم اختلافهم فانطلق فلبس المسوح وجلس على الرماد ثم دعا الله عز وجل فقال: يا رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم ما يبين لهم فبعث الله أصحاب الكهف فبعثوا أحدهم

يشترى لهم طعاما فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه ويعرف الطرق ويرى الإيمان بالمدينة ظاهرة.

فانطلق وهو مستخف حتى أتى رجلا يشتري منه طعاما فلما نظر الرجل إلى الورق أنكرها قال حسبت أنه قال كأنها أخفاف الربع يعني الإبل الصغار، قال له الفتى أليس ملككم فلان قال بل ملكنا فلان فلم يزل ذلك بينهما حتى رفعه إلى الملك فسأله فأخبره الفتى خبر أصحابه فبعث الملك في الناس فجمعهم فقال : إنكم قد اختلفتم في الروح والجسد وإن الله عز وجل قد بعث لكم آية فهذا رجل من قوم فلان يعني ملكهم الذي مضى، فقال الفتى انطلقوا بي إلى أصحابي فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف فقال الفتى دعون أدخل إلى أصحابي فلما أبصرهم ضرب الله على أذنه وعلى آذانهم فلما استبطؤوه دخل الملك ودخل الناس معه فإذا أجساد لا ينكرون منها شيئا غير أنها لا أرواح فيها فقال الملك هذه آية بعثها الله لكم.

واتفق أن موت الفتية إنما كان بالكهف بعد ما عثر عليهم ثم: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ﴾.

لم يبين الله هنا من هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم، هل هم من المسلمين أو من الكفار؟ وذكر ابن جرير وغيره فيهم قولين: أحدهما - أنهم كفار، والثاني - أنهم مسلمون، وهي قولهم: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ ﴾ لأن اتخاذ المساجد من صفات المؤمنين لا من صفات الكفار. هكذا قال بعض أهل العلم. ولكن اتخاذ المساجد على القبور من فعل الملحونين على لسان رسول الله ﷺ، لا من فعل المسلمين.

هذا وقد وقع لكثير من الناس خلط في مسألة اتخاذ مساجد على قبور صالحهم وقد عمد بعضهم إلى الآية التي مرت معنا في سورة الكهف فاتخذها حجة في بناء المساجد على القبور، ولا شك أن بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين عين الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، ومما يدل على ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً

وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة». اه هذا لفظ مسلم، ولفظ البخاري قريب منه.

والتحقيق الذي لا شك فيه: أنه لا يجوز البناء على القبور ولا تخصيصها. كما رواه مسلم في صحيحه وغيره عن أبي الهياج الأسدي: أن علياً رضي الله عنه قال له: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «ألا تدع مثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته». ولما ثبت في صحيح مسلم وغيره أيضاً عن جابر رضي الله عنه قال: «نهي رسول الله ﷺ أن يخصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه». فهذا النهي ثابت عنه ﷺ. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وقال جل وعلا: ﴿وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾.

وأقول والعلم عند الله: أن اتخاذ المسجد عليهم إنما كان كنيسة كما روى أهل التفسير قد بناها قوم فتية الكهف مظنة تخليد ذكراهم، وفعلهم هذا جاء في القرآن تقريراً لعمل القوم لا رضاً بما فعلوا.

* وخلاصة القول :-

أن الله أوحى لنبيه محمد ﷺ ليطلع على قصة أصحاب الكهف وأنها وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجيباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا، فإن خلقنا للسموات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينة لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً - أعظم وأوجب مما فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أئمناهم هذا الزمن الطويل، ثم بعثناهم، ويدل لهذا الذي ذكرنا آيات كثيرة: منها أنه قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ إلى قوله ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ فدل ذلك على أن المراد أن قصتهم لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلقنا مما هو أعظم منها.

ومنها: أنه يكثر في القرآن العظيم تنبيه الناس على أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، ومن خلق الأعظم فهو قادر على الأصغر بلا شك، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وكقوله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ إلى قوله ﴿مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا نُعَمِّكُمْ﴾. فالله الذي خلق هذه المخلوقات العظام: كالسماء والأرض وما فيهما فلا عجب في إقامته أهل الكهف هذه المدة الطويلة، ثم بعثه إياهم، كما هو

واضح. والله أعلم بمراده ومعناه .

فهؤلاء الفتية الذين آمنوا برهم فزادهم رهم هدى قالوا : إن رهم هو رب السموات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا شططاً.

فيعلم مما سبق أن أهل الكهف كانوا فتية قد أسلموا لله واتبعوا رسله وكتبه، ولا يعنيها من قريب أو بعيد أي رسول كانوا يتبعون ؛ لأن الدين عند الله الإسلام وإن تعددت الرسل واختلفت أسماء الكتب؛ فدعوة الرسل واحدة وهي عبادة الله وحده لا شريك له هذه هي دعوة الأنبياء والرسل أجمعين؛ فمن آمن بها واعتقدها فعليه أن يتأهب للمشاق والابتلاآت .



بعض الفوائد من قصة أهل الكهف

١- إن المرء ليقف طويلاً مسبحاً لله ؛ مجدداً له حينما يرى المعجزات الربانية ترى؛ وكل منها يقف العقل أمامه عاجزاً غير أن يقول: سبحانك يارب رفعت السماء بغير عمد وبسطت الأرض بلا عون ولا مدد، وأمنت فتية الكهف فلا ينتظرون وأيقظتهم كأنهم من الأحداث إلى ربهم ينسلون، وقلت مُجدت خير قائل ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ . فهل قصة أهل الكهف وما فيها من معجزات أعظم من غيرها ؟: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني يا محمد ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ فليس أمرهم عجيباً في قدرة الله وسلطانه فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

٢- أن التوحيد هو الدين؛ فلا يستقيم دين إمريء إلا بترك ما يعبد من دون الله أحياءً كانوا أم أمواتا، وما ترك فتية الكهف قومهم وديارهم إلا خوفاً على معنى لا إله إلا الله في قلوبهم وحياتهم ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

٣- أن الإيمان بالله طريق الهداية والإيمان يحصل بالاتباع لسنة محمد ﷺ ؛ فلا يكفي أن يولد المرء من أبوين مسلمين ليحصل له الإيمان وإنما يحصل الإيمان بتصديق القلب وعمل الجوارح بصحيح الاعتقاد. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ . [النساء : ١٣٦] .

٤- أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصية؛ فكما هو عليه اعتقاد أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعات وتهذيب النفس ، وإكراهها على ترك المعاصي وتعويدها العبادات فبذلك يحصل إن شاء الله الزيادة الربانية للإيمان ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ . [الكهف : ١٣-١٤] .

٥- إذا بلغ الأمر الإكراه على الكفر فاعتزال الكفار وهجرهم مخافة الفتنة في الدين والفرار إلى الله يعد من الواجبات المتحتمات، وقد يقول القائل ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية . نقول وبالله التوفيق: نعم . ولكن لما الانتظار حتى يبلغ المرء هذا المبلغ خاصة إذا كان حراً طليقاً وأرض الله واسعة!! .

٦- إذا بلغ الأمر الإكراه على الكفر فاعتزال الكفار وهجرهم مخافة الفتنة في الدين والفرار إلى الله يعد من الواجبات المتحتمات، وقد يقول القائل ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ الآية . نقول وبالله التوفيق: نعم . ولكن لما الانتظار حتى يبلغ المرء هذا المبلغ خاصة إذا كان حراً طليقاً وأرض الله واسعة!! . ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ الآية .

أما إذا كان الأمر معاصي قد كثرت، وفواحش أعلن بها ومحرمات استهين بها . فكل نفس بصيرة عليها ؛ فمن وجد في نفسه لين فليجتنب أهل المعاصي ، ومن كان به جلد فليمض بين الناس داعياً للخير أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، روى البغوي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: العبادة في الهرج، كهجرة إلى^(١) . وفي رواية: العبادة في الفتنة...^(٢) .

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢١٣/٢٠) وقد صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٣٦/٢) .

٧- استحباب الهجرة من الأرض التي يجهر فيها بالمعاصي

(لا شك أن الخبث إذا ظهر وانتشرت المعاصي وعمت الفتن الطالح منهم والصالح عياداً بالله!).

فعند هذا استحب السلف الهجرة من أرض تظهر فيها المعاصي جهاراً!!.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ أن نبي الله ﷺ قال: كان في من كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً. فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله!. فكمّل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس. فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا. فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم. ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصّف (بلغ نصفها) الطريق أتاه الموت. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي. فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين. فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد. فقبضته ملائكة الرحمة.

قال قتادة: فقال الحسن: ذكر لنا؛ أنه لما أتاه الموت نأى (نهض) بصدرة. متفق عليه^(١).

فدل هذا الحديث على استحباب هجر الأراضي والديار التي تظهر فيها المعاصي والمنكرات، وفيه استحباب التائب لأخذان وأصحاب السوء المساعدين على ارتكاب المعاصي، ومقاطعتهم واعتزالهم ما داموا على حالهم السيئة، واستبدالهم بأصحاب الخير والصلاح. وبهذا ذهب أهل العلم كافة.

يقول النووي - رحمه الله - عند شرحه لهذا الحديث: قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخذان المساعدين له على ذلك، ومقاطعتهم ماداموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء

(١) أخرجه البخاري (٦ / ٥٩١)، ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

والمتعبدین الورعین ، ومن یقتدی بهم ینتفعُ بصحبتهُم ، وتتأكد بذلك توبته ^(١) .

وكذا قال ابن حجر - رحمه الله - : وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية ، لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك ، إما لتذكرة لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها ، وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه ، ولهذا قال له الأخير : ولا ترجعُ إلى أرضك فإنها أرض سوء ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها والإشتغال بغيرها... ^(٢) .

وأورد القرطبي - رحمه الله - نحواً من ذلك ثم نقل أقوال العلماء في ذلك فقال: الفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي، وانتشار المنكر، وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة، والهرب منها، وهكذا كان الحكم فيمن قبلنا من الأمم كما في قصة السبت حين هجروا العاصين. وقالوا: لا نساكنكم؛ وبهذا قال السلف - رضي الله عنهم - ^(٣) .

ثم ذكر ما رواه ابن وهب عن مالك قال: تهجر الأرض التي يُصنع فيها المنكر جهاراً، ولا يستقر فيها.

وقال مالك : لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير حق ، والسب للسلف . قال أبو عمر ابن عبد البر - رحمه الله - : أما قول مالك هذا ، فمعناه إذا وجد بلدًا يعمل فيه الحق في الأغلب ، وقد قال عمر بن عبد العزيز : فلان في المدينة ، وفلان بمكة ، وفلان بالعراق ، وفلان بالشام ، أمتلكت الأرض والله جوراً وظلماً ! .

قال ابن عبد البر : فأين الهرب إلا إلى السكوت ولزوم البيت ، والرضى بأقل قوت؟ ^(٤) .

ثم نقل القرطبي أيضاً قول سفيان الثوري ، وهو غاية النفاسة ، فقال : وكان سفيان الثوري يقول : هذا زمان سوء ، لا يؤمن فيه على الخاملين ، فكيف بالمشهورين؟ هذا زمان ينتقل فيه الرجل من قرية إلى قرية يفر بدينه من الفتن ! .

(١) انظر «شرح مسلم» للنووي (١٧/٨٣) .

(٢) انظر «فتح الباري» لابن حجر (٦/٥٩٨) .

(٣) انظر «التذكرة» للقرطبي (٢/٢٠٨) .

(٤) انظر «التذكرة» (٢/٢٠٩) .

ويُحكى عنه أنه قال: والله مَادري أي البلاد أَسكن فقيل له: خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، فقيل : الشام، فقال: يشار إليكم بالأصابع- أراد الشهرة- فقيل له: فالعراق، قال: بلد الجبابة، فقيل له: فمكة، قال: مكة تُذيب الكيس والبدن ^(١).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي قال: « يُهْلِكُ أمتي هذا الحيُّ من قريش » قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: « لو أن الناس اعتزلوهم » ^(٢). متفق عليهم.

وفي شرح هذا الحديث يقول ابن حجر- رحمه الله- : ويؤخذ من هذا الحديث استحباب هجران البلدة التي يقع فيها إظهار المعصية فإنها سبب وقوع الفتن التي ينشأ عنها عموم الهلاك، قال بن وهب عن مالك: تمجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهاراً، وقد صنع ذلك جماعة من السلف ^(٣).

وهناك الكثير والكثير من أقوال وأحوال سلفنا القاطعة باستحباب الهجرة من بلاد أهل المعاصي المجاهرين!.

هذا إذا علمنا أن الأرض قد أظلمت بالجور والظلم، ورقة الدين، وقلة الحياء، وانتشار المعاصي ، وتعالن أهل الفساد، وانتشار الرذائل وسفاسف الأمور!.

والحاصل: أنه من خلال ما سبق يتبين لنا استحباب اعتزال وهجر الديار التي تظهر فيها المعاصي والفتن، واستبدالها بديار الإيمان والصلاح ديار المؤمنين الصالحين. والله أعلم ^(٤).

تلكم كانت بعض الفوائد انتخلتها من قصة أصحاب الكهف .

(والحمد لله رب العالمين) .



(١) انظر المصدر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨/٦) ، ومسلم (٢٩١٧) واللفظ له.

(٣) انظر « فتح الباري » لابن حجر (١٣/١٣)، « والتذكرة » للقرطبي (٢٠٨/٢).

(٤) منقول - بتصرف يسير- من كتاب أحكام المجاهرين بالكبائر للشيخ ذياب الغامدي .

قِصَّةُ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَذِي الْقَرْنَيْنِ

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَاتَّبَعَ سَبَبًا ثُمَّ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا * ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وقال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْتَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ .

إن خير ياجوج ومأجوج قد ذكر في كتب الصحاح والتاريخ بروايات عدة. ماجاء في كتب الصحاح بسند صحيح؛ فهو صحيح إن شاء الله، وما كان ضعيفاً فالذي رواه قد اعتمد على روايات أهل الكتاب.

لا نصدقه كاملاً، ولا نكذبه. إلا ما كان مخالفاً لكتابنا وسنة نبينا فهو واجب الإنكار والتكذيب.

وقد ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ فرع ذات ليلة من نومه لما أوحى إليه في نومه من حالهم ومدى بلوغهم لنقب ردمهم ، واللافت للنظر أن الرسول ﷺ فرع من نومه عندما أوحى إليه أن النقب الذي نقبه ياجوج ومأجوج بلغ مقدار ما حلق بين إصبعية السبابة والإبهام. أي ما بين الأربعة والستة سنتيمترات؛ فماذا لو كان هذا النقب أكبر من هذا

القياس؛ فالله أعلم مبلغ هذا النقب الآن .

فالرواية التي وردت عن رسول الله ﷺ كانت قبل حوالي ألف وأربعمائة عام . وهذه هي الرواية .

فقد روى البخاري في صحيحه قال: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: حدثني عروة بن الزبير أن زينب ابنة أبي سلمة حدثته أن أم حبيبة بنت أبي سفيان حدثتها عن زينب بنت جحش: « أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول: « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍ قد اقترَب: فَتَحَ اليَوْمَ من رَدَمٍ يأجوج ومأجوج مثلُ هذا. وحلَّقَ بإصبعه وبالي تليها » . فقالت زينب: فقلتُ يا رسول الله أهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: « نعم، إذا كثَرَ الحَبْثُ » ^(١).

المتأمل في الحديث السابق يلحظ أن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها لما رأت فرع الرسول ﷺ عند ذكر نقب يأجوج ومأجوج؛ لم تسأله أم المؤمنين رضي الله عنها عن كثير إيضاح ولكن علمت أنهم من علامات الهلاك ومن علامات فتنة هذه الأمة؛ فسألته مباشرة « أهلك وفينا الصالحون » .

فقد استيقظ النبي ﷺ من النوم محمراً وجهه فرعاً، وكانت حمرة وجهه من ذلك الفرع، وخص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالى الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة كما وقع في الحديث الآخر « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » وأن المخاطب بذلك العرب، قال القرطبي: ويحتمل أن يكون المراد بالشر ما أشار إليه في حديث أم سلمة « ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا أنزل من الخزائن » فأشار بذلك إلى الفتوح التي فتحت بعده فكثرت الأموال في أيديهم فوقع التنافس الذي جر الفتن، وكذلك التنافس على الإمرة، فإن معظم ما أنكروه على عثمان تولية أقاربه من بني أمية وغيرهم حتى أفضى ذلك أن قتله، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر.



هل الترك من يأجوج ومأجوج؟

اختلف في أصل الترك، فقال الخطابي: هم بنو قنطوراء أمة كانت لإبراهيم عليه السلام وقال كراع: هم الديلم وتعقب بأنهم جنس من الترك، وكذلك الغز وقال أبو عمرو: هم من أولاد يافث وهم أجناس كثيرة وقال وهب بن منبه، هم بنو عم يأجوج ومأجوج، لما بنى ذو القرنين السد كان بعض يأجوج ومأجوج غائبين فتركوا لم يدخلوا مع قومهم فسموا الترك وقيل أنهم من نسل تبع، وقيل من ولد أفريدون بن سام بن نوح، وقيل ابن يافث لصلبه، وقيل ابن كومي بن يافث ذكر فيه حديثين أحدهما حديث عمرو بن تغلب بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام بعدها موحدة، والحسن هو البصري، والإسناد كله بصريون. حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ قَالَ : سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا يَنْتَعِلُونَ نَعَالِ الشَّعْرِ وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ تُقَاتِلُوا قَوْمًا عِرَاضَ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهُهُمْ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ » .

فالصحيح أنهم من بني آدم وعلى أشكالهم وصفاتهم. وقد قال النبي ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا » ثم « لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ » وهذا فيصل في هذا الباب. وفي الحديث المروي في المسند والسنن أن نوحًا ولد له ثلاثة وهم: سام وحام ويافث، فسام أبو العرب، وحام أبو السودان ويافث أبو الترك، فيأجوج ومأجوج طائفة من الترك، وهم مغل المغول، وهم أشدَّ بأسًا وأكثر فسادًا من هؤلاء، ونسبتهم إليهم كنسبة هؤلاء إلى غيرهم. وقد قيل إن الترك إنما سموا بذلك حين بنى ذو القرنين السد، وألجأ يأجوج ومأجوج إلى ما وراءه، فبقيت منهم طائفة لم يكن عندهم كفسادهم فتركوا من ورائه. فلهذا قيل لهم الترك.

هيئة القوم وسمتهم

ورد في جمع من كتب السنن أوصاف لخلق يأجوج ومأجوج ، وأن خلقتهم تختلف عن الخلقة المألوفة للعرب أو الفرس أو الروم ؛ فقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن جرمة عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب إصبعة من لدغة عقرب، فقال: « إنكم تقولون لا عدو، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوًا حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، شهب الشعاف، من كل حذب ينسلون، كان وجوههم المجان المطرقة » .

فلا شك أن يأجوج ومأجوج في زمان خروجهم يشكلون فتنة كبيرة وابتلاءً عظيمًا للمسلمين؛ وإليك أخي الكريم بعض الروايات التي وردت في ذكرهم .

ورد عن أبي سعيد أنه قال : تُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ فَيَعُشُونَ النَّاسَ وَيَنْحَارُ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ إِلَى مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ وَيَشْرَبُونَ مِياهَ الْأَرْضِ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرَكُوهُ يَبَسًا حَتَّى أَنْ مَنْ يَمُرُّ مِنْ بَعْدِهِمْ لَيَمُرُّ بِذَلِكَ النَّهْرِ فَيَقُولُ قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاءٌ مَرَّةً حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ إِلَّا أَحَدٌ فِي حَصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ قَالَ قَائِلُهُمْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَرْضِ قَدْ فَرَعْنَا مِنْهُمْ بَقِيَّ أَهْلِ السَّمَاءِ ثُمَّ يَهْزُ أَحَدُهُمْ حَرْبَتَهُ ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ مُخْتَضِبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُودًا فِي أَعْنَاقِهِمْ كَنَغَفِ الْجَرَادِ الَّذِي يَخْرُجُ فِي أَعْنَاقِهِ فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لَا يُسْمَعُ لَهُمْ حَسٌّ فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ أَلَا رَجُلٌ يَشْرِي لَنَا نَفْسَهُ فَيَنْظُرُ مَا فَعَلَ هَذَا الْعَدُوُّ فَيَتَجَرَّدُ رَجُلٌ مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ قَدْ أَوْطَنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ فَيَنْزِلُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَيَنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَلَا أَبْشَرُوا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيَهُمْ فَمَا يَكُونُ لَهُمْ مَرْعَى إِلَّا لِحَوْمِهِمْ فَتَشْكُرُ عَنْهُ كَأَحْسَنِ مَا شَكَرْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ أَصَابَتْهُ قَطْرٌ .

ويأجوج ومأجوج من أمارات الساعة وعلامات القيامة التي تواترت كتب السنة بها؛ بل من العلامات الكبرى والأشراط العظمى، تلکم العلامات التي إذا استوفت أجلها قامت

القيامة ولا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل ؛ فأول الآيات ظهور الدجال ثم نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها وذلك لأن الكفار يسلمون في زمان عيسى عليه السلام حتى تكون الدعوة واحدة فلو كانت الشمس طلعت من مغربها قبل خروج الدجال ونزل عيسى لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحداً.

وهؤلاء القوم - يأجوج ومأجوج - ينسلون نسلًا كثيرًا ويتكاثرون تكاثراً لم يعهد أن عُرف عبر تاريخ الأمم والشعوب ، فقد ورد عن أوس بن أوس رضي الله عنه أنه قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ لَهُمْ نِسَاءٌ يُجَامِعُونَ مَا شَاءُوا ، وَشَجَرٌ يَلْقَحُونَ مَا شَاءُوا ، فَلَا يَمُوتُ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ أَلْفًا فَصَاعِدًا » ^(١).

ومن هنا كان قول الله تبارك وتعالى ﴿ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ، فنسلهم له وظيفة دينوية قد قدرها المولى تبارك وتعالى؛ لعل هذه الحكمة في أنهم من فتن آخر الزمان؛ فيكون حالهم وهيئتهم ونسلهم وبأسهم غير المألوف والمعتاد، وقد يستعلمهم الله جل وعلا ويسخرهم لإنفاذ أقداره وما كتبه على البلاد والعباد، وقد يكون هذا وذاك؛ فالله أعلم بمراده ومقصده.

فقد جاء في « الأوسط » للطبراني من حديث حذيفة رفعه قال : « يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمئة ألف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح » .

ولكن من الثابت أن هذا النسل هو غالب أهل النار - عفانا الله والمسلمين - الذين يملئون جهنم وهم بعثها، وهم فداء المؤمنين والمسلمين؛ فكما ورد في الحديث النبوي عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : يَا آدَمُ ! فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ . قَالَ : أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارَ . قَالَ : وَمَا بَعَثَ النَّارَ ؟ قَالَ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ » . قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ : « أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ » . ثُمَّ قَالَ : « وَالَّذِي

(١) جامع الأحاديث والمراسيل (٢ / ٣٨٢) .

نَفْسِي بِيَدِهِ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ : « أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا. فَقَالَ : « أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» . فَكَبَّرْنَا. قَالَ : « مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ » ^(١) .



خبر ياجوج وماجوج وذي القرنين

روى الطبري عن عقبة بن عامر قال: كنت يوماً أخدم رسول الله ﷺ، فخرجت من عنده، فلقيني قوم من أهل الكتاب، فقالوا: نريد أن نسأل رسول الله ﷺ، فاستأذن لنا عليه، فدخلت عليه، فأخبرته، فقال: « مالي وما لهم، مالي علم إلا ما علمني الله »، ثم قال: « اسكب لي ماء »، فتوضأ ثم صلى، قال: فما فرغ حتى عرفت السرور في وجهه، ثم قال: « أدخلهم عليّ، ومن رأيت من أصحابي » فدخلوا فقاموا بين يديه، فقال: « إن شئتم سألتكم فأخبرتكم عما تجدونه في كتابكم مكتوباً، وإن شئتم أخبرتكم »، قالوا: بلى أخبرنا، قال: « جئتم تسألوني عن ذي القرنين، وما تجدونه في كتابكم: كان شاباً من الروم، فجاء فبنى مدينة مصر الإسكندرية فلما فرغ جاءه ملك فعلا به في السماء، فقال له ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي ومدائن، ثم علا به، فقال: ما ترى؟ فقال: أرى مدينتي، ثم علا به فقال: ما ترى؟ قال: أرى الأرض، قال: فهذا اليم محيط بالدنيا، إن الله بعثني إليك تعلم الجاهل، وثبت العالم، فأتى به السد، وهو جبلان لينان يزلق عنهما كل شيء، ثم مضى به حتى جاوز ياجوج وماجوج، ثم مضى به إلى أمة أخرى، وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون ياجوج وماجوج، ثم مضى به حتى قطع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الدين وجوههم وجوه الكلاب، ثم مضى حتى قطع به هؤلاء إلى أمة أخرى قد سماهم ».

كما جاء عن حذيفة بن اليمان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن آيين، تسوق الناس إلى المحشر، ثقل معهم إذا قالوا. والدخان، والدابة، ثم ياجوج وماجوج » قال حذيفة: قلت: يا رسول الله، وما ياجوج وماجوج؟ قال: « ياجوج وماجوج أمم، كل أمة أربع مئة ألف، لا يموت الرجل منهم حتى يرى ألف عین تطرف بين يديه من ضلبيه، وهم ولد آدم، فيسيرون إلى خراب الدنيا، يكون مقدّمهم بالشام وساقطهم بالعراق، فيمرّون بأهوار الدنيا، فيشربون الفرات والدجلة وبحيرة الطبرية حتى يأتوا بيت المقدس، فيقولون قد قتلنا أهل الدنيا فقاتلوا من في السماء، فيرمون بالنشاب إلى السماء، فترجع نوابهم مخصبة بالدم، فيقولون قد قتلنا من في السماء، وعيسى والمسلمون بجبل طور سين، فيوحى الله جلّ جلاله إلى عيسى: أن أحرز عبادي بالطور وما

يَلِي أَيْلَةً ثُمَّ إِنَّ عِيسَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيُؤْمِنُ الْمُسْلِمُونَ فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا النَّعْفُ، تَدْخُلُ مِنْ مَنَاخِرِهِمْ فَيَصْبِحُونَ مَوْتَى مِنْ حَاقِ الشَّامِ إِلَى حَاقِ الْعِرَاقِ، حَتَّى تَنْتَنَ الْأَرْضُ مِنْ جِيفِهِمْ وَيَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ كَأَفْوَاهِ الْقِرْبِ، فَتَغْسِلُ الْأَرْضَ مِنْ جِيفِهِمْ وَنَسْنِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا .

وَالنَّعْفُ بَفَتْحَتَيْنِ وَغَيْنٍ مَعْجَمَةُ الدُّودِ الَّذِي يَكُونُ فِي أَنْوْفِ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ الْوَاحِدَةُ نَعْفَةٌ بَفَتْحَتَيْنِ أَيْضًا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَهُوَ أَيْضًا الدُّودُ الْأَبْيَضُ الَّذِي يَكُونُ فِي النُّوَى إِذَا أَنْقَعَ^(١).



لماذا سمي بذئ القرنين؟

واختلف أهل العلم في المعنى الذي من أجله قيل لذي القرنين: ذو القرنين، فقال بعضهم: قيل له ذلك من أجل أنه ضُربَ على قَرْنِه فهلك، ثم أُحْيِيَ فضُربَ على القرن الآخر فهلك. سأل ابن الكوّاء علياً عن ذي القرنين، فقال: هو عبد أحبّ الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قَرْنِه فقتلوه، ثم بعثه الله، فضربوه على قَرْنِه فمات، فسمي ذا القرنين.



هل ذو القرنين نبي أم ملك؟

جاءت بعض الروايات أن ذا القرنين من الأنبياء ، وبعض الروايات جاء فيها أنه كان عبداً صالحاً؛ فقد روى الطبري حديثاً بهذا الشأن فقال: حدثنا محمد بن المثنى، قال: ثنا محمد ابن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل، قال: سمعت علياً وسأله عن ذي القرنين أنبيأ كان؟ قال: كان عبداً صالحاً، أحب الله فأحبه، وناصح الله فنصحه، فبعثه الله إلى قومه، فضربوه ضربتين في رأسه، فسمي ذا القرنين، وفيكم اليوم مثله.

أخرج الحاكم من حديث أبي هريرة قال النبي ﷺ : لا أدري ذو القرنين كان نبياً أو لا ، وذكر وهب في "المبتدأ" أنه كان عبداً صالحاً وأن الله بعثه إلى أربعة أمم أمتين بينهما طول الأرض وأمتين بينهما عرض الأرض وهي ناسك ومنسك وتأويل وهاويل، فذكر قصة طويلة حكاهما الثعلبي في تفسيره.

وقال الزبير في أوائل: "كتاب النسب" حدثنا إبراهيم بن المنذر عن عبد العزيز بن عمران عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل سمعت ابن الكوا يقول لعلي بن أبي طالب: أخبرني ما كان ذو القرنين قال: كان رجلاً أحب الله فأحبه، بعثه الله إلى قومه فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله إليهم فضربوه على قرنه ضربة مات منها، ثم بعثه الله فسمي ذو القرنين، وزاد: وناصح الله فنصحه، وفيه لم يكن نبياً ولا ملكاً.

وقيل: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها، وقيل: لأنه ملكهما وقيل: رأى في منامه أنه أخذ بقربي الشمس، وقيل: كان له قرنان حقيقة، وهذا أنكره علي في رواية القاسم بن أبي بزة، وقيل: لأنه كان له ضفيرتان تواريهما ثيابه، وقيل: لأنه كانت له غديرتان طويلتان من شعره حتى كان يطأ عليهما، وتسمية الضفيرة من الشعر قرناً معروف ومنه قول أم عطية: "وضفرنا شعرها ثلاثة قرون" ومنه قول جميل: "فلثمت فاماها آخذاً بقرونها" وقيل: لأنه عمر حتى فني في زمنه قرنان من الناس، وقيل: لأن قرني الشيطان عند مطلع الشمس وقد بلغه، وقيل: لأنه كان كريم الطرفين أمه وأبوه من بيت شرف، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً.

وقال الطبري: هو إسكندروس بن فيلبوس وقيل فيلبس وبالثاني جزم المسعودي، وقيل: اسمه الهميسع ذكره الهمداني في كتب النسب قال: وكنيته أبو الصعب وهو ابن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وقيل: ابن عبد الله بن قرين بن منصور بن عبد الله بن الأزد، وقيل: بإسقاط عبد الله الأول، وأما قول ابن إسحاق الذي حكاه ابن هشام عنه أن اسم ذي القرنين مرزبان بن مردية، بدال مهمله وقيل: بزاي فقد صرح بأنه الإسكندر، ولذلك اشتهر على الألسنة لشهرة السيرة لابن إسحاق.

وقد ورد عن ابن عباس، قال: كان ذو القرنين ملكاً صالحاً رضي الله عمله وأثنى عليه في كتابه، وكان منصوراً وكان الخضر وزيره . وذكر أن الخضر عليه السلام كان على مقدمة جيشه، وكان عنده بمنزلة المشاور الذي هو من الملك بمنزلة الوزير في إصلاح الناس اليوم. وقد ذكر الأزرقى وغيره أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل، وطاف معه بالكعبة المكرمة هو وإسماعيل عليه السلام.

وذو القرنين المذكور في القرآن المذكور في ألسنة الناس بالإسكندر ليس الإسكندر اليوناني، فإنه مشرك ووزيره أرسطاطاليس، والإسكندر المؤمن الذي ذكره الله في القرآن اسمه: عبد الله بن الضحاك بن معد، قاله ابن عباس، ونسب هذا القول أيضاً إلى علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، وقيل: مصعب بن عبد الله بن قنان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن قحطان، وقد جاء في حديث: أنه من حمير وأمه رومية، وأنه كان يقال له ابن الفيلسوف لعقله، وذكر ابن هشام: أن اسمه الصعب بن مرثد وهو أول التبايعه وقال مقاتل من حمير وفد أبوه إلى الروم فتزوج امرأة من غسان فولدت له ذا القرنين عبداً صالحاً، وقال وهب بن منبه: اسمه الاسكندر.

قلت: ومن هنا يشارك الإسكندر اليوناني في الاسم، وكثير من الناس يخطئون في هذا ويزعمون أن الإسكندر المذكور في القرآن هو الإسكندر اليوناني، وهذا زعم فاسد، لأن الإسكندر اليوناني الذي بنى الإسكندرية كافر مشرك، وذو القرنين عبد صالح ملك الأرض شرقاً وغرباً.

وحكى السهيلي أنه قيل: إنه رجل من ولد يونان بن يافث اسمه هرمس ويقال هرديس، وحكى القرطبي المفسر تبعاً للسهيلي أنه قيل إنه أفريدون، وهو الملك القديم للفرس الذي قتل

الضحاك الجبار الذي يقول فيه الشاعر: فكأنه الضحاك في فتكاته بالعالمين وأنت أفريدون وللضحاك قصص طويلة ذكرها الطبري وغيره.

والذي يقوي أن ذا القرنين من العرب كثرة ما ذكروه في أشعارهم، قال أعشى بني ثعلبة:

والصعب ذو القرنين أمسى ثاويا بالحنو في جدث هناك مقيم

والحنو بكسر المهملة وسكون النون في ناحية المشرق، وقال الربيع بن ضبيع:

والصعب ذو القرنين عمر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما

وقال قس بن ساعدة:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا باللحد بين ملاعب الأرياح

وقال تبع الحميري:

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا تدين له الملوك وتحشد

من بعده بلقيس كانت عمتي ملكتهم حتى أتاها الهدهد

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذي القرنين من اليمن يخاطب قوما من مضر:

سموا لنا واحدا منكم فعرفه كالتبعين في الجاهلية لاسم الملك محتملا

وذي القرنين يقبله أهل الحجا وأحق القول ما قبلنا

وقال النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي ابن الصحابي:

ومن ذا يعاديننا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

ووقع ذكر ذي القرنين أيضا في شعر امرئ القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد

وغيرهم، وأخرج بسنده عن سفيان الثوري قال: بلغني أنه ملك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان

وكافران، سليمان النبي عليه السلام وذو القرنين ونمرود وبختنصر، ورواه وكيع في تفسيره عن

مجاهد قال: ملك الأرض أربعة هم: سليمان النبي عليه السلام وذو القرنين ونمرود وبختنصر.

❖ وخلاصة القول :-

أن ذا القرنين اسمًا كان أم صفة فقد كانت له سمات خاصة وقدرات فائقة، وقد رزقه الله ما لم يعط لغيره - في زمانه - من أسباب القوة والغلبة والانتصار، وهو من عباد الله الصالحين نبيًا كان أم ملكًا؛ مؤمنًا مسلمًا. وفي عهده انتشر العدل والصدق وكثرت الخيرات. وقد أورد البخاري في صحيحه ما يدل على أن عهده كان زمان خير وصلاح ما رواه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: « اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عِقَارًا لَهُ فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعِقَارَ فِي عِقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ: لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعِقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ وَلَمْ أَتُبِعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بَعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: بَالَكُمْمَا وَلَد؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: انْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ وَأَلْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ، وَتَصَدَّقَا ». هكذا روى البخاري هذا الحديث في أخبار بني إسرائيل وأخرجه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق به. وقد روى أن هذه القصة وقعت في زمن ذي القرنين.

وقال إسحاق بن بشر في كتابه « المبتدأ »: أن ذا القرنين كان يتفقد أمور ملكه وعماله بنفسه، وكان لا يطلع على أحد منهم خيانة إلا أنكر ذلك عليه، وكان لا يقبل ذلك حتى يطلع هو بنفسه. قال فبينما هو يسير متنكرًا في بعض المدائن، فجلس إلى قاضٍ من قضاةهم أيامًا لا يختلف إليه أحد في خصومة، فلما أن طال ذلك بذي القرنين ولم يطلع على شيء من أمر ذلك القاضي، وهمّ بالانصراف إذا هو برجلين قد اختصما إليه، فادعى أحدهما فقال: أيها القاضي إني اشتريت من هذا دارًا عمَّرتها ووجدت فيها كنزًا، وإني دعوته إلى أخذه فأبى عليّ، فقال له القاضي: ما تقول؟ قال: ما دفنت وما علمت به، فليس هو لي ولا أقبضه منه، قال المدعي: أيها القاضي مر من يقبضه فتضعه حيث أحببت، فقال القاضي: تفر من الشر وتدخلني فيه ما أنصفتني وما أظن هذا في قضاء الملك. فقال القاضي: هل لكم أمرًا نصفًا مما دعوتاني إليه، قالا: نعم. قال: للمدعي ألك ابن؟ قال: نعم، وقال للآخر ألك ابنة؟ قال: نعم. قال: اذهبا فزوج ابنتك من ابن هذا وجهزهما من هذا المال، وادفعا فضل ما بقي إليهما يعيشان به فتكونا مليا بخيره وشره. فعجب ذو القرنين حين سمع ذلك، ثم قال للقاضي: ما ظننت أن في الأرض أحدًا يفعل مثل هذا، أو قاضٍ يقضي بمثل هذا. فقال القاضي وهو لا

يعرفه: وهل أحد يفعل غير هذا؟ قال ذو القرنين: قال نعم، قال القاضي: فهل يعطرون في بلادهم فعجب ذو القرنين من ذلك، وقال: يمثل هذا قامت السموات والأرض. وقد آتاه الله خيراً كثيراً وعلماً وفيرة وسخر له من أسباب القوة ما لم يسخر لغيره فقد بلغ ذو القرنين المشق والمغرب وسخر له الله السحاب و بسط له النور.



هل رأسه من نحاس؟

روى الطبري بسنده عن وهب بن منبه اليماني، قال: إنما سمي ذا القرنين لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس. والله أعلم بصحة تلك الرواية.

وقد مَكَّنَ الله لَهُ في الأرضِ وآتاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا، وقد اختلف في معنى كلمة: سببًا فقيل: يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به، وقيل: وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا: أي علمًا.

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة أن الله مد لذي القرنين من أسباب القوة ما تمكنه من بلوغ أسباب النصر والتمكين. قيل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كيف بلغ ذو القرنين المشرق والمغرب، قال: سخر له السحاب وبسط له النور ومد له الأسباب، ثم قال: أزيديك؟ قال: حسبي.^(١)

وقيل: علم كل شيء. وقوله: فَأَتَّبَعَ سَبَبًا اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة: « فَأَتَّبَعَ » بوصل الألف، وتشديد التاء، بمعنى: سلك وسار، من قول القائل: اتَّبَعْتُ أثر فلان: إذا قفوته وسرت وراءه، ثم سار ذو القرنين طرقا ومنازل.

حتى إذا بَلَغَ ذو القرنين مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ، فاختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراء المدينة والبصرة: في عَيْنٍ حَمِئَةٍ بمعنى: أنها تغرب في عين ماء ذات حمأة، وقرأته جماعة من قراء المدينة، وعامة قراء الكوفة: « في عَيْنٍ حَامِيَةٍ » يعني أنها تغرب في عين ماء حارّة. واختلف أهل التأويل في تأويلهم ذلك على نحو اختلاف القراء في قراءته.

قال ابن عباس وَجَدَهَا تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ أي: في طين أسود.

وروي أن عبد الله بن عباس سمع قراءة معاوية هذه الآية، فقال: « عَيْنٍ حَامِيَةٍ » فقال ابن عباس: إنها عين حمئة، قال: فجعلنا كعبا بينهما، قال: فأرسلا إلى كعب الأحبار، فسألاه، فقال كعب: أما الشمس فإنها تغيب في ثأط، فكانت على ما قال ابن عباس، والثأط: الطين. وقال كعب الأحبار: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء.

(١) مصنف ابن أبي شيبة حديث برقم (٢٧٦٥٠).

وقال آخرون: بل هي تغيب في عين حارّة. فقد روي عن الحسن البصري قوله: « في عَيْنِ حَامِيَةٍ » قال: حارّة. أي ساخنة

وأقول والله أعلم: أن (حمئة) و (حامية) إنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار، ولكل واحدة منهما وجه صحيح ومعنى مفهوم، وكلا وجهيه غير مفسد أحدهما صاحبه، وذلك أنه جائز أن تكون الشمس تغرب في عين حارّة ذات حمأة وطين، فيكون القاريء في عين حامية وصفها بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القاريء في عين حمئة واصفها بصفتها التي هي بها وهي أنها ذات حمأة وطين. وقد روي بكلا صيغتيها.

وقد نظر رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الشمس حين غابت، فقال: « في نارِ الله الحامية، في نارِ الله الحامية، لولا ما يرْعُها من أمرِ الله لأَحْرَقَتْ ما على الأرض ».

وروي خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه: أن ذا القرنين كان له صديق من الملائكة، فطلب منه أن يدلّه على شيء يطول به عمره فدله على عين الحياة وهي داخل الظلمة، فسار إليها والخضر على مقدمته فظفر بها الخضر ولم يظفر بها ذو القرنين، والرواية هذه فيها نظر والله أعلم.

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ ﴾ أي: إما أن تقتلهم إن هم لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويدعونوا لك بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم ﴿ وَإِنَّمَا أَنْتَ تَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ أي: وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد.

ثم سار وسلك ذو القرنين طرقا ومنازل، ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾.

وجد ذو القرنين الشمس تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها سترا، وذلك أن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب. وكانت أرضهم لا تحمل البناء، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تغوروا في الماء، فإذا غربت خرجوا يتراعون، كما ترعى البهائم،

وعن ابن جريج قال: لم يبنوا فيها بناء قطّ، ولم يُبنَ عليهم فيها بناء قطّ، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس دخلوا أسرابا لهم تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل، وجاءهم جيش مرّة، فقال لهم أهلها: لا تطلعنّ عليكم الشمس وأنتم بها،

فقالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا، قال: فذهبوا هارين في الأرض.

وقد أحاط الله بما عند مطلع الشمس علما، لا يخفى عليه مما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم، ولا من غيرهم، شيء.

فقد كان مكانهم ومعيشتهم فيما ذكر؛ بين جبلان سدّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادّ غوائلهم وعيشتهم عنهم. قال ابن عباس: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ» قال: الجبلين الردم الذي بين يأجوج ومأجوج، أمتين من وراء ردم ذي القرنين، قال: الجبلان: أرمينية وأذربيجان.

فَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا - السَّدَّيْنِ - قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلَ عَلَى اِطْلَاقِهِ، وَقِيلَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلَ الْقَائِلِ سِوَى كَلَامِهِمْ.

فمن الجائر أن يكونوا لا يكادون يفقهون قولاً لغيرهم عنهم، فيكون صوابا القراءة بذلك. وجائر أن يكونوا مع كونهم كذلك كانوا لا يكادون أن يفقهوا غيرهم لعل: إما بالستهم، وإما بمنطقهم، فتكون القراءة بذلك أيضا صوابا.

فلما بلغ ما بين السدين قال له اتباعه، القوم الذين طلبوا منه النصرة: إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.

اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ * فاختلفوا في معنى الإفساد الذي وصف الله به هاتين الأمتين، فقال بعضهم: كانوا يأكلون الناس، وقيل أنه الزنا الذي استشرى بينهم وفشوا الفواحش فيهم واستحلّاهم المحارم، وقيل أنه الظلم والبغي والعدوان والطغيان إما بينهم، وإما على غيرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ سَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمئِذٍ يَفْسِدُونَ. أي أن سوف يفسدون .

فقال لهم ذو القرنين: الذي مكنتي وقد أدغمت إحدى النونين في (ما مكنتي) في الأخرى، وإنما هو ما مكنتي فيه من عمل ما سألتموني من السدّ بينكم وبين هؤلاء القوم هو ربي، فمهده لي، ووطأه لي، وقوّاني عليه، خير من عطائكم ومالككم، والأجرة التي تعرضونها عليّ لبناء ذلك، وأكثر وأطيب، ولكن أعينوني منكم بقوة، وأعينوني بفعلة وصناع يُحسنون

البناء والعمل، وبرجال أجعلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا، أي أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج ردما. والردم: حاجز الحائط والسد، إلا أنه أمتع منه وأشد.

هذا وقد ورد عن عمرو بن قيس أنه قال: بلغنا أن ملكا دون الردم يبعث خيلاً كل يوم يجرسون الردم لا يأمن يأجوج ومأجوج أن تخرج عليهم.

فلما انتهى ذو القرنين واتباعه إلى المكان الذي وجدوا فيه يأجوج ومأجوج، واستقر له أمر بناء الردم ليمنع استيلاء فسادهم، وجورهم؛ فوضع تصميمًا الردم، أو قل الحاجز المنيع الذي لم يعهد مثله من قبل، ولا من بعد إلى يومنا هذا؛ فالسدود والحواجز المعهودة منذ القدم إلى الآن لم تبلغ مبلغ الردم الذي بلغه ردم ذي القرنين؛ ولعل ذلك من الأسباب التي منحها الله جل وعلا، والعلم الذي علمه ربه له؛ وبدأ العمل وشمر كل عن ساعديه آخذًا بأسباب القوة التي يجب أن يسلكها كل مؤمن.

وقد وقفت عند هذه المرحلة من مراحل مواجهة ذي القرنين واتباعه ليأجوج ومأجوج بالنظرة والاعتبار؛ فإنه كان من السهل اليسير على عبد صالح أو نبي - في أحد الأقوال - أن يلزم الدعاء ويتضرع إلى الله بأن يهلك عدوه خاصة وأن يأجوج ومأجوج أهل طغيان وفساد، وأن ذا القرنين واتباعه من أهل الإسلام والإيمان، ولكن المؤمن يستعين بالله (الأسباب الشرعية)، ويَجِدُّ ويَجْتَهِد بعقله وأركانه (الأسباب الكونية)، وقد ورد عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرٌ. آخِرُ صَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا لَمْ يُصِْبَنِي كَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ » (١).

ونرجع إلى ذي القرنين؛ فلما سألوه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا أمر من معه بأن يجمعوا له زُبُر الحديد، وهي جمع زُبرة، والزُبرة: القطعة من الحديد. حتى إذا ساوى بين الصَّدَقَيْنِ أي حتى إذا ساوى بين الجبلين وهما من قبل أرمينية وأذربيجان بما جعل بينهما من زُبُر الحديد، ويقال: سَوَّى. والصدفان: ما بين ناحيتي الجبلين ورؤوسهما.

وقوله: حتى إذا جَعَلَهُ نارا فنفتحوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد نارا قال آتُونِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قَطْرًا. أي أصب عليه قطرا، والقطر: النحاس أي ليقوي الحديد بالنحاس

وليلزمه به.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا ۚ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

ذكر ابن عساكر خبراً مطولاً جداً فيه أن ذا القرنين كان له صاحب من الملائكة يقال له رناquil فسأله ذو القرنين هل تعلم في الأرض عيناً يقال لها عين الحياة؟ فذكر له صفة مكانها فذهب ذو القرنين في طلبها، وجعل الخضر على مقدمته، فانتهى الخضر إليها في وادٍ في أرض الظلمات، فشرب منها ولم يهتد ذو القرنين إليها. وذكر اجتماع ذي القرنين ببعض الملائكة في قصر هناك، وأنه أعطاه حجراً، فلما رجع إلى جيشه سأل العلماء عنه فوضعوه في كفة ميزان وجعلوا في مقابلته ألف حجر مثله فوزئها، حتى سأل الخضر فوضع قبالة حجراً وجعل عليه حفنة من تراب فرجح به. وقال هذا مثل ابن آدم لا يشبع حتى يوارى بالتراب فسجد له العلماء تكريماً له وإعظاماً والله أعلم.

ثم ذكر تعالى أنه حكم في أهل تلك الناحية ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَأَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٨٦ - ٨٧] أي فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزرع عند الكافر، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨] فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة، وعطف عليه الإحسان منه إليه. وهذا هو العدل والعلم والإيمان قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩] أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق، فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي سلك طريقاً راجعاً من المغرب إلى المشرق، فيقال إنه رجع في ثنتي عشر سنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] أي ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس. قال كثير من العلماء: ولكن كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١] أي ونحن نعلم ما هو عليه ونحفظه ونكلؤه بحراستنا في مسيره ذلك كله من مغارب الأرض إلى مشارقها. وقد رُوِيَ عن عُبيد بن عُمر وابنه عبد الله وغيرهما من

السلف: أن ذو القرنين حجّ ماشياً. فلما سمع إبراهيم الخليل بقدمه تلقاه، فلما اجتماعا دعا له الخليل ووصّاه بوصايا، ويقال إنه جيء بفرس ليركبها فقال: لا أركب في بلد فيه الخليل، فسخر الله له السحاب وبشّره إبراهيم بذلك، فكانت تحمله إذا أراد. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ يعني غشماً. وقيل أنهم لا يفقهون قول القائل أي كان هو، وقيل لا يفقهون غير لغتهم ولسانهم، والله أعلم.

ويقال إنهم هم الترك أبناء عم يأجوج ومأجوج، فذكروا له أن هاتين القبيلتين قد تعدّوا عليهم، وأفسدوا في بلادهم، وقطعوا السبل عليهم، وبذلوا له حملاً وهو الخراج على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاء بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥] ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالاً وآلات ليبنى بينهم وبينهم سداً، وهو الردم بين الجبلين، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب. وقيل الرصاص، والصحيح الأول فجعل بدل اللبن حديدًا، وبدل الطين نحاسًا. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا عليه بسلام ولا غيرها ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] أي بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها، فقابل الأسهل بالأسهل، والأشدّ بالأشدّ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي الوقت الذي قدر خروجهم على الناس في آخر الزمان، أي الوقت الذي قدر خروجهم على الناس في آخر الزمان ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي مساوياً للأرض، ولا بد من كون هذا. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨] كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧] الآية. ولذا قال ههنا ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يعني يوم فتح السدّ على الصحيح ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وورد أن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا هو مات أن تصنع طعاماً وتجمع نساء أهل المدينة وتضعه بين أيديهن، وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى، فلا تأكل منه شيئاً.

فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهم يدها فيه، فقالت هن: سبحان الله كلكن ثكلى؟ فقلن: أي والله ما منا إلا من اثكلت . فكان ذلك تسلياً لأمه، وقيل أنه مات وعمره ثلاثة آلاف سنة. لكن جل ما قيل فيه من كتب أهل الكتاب . فالله أعلم بصحتها!.

روى الأعمش، عن عطية، قال: قال أبو سعيد: يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون أحدًا إلا قتلوه، إلا أهل الحصون، فيمرون على البحيرة فيشربونها، فيمرّ المارّ فيقول: كأنه كان ههنا ماء، قال: فيبعث الله عليهم النغف حتى يكسر أعناقهم فيصيروا خبالاً، فتقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلّون رجلاً لينظر، ويشترط عليهم إن وجدهم أحياء أن يرفعوه، فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماء من السماء فيقذفهم في البحر، فتطهر الأرض منهم، ويغرس الناس بعدهم الشجر والنخل، وتخرج الأرض ثمرها كما كانت تخرج في زمن يأجوج ومأجوج.

رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج.

ثم تأتي ثلاث أمم بعد هلاك يأجوج ومأجوج ما يعلم عددهم إلا الله. قيل أن اسمائهم: منسك، وتاويل، وتاريس.

وقد ورد عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ :

« لَقِيتُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى فَتَذَكَّرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، وَرَدُّوا الْأَمْرَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الْأَمْرَ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الْأَمْرَ إِلَى عِيسَى قَالَ عِيسَى: أَمَّا قِيَامُ السَّاعَةِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَكِنَّ رَبِّي قَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ دُونَ وَقْتِهَا، عَهْدٌ إِلَيَّ أَنَّ الدَّجَالَ خَارِجٌ، وَأَنَّهُ مُهْبِطِي إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ أَنَّ مَعَهُ قَصَبَتَيْنِ، فَإِذَا رَأَيْتُ أَهْلَكَهُ اللَّهُ، قَالَ: فَيَذُوبُ كَمَا يَذُوبُ الرِّصَاصُ، حَتَّى إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ لَيَقُولُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا كَافِرٌ فَاقْتُلْهُ، فَيَهْلِكُهُمُ اللَّهُ، وَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ، لَا يَأْتُونَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَكَلُوهُ، وَلَا يَمُرُّونَ عَلَى مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ، فَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ، فَيَشْكُونَهُمْ، فَادْعُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَيَمِيتُهُمْ حَتَّى تَجُوى الْأَرْضُ مِنْ نَسْنِ رِيحِهِمْ، فَيَنْزِلُ الْمَطَرُ، فَيَجْرُ أَجْسَادُهُمْ، فَيُلْقِيهِمْ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَنْسِفُ الْجِبَالَ حَتَّى تُكُونَ

الأَرْضُ كَالْأَدِيمِ، فَعَهْدَ إِلِي رَبِّي أَنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّ السَّاعَةَ مِنْهُمْ كَالْحَامِلِ الْمَتَمِّ الَّتِي لَا يَذَرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُوهُمْ بِوَلَادِهَا، لَيْلًا أَوْ نَهَارًا .

أما الماء الذي يشربوه وفنوه ؛ فقد وردت بعض الروايات بأنه ماء بحيرة طبرية ؛ فقد جاء في معجم البلدان أن بُحِيرَةَ طَبْرِيةَ: هي نحو من عشرة أميال في ستة أميال، وغورُ مائها علامة لخروج الدجال؛ ورُوي أن عيسى عليه السلام، إذا نزل بيت المقدس ليقتل الدجال عندها يظهر يأجوج ومأجوج، وهم أربع وعشرون أمة لا يجتازون بحج ولا ميت من إنسان إلا أكلوه ولا ماء إلا شربوه، فيجتاز أولهم بُحِيرَةَ طبرية فيشربون جميع ما فيها ثم يجتاز الأخير منهم، وهي ناشفة، فيقول: أظنُّ أنه قد كان ههنا ماءً. وبحيرة طبرية كالبركة، تُحيط بها الجبال ويصبُّ فيها فضلات أنهر كثيرة تجري من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر، وينفصل منها نهر عظيم فيسقي أرض الأردن الأصغر، وهو بلاد الغور، ويصبُّ في البحيرة المنتنة قرب أريحا. ومدينة طبرية في لحف الجبل مشرفة على البحيرة، مأوها عذب شروب ليس بصادق الحلاوة ثقيل؛ وفي وسط هذه البحيرة حجر ناتئ يزعمون أنه قبر سليمان بن داود، عليه السلام؛ وبين البحيرة وبيت المقدس نحو من خمسين ميلاً.

وجاء في معجم البلدان عن الشعبي أنه قال : سار ذو القرنين إلى ناحية يأجوج ومأجوج فنظر إلى أمة صُهب الشعور زُرُق العيون فاجتمع إليه منهم خلق كثير وقالوا له: أيها الملك المظفر إن خلف هذا الجبل أمة لا يحصيهم إلا الله وقد أحربوا علينا بلادنا يأكلون ثمارنا وزروعنا، قال: وما صفتهم؟ قالوا: قصار صلُّع عراض الوجوه، قال: وكم صنفاً هم؟ قالوا: هم أُمم كثيرة لا يحصيهم إلا الله تعالى، قال: وما أساميهم؟ قالوا : أما من قرب منهم فهم ست قبائل: يأجوج، ومأجوج، وتاويل، وتاريس، ومنسك، وكُمارى، وكل قبيلة منهم مثل جميع أهل الأرض، وأما من كان منا بعيداً فإننا لا نعرف قبائلهم وليس لهم إلينا طريق، فهل نجعل لك خرجاً على أن تسدَّ عليهم وتكفينا أمرهم؟ قال: فما طعامهم؟ قالوا: يقذف البحر إليهم في كل سنة سمكتين يكون بين رأس كل سمكة وذنبها مسيرة عشرة أيام أو أكثر، قال: ما مكّني فيه ربي خيرٌ فأعينوني بقوة تبذلون لي من الأموال في سدّه ما يمكن كل واحد منكم، ففعلوا، ثم أمر بالحديد فأذيب وضرب منه لبناً عظماً وأذاب النحاس ثم جعل منه ملاطاً لذلك اللبن وبنى به الفجّ وسوّاه مع قلتي الجبل فصار شبيهاً بالمصمت؛ وفي بعض الأخبار قال: السدّ

طريقة حمراء وطريقة سوداء من حديد ونحاس، ويأجوج ومأجوج اثنتان وعشرون قبيلة، منهم الترك قبيلة واحدة كانت خارج السد لما ردمه ذو القرنين فسلموا أن يكونوا خلفه، وسار ذو القرنين حتى توسط بلادهم فإذا هم على مقدار واحد، ذكرهم وأنثاهم، يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف طول الرجل المربع، لهم مخالب في مواضع الأظفار ولهم أضراس وأنياب كأضراس السباع وأنيابها وأحناك كأحناك الإبل، وعليهم من الشعر ما يُوراري أجسادهم، ولكل واحد أذنان عظيمتان إحداهما على ظاهرها وبرٌ كثير وباطنها أجردٌ والأخرى باطنها وبرٌ كثير وظاهرها أجردٌ يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وليس منهم ذكر ولا أنثى إلا ويعرف أجله والوقت الذي يموت فيه، وذلك أنه لا يموت حتى يلد ألف ولد، وهم يرزقون التّين في أيام الربيع ويستمطرونه إذا أبطأ عنهم كما نستمطر المطر إذا انقطع فيقذفون في كلّ عام بواحد فيأكلونه عامهم كلّهُ إلى مثله من قابل فيكفيهم على كثرتهم، وهم يتداعون تداعي الحمام ويعوون عواء الكلاب ويتسافدون حيث ما التقوا تسافد البهائم، وفي رواية أن ذا القرنين إنما عمل السدّ بعد رجوعه عنهم فانصرف إلى ما بين الصّدّفين فقام ما بينهما وهو منقطع أرض الترك ممّا يلي الشمس فوجد بُعداً ما بينهما مائة فرسخ فحفر له أساساً بلغ به الماء وجعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس المذاب يصبّ عليه، فصار عرقاً من جبل تحت الأرض ثم علاه وشرّفه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقاً من نحاس أصفر فصار كأنه بردٌ مخبرٌ من صفرة النحاس وسواد الحديد، فلما أحكمه انصرف راجعاً، وأمّا ذكر التّين فرأينا منه بنواحي حلب ما ذكرته في ترجمة كلز وجعلته حجة على ما أورده ههنا من خبره وشجّعني على كتابته، فإن الإنسان شديد التكذيب بخبر ما لم ير مثله، روي عن شدّاد بن أفلح المقرئ أنّه قال: عُدْتُ عُمَرَ الْبِكَالِيّ فذكرنا لون التّين فقال عمر البِكَالِيّ: أتدرون كيف يكون التّين؟ قلنا: لا، قال: يكون في البرّ حية متمرّدة فتأكل حيات البرّ فلا تزال تأكلها وتأكل غيرها من الهوامّ وهي تعظم وتكبر ثم يزيد أمرها فتأكل جميع ما تراه من الحيوان فإذا عظم أمرها ضجّت دوابّ البرّ منها فيرسل الله تعالى إليها ملكاً فيحتملها حتى يُلقِيها في البحر فتفعل بدوابّ البحر مثل فعلها بدوابّ البرّ فتعظم ويزداد جسمها فتضجّ دوابّ البحر منها أيضاً فيبعث الله إليها ملكاً حتى يخرج رأسها من البحر فيتدلّى سحاب فيحتملها فيُلْقِيها إلى يأجوج ومأجوج؛ وحدث المعلّى

بن هلال الكوفي قال: كنت بالمصيصة فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربّما مكث أياماً وليالي تصطفق أمواجه ويسمع لها دويّ شديد فيقولون ما هذا إلّا بشيء آذى دوابّ البحر فهي تضجّ إلى الله تعالى، قال: فتقبل سحابة حتى تغيب في البحر ثم تقبل أخرى حتى تُعدّ سبع سحابات ثم ترتفع جميعاً في السماء وقد حملن شيئاً يرون أنّه التّنين حيي يغيب عنا ونحن ننظر إليه يضطرب فيها قريباً وقع في البحر فتعود السحابة إلى البحر بالرعد الشديد الهائل والبرق العظيم حتى تغوص في البحر وتستخرجه ثانية فتحمله، فربما اجتاز وهو في السحاب وذنبه خارج عنها بالشجر العادي والبناء الشامخ فيضربه بذنبه فيهدم البناء من أصله ويقلع الشجر بعروقه، ولقد احتمله السحاب من بحر أنطاكية فضرب بذنبه بضعة عشر برجاً من أبراج سورها فرمى بها، ويقال: إن السحاب الموكل به يختطفه حيثما رآه كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه من الماء خوفاً من السحاب ولا يخرج إلّا في الفرط إذا صحت الدنيا؛ وذكر بقراط الحكيم اليوناني في كتاب الثراء أنّه كان في بعض السواحل فبلغه أن هناك قرى كثيرة قد فشا فيها الموت فقصدها ليعرف السبب في ذلك فلمّا فحص عن الأمر إذا هو بتّين قد احتمله السحاب من البحر فوق وقع على نحو عشرين فرسخاً من هذه القرى فتفن ففشا الموت فيها من تنته فعمد ذلك الفيلسوف فجباً من أهل تلك القرى مالاً عظيماً واشترى به ملحاً ثمّ أمل أهل تلك القرى أن يحملوه ويلقوه عليه ففعلوا ذلك حتى بطلت رائحته وكف الموتان عنهم؛ وروي عن بعضهم أنه قصد موضعاً سقط فيه فوجد طوله نحو الفرسخين وعرضه فرسخ ولونه مثل لون النمر مفلس كفلوس السمك وله جناحان عظيمان كهيئة أجنحة السمك ورأسه مثل التل العظيم شبه رأس الإنسان وله اذنان مفرطتا الطول وعينان مدورتان كبيرتان جداً ويتشعب من عنقه ستة اعناق طول كل عنق منها عشرون ذراعاً في كل عنق رأس كراس الحية؛ قلت: هذه صفة فاسدة لأنه قال أولاً رأس كراس الانسان ثم قال ستة رؤوس كرؤوس الحية، وقد نقلته كما وجدته ولكن تركه اولي؛ ومن مشهور الأخبار حديث سلام الترجمان قال: إن الواثق بالله رأى في المنام أن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوح، فأرعبه هذا المنام فأحضرني وأمرني بقصده والنظر إليه والرجوع إليه بالخبر، فضم إلى خمسين رجلاً ووصلني بخمسة آلاف دينار وأعطاني دنيي عشرة آلاف درهم ومائتي بغل تحمل الزاد والماء، قال: فخرجنا من سرّ من رأى بكتاب

منه إلى إسحاق ابن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس يُؤمر فيه بإنفاذنا وقضاء حوائجنا ومكاتبة الملوك الذين في طريقنا بتيسيرنا، فلما وصلنا إليه قضى حوائجنا وكتب إلى صاحب السرير وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللان وكتب ملك اللان إلى فيلان شاه وكتب لنا فيلان شاه إلى ملك الخور فوجه ملك الخزر معنا خمسة من الأدلاء فسرنا ستة وعشرين يوماً فوصلنا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة وكنا قد حملنا معنا خلا لنشمه من رائحتها بإشارة الأدلاء، فسرنا في تلك الأرض عشرة أيام ثم صرنا إلى مدُن، خراب فسرنا فيها سبعة وعشرين يوماً فسلنا الادلاء عن سبب خراب تلك المدن فقالوا: خربها يأجوج ومأجوج، ثم صرنا إلى حصن بالقرب من الجبل الذي السد في شعب منه فجزنا بشيء يسير إلى حصون آخر فيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية وهم مسلمون يقرؤون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب، فسألونا من أين أقبلتم وأين تريدون، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون من قولنا ويقولون: أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون من قولنا ويقولون: أمير المؤمنين! فنقول: نعم، فقالوا: أهو شيخ أم شاب لنا؟ قلنا: شاب، قالوا: وأين يكون؟ قلنا: بالعراق في مدينة يقال لها سر من رأى، قالوا: ما سمعنا بهذا قط، ثم ساروا معنا إلى جبل أملتس ليس عليه من النبات شيء وإذا هو مقطوع بواد عرضه مائة وخسمون ذراعاً، وإذا عضادتان مبنيتان مما يلي الجبل من جنبي الوادي عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعاً الظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب، وكله مبني بلبن حديد مغيب في نحاس في سمك خمسين ذراعاً، وإذا دروند حديد طرفاه في العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعاً قد ركب على العضادتين على كل واحد مقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع، وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد والنحاس إلى رأس الجبل، وارتفاعه مد البصر، وفوق ذلك شرف حديد في طرف كل شرفة قرنان بنشي كل واحد إلى صاحبه، وإذا باب حديد بمصراعين مغلقين عرض كل مصراع ستون ذراعاً في ارتفاع سبعين ذراعاً في شخن خمسة أذرع وقامتاه في دواره على قدر الدروند، وعلى باب قفل طوله سبعة أذرع غلظ باع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً وفوق القفل نحو خمسة أذرع غلظ طوله أكثر من طول القفل، وعلى الغلق مفتاح معلق طوله سبعة أذرع له أربع عشرة دندانكة أكبر من دستج الهاون معلق في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق،

وارتفاع عتبة الباب عشرة أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين والظاهر منها خمسة أذرع، وهذا الذرع كله بذراع السواد، ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة حديد فيجئون إلى الباب ويضرب كل واحد منهم القفل والباب ضربات كثيرة ليسمع من وراء الباب ذلك فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا في الباب حدثاً، وإذا ضربوا الباب وضعوا آذانهم فيسمعون من وراء الباب دويًا عظيمًا، وبالقرب من السد حصن كبير يكون فرسخًا في مثله يقال أنه يأوي إليه الصنّاع، ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مثلها، وعلى بابي هذين الحصنين شجر كبير لا يُدري ما هو، وبين الحصنين عين عذبة، وفي أحدهما آلة البناء التي بُني بها السد من القدور الحديد والمغارف وهناك بقية من اللبن الحديد قد التصق ببعضه ببعض من الصدا، واللينة ذراع ونصف في سمك شير، وسألنا من هناك هل رأوا أحدًا من يأجوج ومأجوج فذكروا أنهم رأوا منهم مرة عددًا فوق الشرف فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبنا فكان مقدار الواحد منهم في رأي العين شيرًا ونصفًا، فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء نحو خراسان فسرنا حتى خرجنا خلف سمرقند بسبعة فراسخ؛ قال: وكان بين خروجنا من سر من رأى إلى رجوعنا إليها ثمانية عشر شهرًا، قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ولست أقطع بصحة ما أورده لاختلاف الروايات فيه، والله أعلم بصحته، وعلى كل حال فليس في صحة أمر السد ريب وقد جاء ذكره في كتاب الله العزيز.

ذكر سد يأجوج ومأجوج وخرقهم إياه

إن من يقف على ماورد في كتب السنة عن هيئة يأجوج ومأجوج يجد أنهم صغار العيون ، ومن يقف على الأحاديث التي وردت في كيفية حنرهم للسد الذي ضرب عليهم مانعاً لهم من النفوذ منه ؛ ليقف عند خبر عمل هؤلاء القوم على خرق هذا السد ؛ فهم يعملون فيه بالليل ولا يستطيعون العمل بالنهار أو لإذا أردنا التحديد لقلنا : أنه مع أول شعاع للشمس يفرون إلى مأواهم الذي هم فيه .

فهل هؤلاء القوم لا يستطيعون العمل بالنهار لدقة أعينهم كما ورد ذلك في السنن الواردة عن رسول الله ﷺ ؟

أم هل هم يستخفون في النهار ويستظلون الليل لينقبوا السد في خفية عن أعين الناس ؟
وتلكم بعض الأحاديث التي وردت في نقيبهم للسد كما وردت في كتب السنن :
قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا روح ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة ، حدثنا أبو رافع ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدقم وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيتته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهية الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغماً في أقفائهم، فيقتلهم بها » ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده، إن دواب الأرض لتسمن شكراً من لحومهم ودمائهم » .^(١)

وقد وردت الآثار بأن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول النبي عيسى بن مريم

(١) مسند أحمد حديث برقم (١٠٤٠٧) .

على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فنزول عيسى في آخر الزمان خير وارد في كتب الصحاح ثابت في سنة رسول الله ﷺ ؛ ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام فيحطم الصليب ويقتل الخنزير ، ويصلي خلف إمام المسلمين في ذاك الآوان ، ويتضرع لله أن يكشف غمة آخر الزمان بعد مقتل الدجال وذهاب فتنة ؛ قال الحسن البصريّ ومحمد بن إسحاق في خبر رفع عيسى في زمانه ونزوله آخر الزمان وأن الله ألقى شبهه على شاب : كان اسمه: داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه، فحصره في دار بيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورفع عيسى من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلّم لليهود عامة النصارى، الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب، وضلّوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً.

أورد الإمام أحمد في مسنده خبر النبي عيسى وتزامن نزوله مع خروج يأجوج ومأجوج فقال : حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي بمكة إملاء قال: حدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص قال: حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه أنه سمع النّوّاس بن سمعان الكلبي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه، فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل؟ قال: « غير الدجال أخوف مني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب جعد، ققط، عينه طافية، وأنه يخرج خلة بين الشام والعراق، فعات يميناً وشمالاً، يا عباد الله اثبتوا » ، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: « أربعين يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم » ، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي هو كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال : « لا، أقدروا له قدره » ، قلنا: يا رسول الله فما إسرعه في الأرض؟ قال: « كالغيث استدبرته الريح » ، قال:

« فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى وأمدته خواصر وأسبغه ضروعاً ويمر بالحي فيدعوهم، فيردوا عليه قوله، فتتبعه أمواهم، فيصبحون محلين ليس لهم من أمواهم شيء، ويمر بالخرية فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل، قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل إليه يتهلل وجهه، قال: فيينا هو على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعاً يده على أجنحة ملكين، فيتبعه، فيدركه، فيقتله عند باب لد الشرقي، قال: فيينما هم كذلك إذا أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أي قد أخرجت عبداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحوّز عبادي إلى الطور، يبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله عز وجل ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم وننتهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فطرحهم حيث شاء الله عز وجل ». .

قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: « فطرحهم بالمهبل، قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد وأين المهبل؟ قال: مطلع الشمس قال: ويرسل الله عز وجل مطراً لا يكن منه بيت وبر ولا مدر أربعين يوماً فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ويقال للأرض: أنبي ثمرتك وردي بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي القبيلة، والفخذ والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فيينا هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل رجلاً طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم - أو قال: وعليه - تقوم الساعة » (١).

هذا وقد تعددت الرويات في زماننا بأنهم قوم يسكنون الصين عند سور لها ولكن الله أعلم أين هم .

فالله أسأل أن يكفيهم وذريتنا منهم ومن شرورهم والحمد لله رب العالمين .



قصة صاحب الجنتين

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا * كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا فَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحُ مَاوُهَا غُرًّا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * إِلَى قَوْلِهِ : هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

استهل الله جل وعلا قصة صاحب الجنتين بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعني لكفار قريش في عدم اجتماعهم بالضعفاء والفقراء، وازدراءهم بهم وافتخارهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، والمشهور أن هذين كانا رجلين مصطحبين، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً، ويقال إنه كان لكل منهما مال، فانفق المؤمن ماله في طاعة الله ومراضاته ابتغاء وجهه. وأمّا الكافر فانه اتخذ له بساتين وهما الجنتان المذكورتان في الآية على الصفة والنعت المذكور. فيهما أعناب ونخيل تحف تلك الاعناب والزروع في ذلك، والأثمار سارحة ههنا وههنا للسقي والتنزه، وقد استوثقت فيهما الثمار، واضطربت فيهما الاثمار، وابتهجت الزروع والثمار، وافتخر مالكما على صاحبه المؤمن الفقير، وصار متكبراً عليه مستعلياً بما عنده من جنات وعبود وزروع ونخل، ومن جميع مظاهر الترف والنعمة، وكثرة الولد، والاتباع والعمال ومن يخدمونه ويقمون على شئونه وشئون حداثته وجناته وأمواله التي يفتخر بها ويستعلي بها على صاحبه

المؤمن قائلًا له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. فهو يظن أنه أوسع جنائًا، وأنه خير منه. ولسان حاله يقول: ماذا أغني عنك انفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه من الزكاة بمالك والانفاق في سبيل الله، وإطعام المساكين؟، كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي، فافتخر على صاحبه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو على كبر وخيلاء واستعلاء منه على صاحبه فظلم نفسه حينما تركها على حب الكبر والاستعلاء قال ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك لما رأى من اتساع أرضها، وكثرة مائها وحسن نبات أشجارها، ولو قد بادت كل واحدة من هذه الأشجار لاستخلف مكانها أحسن منها وزروعها دائرة لكثرة مياهها. ثم قال ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فوثق بزهرة الحياة الدنيا الفانية، وكذب بوجود الآخرة الباقية الدائمة. ثم قال ﴿وَلَنْ رُدُّدْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي ولن كان ثم آخرة ومعاد فلا جدن هناك خيرًا من هذا، وذلك لانه اغترَّ بدنياه، واعتقد أن الله لم يعطه ذلك فيها إلا لحبه له، وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل فيما قصَّ الله من خبره وخبر خَبَّابِ بْنِ الْأُرْتِ في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مریم: ٧٧ - ٧٨] وقال تعالى إخبارًا عن الانسان إذا أنعم الله عليه ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] أي لعلم الله بي أي أستحقه قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وقال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَبْنِ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]. ولما اغتر هذا الجاهل بما حول به في الدنيا فجحده الآخرة، وادعى أنها ان وجدت ليجدن عند ربه خيرًا مما هو فيه، وسمعه صاحبه يقول ذلك قال له: ﴿وَهُوَ يُخَاوِرُهُ﴾ أي يجادله ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧] أي أجددت المعاد وأنت تعلم أن الله خلقك من تراب. ثم من نطفة ثم صورك

أطواراً حتى صرت رجلاً سوياً سمياً بصيراً، تعلم وتبسط وتفهم، فكيف أنكرت المعاد، والله قادر على البدأة ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨] أي لكن أنا أقول بخلاف ما قلت وأعتقد خلاف معتقدك ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨] أي لا أعبد سواه ب واعتقد أنه يبعث الأجساد بعد فنائها، ويعيد الاموات، ويجمع العظام الرفات، وأعلم أن الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا إله غيره، ثم أرشده إلى ما كان الأولى به أن يسلكه عند دخول جنته فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] ولهذا يستحب لكل من أعجبه شيء من ماله أو أهله أو حاله، أن يقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

ثم قال: الْمُؤْمِنُ لِلْكَافِرِ: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠] قال ابن عباس: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه المطر المزعج الباهر الذي يقتلع زروعها وأشجارها ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ وهو التراب الأملس الذي لا نبات فيه ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَآوِهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١] وهو ضد المعين السارح ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١] يعني فلا تقدر على استرجاعه. قال الله تعالى ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢] أي جاءه أمر أحاط بجميع حواصله، وخرّب جنته ودمرها ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي خربت بالكلية، فلا عودة لها، وذلك ضد ما كان عليه أمل حيث قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وندم على ما كان سلف منه من القول الذي كفر بسببه بالله العظيم فهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] . قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ﴾ أي لم يكن أحد يتدارك ما فرط من أمره وما كان له قدرة في نفسه على شيء من ذلك كما قال تعالى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] وقوله ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] ومنهم من يتبدى بقوله ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وهو حسن أيضاً لقوله ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] فالحكم الذي لا يرد ولا يمانع ولا يغالب في تلك الحال، وفي كل حال لله الحق. ومنهم من رفع الحق جعله صفة للولاية وهما متلازمان وقوله ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] أي معاملته خير لصاحبها ثواباً وهو الجزاء وخير

عقبا وهو العاقبة في الدنيا والآخرة. وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا ولا يغتر بها ولا يثق بها، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نصب عينيه. وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه. وفيها أن من قدم شيئا على طاعة الله والانفاق في سبيله، عذب به، وربما سلب منه معاملة له بنقيض قصده. وفيها أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة. وفيها أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر، ونفذ الأمر الحتم، وبالله المستعان وعليه التكلان.

ونقف على نفس القصة برواية أخرى:

قال الكلبي: نزلت آيات صاحب الجنتين في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ. والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة «الصفات» في قوله ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصفات: ٥١]، ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال....؟.

وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة.

وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر.

وقيل: هو مثل لعيننة بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه؛ شبههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا؛ في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تملixa. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصفات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال: اسم الخير منهما تملixa، والآخر قرطوش، وأنها كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف واعتقهم، وبالألف الثانية ثيابا فكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاما فأطعم الجوع، وبنى أيضا مساجد، وفعل خيرا.

وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقرا فاستنتجها فنمت له نماء مفرطا، وأتجر بياقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى؛ وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في

بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بي، فجاءه فلم يكذب يصل إليه من غَلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى. فقال: أئتلك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أني كَسَبْتُ وسفَهْتُ أنت، أخرج عني.

ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله تعالى في القرآن من الإحاطة بشمره وذهاهما أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحُسبان.

رواية أخرى:

قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقْتَسَمَاها، فأشترى أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار وإني أشرتيت منك أرضاً في الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه بني داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإني أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته حاجة شديدة فقال: لعل صاحبي ينالني معروفه فأتاه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره قصته فقال: وإنك لمن المصدقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً! ثم قال له: أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً؛ فقال صاحبه: والله لأعظته، فوعظه وذكره وخوفه. فقال: سرُّ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق؛ فقال له: يا أخي! إن الدينأ أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروج معه، فأبتلاهما الله .

فجعل الكافرُ يرمي شبكته ويسمي باسم صنمه، فتطلع متدفقة سمكاً. وجعل المؤمن يرمي شبكته ويسمي باسم الله فلا يطلع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثر منك في الدنيا نصيباً ومنزلة ونفراً، كذلك أكون أفضل منك في الآخرة إن كان ما تقول بزعمك

حقاً. قال: فضجَّ الملك الموكَّل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزَّتْكَ لا يضرُّه ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا؛ وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزَّتْكَ لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا.

ومن الروايات السابقة يجتمع للقارئ عدة مسائل منها:

إن الله سبحانه يختبر المسلم بالنعمة تارة، وبالفقر تارة أخرى؛ فما يصيب الإنسان، إن كان يسره: فهو نعمة بينة. وإن كان يسوءه: فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياها. ويثاب بالصبر عليه. ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد جاء في الحديث: «والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له». وإذا كان هذا وهذا: فكلاهما من نعم الله عليه.

وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر.

أما نعمة الضراء: فاحتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء: فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء. كما قال بعض السلف: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

وفي الحديث: «أعوذ بك من فتنة الفقر. وشر فتنة الغنى». والفقر: يصلح عليه خلق كثير. والغنى: لا يصلح عليه إلا أقل منهم.

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر. لكن لما كان في السراء: اللذة. وفي الضراء: الألم. اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا آلَ إِيْسَىٰ مِثَّا رَحْمَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ لِّيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩ - ١١]، ولأن صاحب السراء: أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء: أحوج إلى الصبر. فإن صبر هذا وشكر هذا: واجب. إذا تركه استحق العقاب. وأما صبر صاحب السراء: فقد يكون مستحباً، إذا

كان عن فضول الشهوات. وقد يكون واجباً، ولكن لإتيانه بالشكر - الذي هو حسنات - يغفر له ما يغفر من سيئاته.

إن اجتماع الشكر والصبر جميعاً يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم، ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس .

❖ والمقصود هنا: أن الله تعالى منعم بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإن الله يعلم وأنتم لا تعلمون. فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه.

وأما ذنوب الإنسان: فهي من نفسه، ومع هذا فهي مع حسن العاقبة نعمة، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان. ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: « اللهم لا تجعلني عبدة لغيري، ولا تجعل أحداً أسعد بما علمتني مني » .

وفي الدعاء الوارد في القرآن: ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥] ، ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المتحنة: ٥] ، كما في: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِمَتِّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتم. ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى.

إن الإنسان إذا اعتبر وتعرف بنفسه على طبيعة أغلب الناس، وسمع أخبارهم: رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته.

فصاحب الجنتين لما رأى أنه قد امتلك من أسباب القوة والاستعلاء؛ أصدر أحكاماً لم تكن من المعقول - فضلاً عن كونها ليست من الشرع - فقال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾؛ فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة، بحسب إمكانها، فلما شعر بشيء من التمكين تغيرت لديه مفاهيم مستقرة وتبدلت معايير متعارف عليها .

فالكافر يعلم أن الحداثات تزول بيسير السيل والمطر، والدواب تذهبها الأمراض والأدواء، والدور والبيوت تذهب بها الأعاصير ولو لم يرجع ذلك لقدرة الله لكفره أو إلحاده. أما صاحب الجنتين فقد طغى طغياناً زائفاً، واستكبر استكباراً غير معهود إلا عند فرعون وإو قارون ومن نهج نهجهم؛ فكان عاقبة أمره - في الدنيا - أن قال: ﴿ يَالَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

وأختم هذه القصة بما روي عن أبا الدرداء كان يقول: ويل لكل جماع فاغر فاه كأنه
مجنون يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده لو يستطيع لوصل الليل بالنهار ويله من حساب
غليظ وعذاب شديد، جمعوا كثيراً وبنوا شديداً فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً
وأصبحت بيوتهم قبوراً.

فاللهم اجعل الدنيا في أيدينا على تقوى لك وجعل الآخرة خير لنا من دنيانا .

(والحمد لله رب العالمين) .



قصة النبي يوسف عليه الصلاة والسلام

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ * قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْنَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاوَدَتْهُ الْفَاحِشَةُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْآبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْآبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا

وَأَسْتَغْفِرِي لَذَنبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ * وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا نَنَازِعُهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا فَلَمَّا رَأَتْهُ أَعْبَرَتْهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسَّوْا لَهُ أَنْ يَقْعَلَ مَا ءَامُرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَلَئَكُنَّا مِنَ الصَّغِيرِينَ * قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسَّوْا لَهُ أَنْ يَقْعَلَ مَا ءَامُرُهُ لَيْسَ جَنًّا وَلَئَكُنَّا مِنَ الصَّغِيرِينَ * قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لَيْسَ جَنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنُ فَنِيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَصْحَابِي السَّجْنُ ءَارْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَصْحَابِي السَّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبِرُونَ * قَالُوا اضْغَبْ أَحْلَمْ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعُلَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ *

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَازٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخَصِّصُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿١٠٠﴾ .

إن قصة يوسف من القصص التي وردت في كتاب الله على نحو من التفصيل لم يتسن لغيرها من بعض قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فغالب قصص الأنبياء وردت في القرآن الكريم في عدة سور، بينما جاءت قصة يوسف كاملة في سورة واحدة. واختلف العلماء لم سميت هذه القصة أحسن القصص؟ .

قيل : إنها تنفرد من بين قصص القرآن باحتوائها على عالم كامل من العبر والحكم.

وقيل : لأن يوسف تجاوز عن إخوته وصبر عليهم وعفا عنهم.. وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والعفة والغواية، وسير الملوك والممالك، والرجال والنساء، وحيل النساء ومكرهن.

وفيهما ذكر التوحيد والفقه، وتعبير الرؤيا وتفسيرها، فهي سورة غنية بالمشاهد والانفعالات.

وقيل: إنها سميت أحسن القصص لأن مآل من كانوا فيها جميعا كان إلى السعادة.

ومع تقديرنا لهذه الأسباب كلها.. فهناك ثمة سببا مهم يميز هذه القصة. إنها تمضي في خط واحد منذ البداية إلى النهاية.. يلتحم مضمونها وشكلها، ويفضي بك لإحساس عميق بقهر الله وغلبته ونفاذ أحكامه رغم وقوف بعض البشر ضدها.

وقد ورد أن سبب نزول الوحي بالقصة أن النبي ﷺ سأل وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج أبنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ سوى أهل التوراة من خبر على ما كان فيه من نقص وزيادة .

فكان الوحي بقصة يوسف عليه السلام آية للنبي ﷺ ، بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم عليه السلام الميت.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ ويروى أن أسماؤهم: روبيل وهو أكبرهم، - وشمعون - ولاوي - ويهوذا - وزيالون - ويشجر - ، وأهمهم ليا بنت

ليان، وهي بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالي وجاد وأشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً. قال السَّهيلي: وأمَّ يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل: في أسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوْا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن أبناء يعقوب نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقاهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

قال المفسرون: رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم، كأن أحد عشر كوكباً، وهم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه، قد سجدوا له، فهاله ذلك.

فلما استيقظ قصها على أبيه، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها. فأمره بكتماها وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويغفوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر. وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وإخوته معاً. وهو غلط منهم.

وقبل أن نشرع في قصة النبي يوسف عليه السلام؛ يحسن أن نقف وقفة موجزة مع أحوال الرؤى والمنامات؛ نستخلص منها العبر، ونقف على مافيه من سنن وآثار وردت عن النبي محمد ﷺ.



أحكام الرؤيا والمنام والحلم

الرؤيا حالة شريفة، ومنزلة رفيعة؛ فقد قال ﷺ: «لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادرة يراها الرجل الصالح أو تُرى له». وقال: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً». وحكم ﷺ بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وروي «من سبعين جزءاً من النبوة». وروي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «جزءاً من أربعين جزءاً من النبوة». ومن حديث ابن عمرو «جزء من تسعة وأربعين جزءاً». ومن حديث العباس «جزء من خمسين جزءاً من النبوة». ومن حديث أنس «من ستة وعشرين». وعن عبادة بن الصّامت: «من أربعة وأربعين من النبوة».

والصحيح منها حديث الستة والأربعين، ويتلوه في الصحة حديث السبعين؛ ولم يخرج مسلم في صحيحه غير هذين الحديثين، أما سائرهما فمن أحاديث الشيوخ؛ قاله ابن بطال. قال أبو عبد الله المازري: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين». قال الطبري: والصواب أن يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله: «إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة» فإن ذلك قول عام في كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها في منامه على أي أحواله كان؛ وأما قوله: «إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين» فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التي ذكرت عن الصديق - رضي الله عنه - أنه كان بها؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء في السبرات، والصبر في الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة إن شاء الله جزء من أربعين جزءاً من النبوة، ومن كانت حاله في ذاته بين ذلك فرؤياه الصادرة بين جزئين؛ ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين، وتزيد على الأربعين؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن

خلصت نيته في عبادة ربه وبقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب: كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

وهذا التأويل يجمع شتات الأحاديث، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكره أبو سعيد الأسفاسي عن بعض أهل العلم قال: معنى قوله: « جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » فإن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ في النبوة ثلاثة وعشرين عاماً - فيما رواه عكرمة وعمر بن دينار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فإذا نسبنا ستة أشهر من ثلاثة وعشرين عاماً وجدنا ذلك جزءاً من ستة وأربعين جزءاً؛ وإلى هذا القول أشار المازري في كتابه « المعلم » واختاره الغزوي في تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] . وهو فاسد من وجهين:

أحدهما: ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة بأن مدة الوحي كانت عشرين سنة، وأن النبي ﷺ بعث على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين؛ وهو قول عروة والشعبي وابن شهاب والحسن وعطاء الخراساني وسعيد بن المسيب على اختلاف عنه، وهي رواية ربيعة وأبي غالب عن أنس، وإذا ثبت هذا الحديث بطل ذلك التأويل .

الثاني: أن سائر الأحاديث في الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى.

الثالثة: إنما كانت الرؤيا جزءاً من النبوة؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء من علم الغيب؛ كما قال عليه السلام: « إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصادقة في النوم » الحديث. وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة؛ قال ﷺ: « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان » وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه؛ ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

الرابعة: إن قيل: إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلط أهلاً لها؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة؛ كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتية في السجن، ورؤيا بُحْتَنَصْرَ، التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام

عاتكة، عمة رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة، وقد ترجم البخاري « باب رؤيا أهل السجن » - فالجواب أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة؛ إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة؛ وقد تقدّم في « الأنعام » أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء؛ قال المهلب: إنما ترجم البخاري بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوة.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام، وكان تأويلها موافقاً لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحلم، وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سميت ضغثاً؛ لأن فيها أشياء متضادة؛ قال معناه المهلب. وقد قسم رسول الله ﷺ الرؤيا أقساماً تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف ابن مالك عن رسول الله ﷺ قال: « الرؤيا ثلاثة منها أهويل الشيطان ليحزن ابن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ». قال قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم! سمعته من رسول الله ﷺ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ الآية. الرؤيا مصدر رأى في المنام، رؤيا على وزن فعلى كالسقى والبشرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف. وقد اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقليل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم؛ فيخلق الله تعالى للرائي علماً ناشئاً، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ابن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات. وقيل: إن الله ملكاً يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صوراً محسوسة؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال ﷺ في صحيح مسلم وغيره: « رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مهيعة فأولتها الحمى ».

و « رأيت سيفي قد أنقطع صدره وبقراً تُنحر فأولتهما رجلٌ من أهل بيتي يُقتل والبقرة نفر من أصحابي يُقتلون » .

و « رأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة » . و « رأيت في يدي سُوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدي » .

إلى غير ذلك مما ضربت له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أولاً فأولاً، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكير؛ وقد رأى النائم في زمن يوسف عليه السلام بقرًا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه.

السابعة: إن قيل: إن يوسف عليه السلام كان صغيراً وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾؟ فالجواب : أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة، وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا أعترض؛ روي أن يوسف عليه السلام كان ابن اثني عشرة سنة.

الثامنة: هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها. روى أبو رزين العُقيلي أن النبي ﷺ قال: « الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة » . و « الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو مُحِبّاً أو ناصحاً » أخرجه الترمذي وقال فيه: حديث حسن صحيح؛ وأبو رزين أسماه لقيط بن عامر. وقيل لمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب؟ وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت؛ قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال: إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا! ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

التاسعة: وفي هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيّدوا له كيّداً، وفيها أيضاً ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسداً وكيّداً؛ وقال النبي ﷺ : « استعينوا على (إنجاح) حوائجكم بالكتمان

فإن كل ذي نعمة محسود». وفيها أيضًا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه. ويدل أيضًا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تغلب بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت، ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوي، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك، والتأمر في قتله، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعًا من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر على ما تقدم ويأتي.

العاشرة: روى البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة» وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائبها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضي الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك، وفي سورة «يونس» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤]؛ أنها الرؤيا الصالحة.

الحادية عشرة: روى البخاري عن أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يجب فلا يحدث به إلا من يجب وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحدًا فإنها لن تضره». قال علمائنا: فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها؛ ألا ترى قول أبي قتادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل علي من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئًا. وزاد مسلم من رواية جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثًا

وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه . وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل » . قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمتعارض، وإنما هذا الأمر بالتحوّل، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور؛ لأنه إذا قام إلى الصلاة تحوّل عن جنبه، وإذا تمضمض ثقل وبصق، وإذا قام إلى الصلاة تعوّد ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السحر من الليل.

فيعلم مما سبق أن حالة النبي يوسف عليه السلام مع الرؤيا إنما كانت من حالات الرؤيا الصالحة والمنبهة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتبتها ﴿ يَجْتَبِيكَ رَّبُّكَ ﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة، ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ أي كما أعطها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل، إن ربك عليم حكيم ، وكما قال تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

هذا ما تيسر شرحه وتوضيحه فيما يخص الرؤى والمنامات .

(والحمد لله رب العالمين).

من فضائل يوسف ﷺ

قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم؟ قال: « يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » .

في الحديث السابق ذكره يتبين لنا فضل يوسف عليه السلام. فقد قيل يا رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال: « أتقاهم لله » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: « يوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله » ، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: « فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » هكذا وقع في مسلم نبي الله بن نبي الله بن خليل الله، وفي روايات للبخاري كذلك، وفي بعضها نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله وهذه الرواية هي الأصل. وأما الأولى فمختصرة منها فإنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم الخليل ﷺ فنسبه في الأولى إلى جده، ويقال يوسف بضم السين وكسرهما وفتحها مع الهمز وتركه فهي ستة أوجه، قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله ﷺ .

وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين والله أعلم.

قال العلماء: لما سئل ﷺ أي الناس أكرم؟ أخير بأكمل الكرم وأعمه فقال أتقاهم لله. وقد ذكرنا أن أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان تقياً ورعاً كان كثير الخير وكثير الفائدة في الدنيا وصاحب الدرجات العلى في الآخرة، فلما قالوا ليس عن هذا نسألك قال يوسف الذي جمع خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما، فلما قالوا ليس عن هذا نسأل فهم عنهم أن مرادهم قبائل العرب قال خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، ومعناه أن أصحاب المروءات ومكارم الخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

قال القاضي: وقد تضمن الحديث في الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه وبمجمله ومبانه إنما هو الدين من التقوى والنبوة والاعراق فيها والإسلام مع الفقه، ومعنى معادن العرب أصولها، وفقهوا بضم القاف على المشهور وحكى كسرهما أي صاروا فقهاء

عالمين بالأحكام الشرعية الفقهية والله أعلم.

هذا، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في « تفسيريهما » ، وأبو يعلى والبزار في « مسنديهما » ، من حديث الحكم بن ظهير - وقد ضعفه الأئمة - عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي فلم يجبه بشيء، ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها، قال: فبعث إليه رسول الله فقال: « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ » قال: نعم. فقال: « هي جريان، والطارق، والذبال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والدور ».

فقال اليهودي: أي والله إنها لأسماؤها. وعند أبي يعلى: فلما قصها على أبيه قال: هذا أمر مشئت يجمعه الله، والشمس أبوه والقمر أمه.



بداية القصة

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمَسَّالِينَ * إِذْ قَالَُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

في هذه السورة ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ والبيانات. فذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم، وهم عصابة أي جماعة يقولون: فكنا نحن أحق بالحببة من هذين ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد ورد عن بعض من أهل العلم أن ولد ليعقوب دان ونفثالي من زلفة جارية راحيل وذلك أنهما وهبتها له وسألته أن يطلب منها الولد حين تأخر الولد عنها وأن ليا وهبت جارتها بلها ليعقوب منافسة لراحيل في جارتها وسألته أن يطلب منها الولد فولدت له جاد وأشير ثم ولد له من راحيل بعد اليأس يوسف وبنيامين فانصرف يعقوب بولده هؤلاء وامراتيه المذكورتين إلى منزل أبيه من فلسطين على خوف شديد من أخيه العيص فلم ير منه إلا خيرا وكان العيص فيما ذكر لحق بعمه إسماعيل فتزوج إليه ابنته بسمة وحملها إلى الشام فولدت له عدة أولاد فكثروا حتى غلبوا الكنعانيين بالشأم وصاروا إلى البحر وناحية الإسكندرية ثم إلى الروم وكان العيص فيما ذكر يسمى آدم لأدمته قال ولذلك سمي ولده ولد الأصفر وكانت ولادة رفقا بنت بتويل لإسحاق بن إبراهيم ابنه العيص ويعقوب بعد أن خلا من عمر إسحاق ستون سنة توأمين في بطن واحد والعيص المتقدم منهما خروجا من بطن أمه فكان إسحاق فيما ذكر يختص العيص وكانت رفقا أمهما تميل إلى يعقوب فزعموا أن يعقوب ختل العيص في قربان قرباه بأمر أبيهما إسحاق بعد ما كبرت سن إسحاق وضعف بصره فصار أكثر دعاء إسحاق ليعقوب وتوجهت البركة نحوه بدعاء أبيه إسحاق له فغاظ ذلك العيص وتوعده بالقتل فخرج يعقوب هاربا منه إلى خاله لابان ببابل فوصله لابان وزوجه ابنته ليا وراحيل وانصرف بهما وبجارتيهما وأولاده الأسباط الاثني عشر وأختهم دينا إلى

الشأم إلى منزل آبائه وتألف أخاه العيص حتى نزل له البلاد وتنقل في الشأم حتى صار إلى السواحل ثم عبر إلى الروم فأوطنها وصار الملوك من ولده وهم اليونانية فيما زعم هذا القائل. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها، ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمرُوا التوبة بعد ذلك.

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدي: هو يهوذا، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبييل ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴾ ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴾ أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتِعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ ﴿ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ ﴾ طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمرُوا له ما الله به عليهم.

فأجابهم الشيخ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بني يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه. ﴿ قَالُوا لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لُخْسِرُونَ ﴾ [يوسف: ١٤] أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذن لخاسرون، أي عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب؛ فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٠٦﴾

لم يزلوا بأبيهم حتى بعثه معهم، فما كان إلا غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب، أي في قعره على راعونته، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح، وهو الذي ينزل ليملاً الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى المائح.

وقوله تعالى: ﴿لَتَنْبِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم ويوبخهم على ما صنعوا؛ فعلى هذا يكون الوحي بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه، وتبشيراً له بالسلامة.

الثاني: أنه أوحى إليه بالذي يصنعون به؛ فعلى هذا يكون الوحي قبل إلقائه في الجب إنذاراً له. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف؛ وذلك أن الله تعالى أمره لما أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وإخوته بمكانه. وقيل: بوحى الله تعالى بالنبوة؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: «الهاء» ليعقوب؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف، وأنه سيرفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه، والله أعلم. ومما ذكر من قصته إذ ألقي في الجب - ما ذكره السدي وغيره - أن إخوته لما جعلوا يدلونه في البئر، تعلق بشفير البئر، فربطوا يديه ونزعوا قميصه؛ فقال: يا إخوتاه! ردّوا عليّ قميصي أتواري به في هذا الجب، فإن متّ كان كفني، وإن عشت أوارى به عورتى؛ فقالوا: أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً فلتؤنسك وتكسك؛ فقال: إني لم أر شيئاً، فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يسقط فيموت؛ فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فقام عليها. وقيل: إن شمعون هو الذي قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة، وكان جبريل تحت ساق العرش، فأوحى الله إليه أن أدرك عدي؛ قال جبريل: فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمي والوقوع فأقعده على الصخرة سالماً. وكان ذلك الجب مأوى الهوام؛ فقام على الصخرة وجعل يكي، فنادوه، فظن أنها رحمة عليه أدركتهم، فأجابه؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا، وكان يهوذا يأتيه بالطعام؛ فلما وقع عرياناً نزل جبريل إليه؛ وكان إبراهيم حين ألقي في النار عرياناً أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فكان ذلك عند إبراهيم، ثم ورثه إسحق، ثم ورثه يعقوب، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذة

وجعله في عنقه، فكان لا يفارقه؛ فلما ألقى في الحبّ عرياناً أخرج جبريل ذلك القميص فألبسه إياه. قال وهب: فلما قام على الصخرة قال: يا إخوتاه! إن لكل ميت وصية، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضكم بعضاً فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعي، وإذا شربتم فاذكروا عطشي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربي، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي؛ فقال له جبريل: يا يوسف! كف عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان؛ ثم علمه فقال: قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، ويا صاحب كلّ وحيد، ويا ملجأ كلّ خائف، ويا كاشف كلّ كربة، ويا عالم كلّ نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملا، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك في قلبي، حتى لا يكون لي هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير؛ فقالت الملائكة: إلهنا! نسمع صوتاً ودعاء، الصوت صوت صبيّ، والدعاء دعاء نبيّ.

وقال الضحّاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو في الحبّ فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الحبّ؟ فقال: نعم! فقال له: قل يا صانع كلّ مصنوع، ويا جابر كلّ كسير، ويا شاهد كلّ نجوى، ويا حاضر كل ملا، ويا مفرّج كل كربة، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، آيتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك؛ فرددها يوسف في ليلته مراراً؛ فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الحبّ.

وفي رواية: أنه لما ألقوه فيه، أوحى الله إليه: أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: وهم لا يشعرون بإيحاء الله إليه ذلك.

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم ييكون، أي على أخيهم. ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك، وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا أباهم عشاء ييكون، أي في ظلمة الليل؛ ليكون أمشي لغدرهم لا لعذرهم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعَانَا﴾ أي ثيابنا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾

أي في غيبتنا عنه في استباقنا . وقولهم ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ كيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمننا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه. أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك. ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكذوب مفتعل؛ لأنهم عمدوا إلى سخله ذبحوها، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه، ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه، وآفة الكذب النسيان ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته، ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تملأوا يتواطأون.

فلما جاءوا لأبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ .

والسباق هو نوع من المنافسة؛ قال الزجاج. وقال الأزهري: التَّضَالُ فِي السَّهَامِ، وَالرَّهَانُ فِي الْخَيْلِ، وَالْمُسَابَقَةُ تَجْمَعُهُمَا. قال القشيري أبو نصر: «نَسْتَبِقُ» أي في الرمي، أو على الفرس؛ أو على الأقدام؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام. وقال السدي وابن حبان: «نَسْتَبِقُ» نشد جرياً لئلا نرى أينما أسبق.

ولا بأس أن نقف هنا على شيء من فقه المنافسة و السباق ، وأقوال أهل العلم في بذل العطايا والمكافآت في تلك الوجوه .

السباق في الإسلام بين المشروع، والممنوع

قال ابن العربي: المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب؛ وقد فعلها ﷺ بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضي الله عنها على قدميه فسبقها؛ فلما كبر رسول الله ﷺ سابقتها فسبقته؛ فقال لها: « هذه بتلك » ، وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذي قرد إلى المدينة فسبقه سلمة؛ أخرجه مسلم.

الثانية: وروى مالك عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي قد أضمرت (من الحفياء) وكان أمدھا ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمّر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني: أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث: ألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيل التي يجب أن تضمّر ويسابق عليها، وتقام هذه السنة فيها هي الخيل المعدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثة: وأما المسابقة بالتّصل والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول الله ﷺ فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خبائه، ومنا من يتّصل، وذكر الحديث. وخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا سبق إلا في نضل أو خف أو حافر ». وثبت ذكر التّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هريرة، ذكره النسائي؛ وبه يقول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاري عن أنس قال: كان للنبي ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تُسبق - قال حميد: أو لا تكاد تُسبق - فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: « حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه » .

الرابعة: أجمع المسلمون على أن السبق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والتّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار. وقد زاد أبو البخترى القاضي في حديث الخف والحافر والتّصل «أو جناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء

حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد رُوي عن مالك أنه قال: لا سَبَقَ إلا في الخيل والرمي، لأنه قوّة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَقَ الخيل أحبّ إلينا من سَبَقَ الرمي. وظاهر الحديث يسوّي بين السَبَقِ على الثَّجَبِ والسَبَقِ على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. ورُوي عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤوّل قوله؛ لأن حمله على العموم (في كل شيء) يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق.

الخامسة: لا يجوز السَبَقُ في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا، وكذلك الرمي لا يجوز السَبَقُ فيه إلا بغاية معلومة ورَشَقُ معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشروط خَسَقًا أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سَبَقُ يعطيه الوالي أو الرجل غير الوالي من ماله متطوعًا فيجعل للسابق شيئًا معلومًا؛ فمن سبق أخذه. وسَبَقُ يخرج أحدهم المتسابقين دون صاحبه، فإن سَبَقه صاحبه أخذه، وإن سَبَق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَبَقُ الثالث - اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئًا مثل ما يخرج صاحبه، فأيهما سَبَقَ أحرز سَبَقه وسَبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخلا بينهما محللاً لا يأمن أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلّل أحرز السَبَقين جميعًا وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سَبَقه وأخذ سَبَق صاحبه، ولا شيء للمحلّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران - من أصحاب الشافعي -: وحكم الفرس المحلل أن يكون مجهولاً جريه؛ وسمي محللاً لأنه يحلّل السَبَق للمتسابقين أوله. وآتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلّل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سَبَقه وسَبَق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « من أدخل فرسًا بين فرسين وهو لا يأمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمن أن يسبق فهو قمار ».

السادسة: ولا يحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى؛ وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها. وقال الشافعي: وأقلّ السَبَق أن يسبق بالهادي أو بعضه، أو بالكفّل أو بعضه. والسبق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن في هذا الباب نحو قول الشافعي:

السابعة: روي عن النبي ﷺ أنه سابق أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فسبق رسول الله ﷺ، وصلى أبو بكر وثلاث عمر؛ ومعنى وصلى أبو بكر: يعني أن رأس فرسه كان عند صلا فرس رسول الله ﷺ، والصّلوان موضع العجز.

ونعود إلى يوسف وأخوته؛ بعد أن قام أخوته بقذفه في الحب تخلصاً من ليستأثروا بمحبة أبيهم - فيما ظنوا -؛ ذهبوا عنه وتركوه وراء ظهورهم في غيابات الحب ظانين أنه قد هلك وتخلصوا منه.

وعند أهل الكتاب: أن روبيل أشار بوضعه في الحب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة. فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده، فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدي فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - : قال علماؤنا رحمة الله عليهم:

لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التنيب؛ إذ لا يمكن أفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص! قاله ابن عباس وغيره؛ وروى إسرائيل عن سِماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان الدم دم سَخْلَةٍ. وروى سفيان عن سِماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليه قال كذبتُم؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص

ونعود مرة أخرى ليوسف عليه السلام في الحب.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ * وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَةَ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿ [يوسف: ١٩ -

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الحب: أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، فجاءت سيارة، أي مسافرون. قال أهل الكتاب: كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق فيه يوسف.

فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون من الغلمان. قال ﷺ في حديث الإسراء من صحيح مسلم: « فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن ».

قال كعب الأحبار: كان يوسف حسن الوجه، جعد الشعر، ضخم العينين، مستوي الخلق، أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين، خميص البطن، صغير السرة، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحه، وإذا تكلم رأيت في كلامه شعاع الشمس من ثناياه، لا يستطيع أحد وصفه؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليل، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية. وقيل: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن.

فلما رآه ذلك الرجل، ويروى أن اسمه مالك بن زعر. قاله ابن عباس: كان اسم الذي باعه بمصر - يعني الذي جلبه إليها - مالك بن زعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم. فالله أعلم.

﴿ قَالَ يُبَشِّرُ ﴾ بشر أصحابه بأنه وجد عبداً. وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشرى. قال النحاس: قول قتادة أولى؛ لأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيراً؛ وإنما يأتي بالكناية. ﴿ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً ﴾ أي يا بشارتي ﴿ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم، وقيل: ﴿ وَأَسْرُوهُ ﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته. وقيل: عن التجار الذين آشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. «بِضَاعَةً» نصب على الحال. قال مجاهد: أسره مالك بن دُعر وأصحابه من التجار الذين معهم في الرفقة، وقالوا لهم: هو بضاعة آستبضعناها بعض أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر؛ وإنما قالوا هذا خيفة الشركة. وقال ابن عباس: أسره إخوة يوسف بضاعة لما

أستخرج من الحبّ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا: بئس ما صنعتم! هذا عبد لنا أبق، وقالوا: ليوسف بالعبرانية: إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال: أنا أقرّ لكم بالعبودية، فأقرّ لهم فباعوه منهم. وقيل: إن يهوذا وصّى أخاه يوسف بلسانهم أن أعترف لإخوتك بالعبودية فأبى أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجو من القتل، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد! قالوا: هو ترّبى في حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدّب بآدابنا؛ فقال: ما تقول يا غلام؟ قال: صدقوا! تربيت في حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك: إن بعتموه مني أشتريته منكم؛ فباعوه منه؛ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي هو عالم بما عملاً عليه إخوته، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم. ومع هذا لا يغيره تعالى، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر؛ بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم، بما لا يحد ولا يوصف.

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾، قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي: باعوه بعشرين درهماً، اقتسموها درهماً وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً. وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق: أربعون درهماً. والله أعلم.

وقيل: لما اشترى مالك بن دُعر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتاباً: «هذا ما اشترى مالك بن دعر من بني يعقوب، وهم فلان وفلان مملوكاً لهم بعشرين درهماً، وقد شرطوا له أنه أبق، وأنه لا ينقلب به إلا مقيداً مسلسلاً، وأعطاهم على ذلك عهد الله». قال: فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتموني، نصركم الله وإن خذلتكموني، رحمكم الله وإن لم ترحموني؛ قالوا: فألقت الأغنام ما في بطونها دماً عبيطاً لشدة هذا التوديع، ثم حملوا يوسف على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيداً مكبلاً مسلسلاً، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه - وقد كان وكل به أسود يحرسه فغفل الأسود - فألقى يوسف نفسه على قبر أمّه فجعل يتمرّغ ويعتنق القبر ويضطرب ويقول: يا أماه! أرفعي رأسك تري ولدك مكبلاً مقيداً مسلسلاً مغلولاً؛ فرّقوا بيني وبين والدي، فأسألي الله أن يجمع

بيننا في مستقر رحمة إنه أرحم الراحمين، فتفقدته الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضرباً وجيعاً؛ فقال له: لا تفعل! والله ما هربت ولا أبقت وإنما مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها، ولن أرجع إلى ما تكرهون؛ فقال الأسود: والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأملك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك؛ فرفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إن كانت لي عندك خطيئة أخلقت بها وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تغفر لي وترحمني؛ فضجّت الملائكة في السماء، ونزل جبريل فقال له: يا يوسف! غصّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال: تثبت يا جبريل، فإن الله حلیم لا يعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت، وارتفع الغبار، وكسفت الشمس، وبقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضاً؛ فقال رئيس القافلة: من أحدث منكم حدثاً؟ - فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا - فقال الأسود: أنا لطمت ذلك الغلام العبرانيّ فرفع يده إلى السماء وتكلم بكلام لا أعرفه، ولا أشك أنه دعا علينا؛ فقال له: ما أردت إلا هلاكنا! آيتنا به، فأتاه به، فقال له: يا غلام! لقد لطمتك فجاءنا ما رأيت؛ فإن كنت تقتص فاققص ممن شئت، وإن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال: قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فأنجحت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغددة والعشي ويكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر، وردّ عليه جماله، ودخل به البلد نهاراً فسطع نوره على الجدران، وأوقفوه للبيع فاشتراه قبطير وزير الملك؛ قاله ابن عباس على ما تقدّم. وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وأتبع يوسف على دينه، ثم مات الملك ويوسف يومئذ على خزائن الأرض؛ فملك بعده قابوس وكان كافراً، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي أحسني إليه، وأحسني منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن؛ وهو مأخوذ من ثوى بالمكان أي أقام به؛ ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، قال ابن عباس: كان حَصُورًا لا يولد له، وكذا قال ابن إسحق: كان قبطير لا يأتي النساء ولا يولد له. وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة. قالوا: وكان الذي اشتراه من أهل

مصر عزيزها وهو الوزير بها، الذي تكون الخزائن مسلمة إليه. قال ابن إسحاق: واسمه اظفير ابن روحيب قال: وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق. قال: واسم امرأة العزيز « راعيل » بنت رعايل. وقال غيره: كان اسمها « زليخا » والظاهر أنه لقبها. وقيل « فكا » بنت ينوس، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي.

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ي ﴿ أَبْتِ اسْتَجِرَّةَ إِنْ خَيْرٍ مِّنْ اسْتَجَرْتُ الْقَوَى الْإِمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً، وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً. فالله أعلم.

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكننا له في أرض مصر ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملئ لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذي يوحى الله فيه إلى عباده النبيين، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين، وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد: فقال مالك وربيعه وزيد بن أسلم والشعبي: هو الحلم. وقال سعيد بن جبير: ثماني عشرة سنة. وقال الضحاك: عشرون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة. وقال الحسن: أربعون سنة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ * وَأَسْتَبَقَا الْآبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْآبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ * قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣ - ٢٩] .

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال. والمنصب والشباب. وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه، وهيأت له وتصنعت، ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير. قال ابن إسحاق: وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر.

وهذا كله مع أن يوسف عليه السلام شاب بديع الجمال والبهاء، إلا إنه نبي من سلالة الأنبياء، فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، السبعة الأتقياء المذكورين في « الصحيحين » عن خاتم الأنبياء، في قوله عليه الصلاة والسلام من رب الأرض والسماء: « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله » .

والمقصود: إنما دعت إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها صاحب المنزل سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي أحسن إلي وأكرم مقامي عنده ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأورد القرطبي أن امرأة العزيز قالت له: يا يوسف! ما أحسن صورة وجهك! قال: في الرَّحِمِ صَوْرَتِي رَبِّي؛ قالت: يا يوسف ما أحسن شَعْرَكَ! قال: هو أول شيء يَبْلَى مِنِّي في

قبري؛ قالت: يا يوسف! ما أحسن عينيك؟ قال: بهما أنظر إلى ربّي. قالت: يا يوسف! أرفع بصرك فأنظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي. قالت يا يوسف! أدنو منك وتتباعد مني؟! قال: أريد بذلك القرب من ربّي. قالت: يا يوسف! القَيْطُون (فرشته لك) فادخل معي، قال: القَيْطُون لا يسترني من ربّي. قالت: يا يوسف! فراش الحرير قد فرشته لك، قم فاقض حاجتي، قال: إذا يذهب من الجنة نصيبي؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها. وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمْلُن إلى يوسف مِثْل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هبة النبوة؛ فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ اختلقت أقوال الناس عباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهمّ بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها. وقيل: هم بضربها. وقيل: تمنّاها زوجة. وقيل: هم بها لولا أن رأى برهان ربه أي فلم يهمّ بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره.

وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً:

فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاضاً على أصبعه بضمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي عن ابن عباس: رأى خيال الملك يعني سيده، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي. قال رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّكَاةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر، قال: سمعت القرظي يقول: في البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله

﴿إِن عَلَيكُمْ لِحَفِظِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾. وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك.

قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزرجه عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى. وقوله: ﴿رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

والذي يجب أن يعتقد المسلم: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزله عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ وَأَسْتَبَقَا أَلْبَابَ وَلَفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

وهنا نقف على مسألتين:

الأولى: قال العلماء: لما برأت نفسها؛ ولم تكن صادقة في حبه - لأن من شأن المحب إثارة الحبوب - قال: ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ نطق يوسف بالحق في مقابلة بهتها وكذبها عليه. قال توف الشامي وغيره: كأن يوسف عليه السلام لم يبين عن كشف القضية، فلما بعت به غضب فقال الحق.

الثانية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لأنهما لما تعارضا في القول احتاج الملك إلى شاهد ليعلم الصادق من الكاذب، فشهد شاهد من أهلها، أي حكم حاكم من أهلها؛ لأنه حكم منه وليس بشهادة. وقد اختلف في هذا الشاهد على أقوال أربعة:

الأول: أنه طفل في المهد تكلم؛ قال السهيلي: وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ، وهو قوله: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» وذكر فيهم شاهد يوسف.

قال القشيري أبو نصر: كان صبياً في المهد في الدار وهو آبن خالتها؛ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر منهم شاهد يوسف.

﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فقال لمرأة العزيز: إن كان شقَّ القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ لأن المطلوب إذا كان هارباً فإنما يؤتى من قبل دبره، فكان معلوماً أن الشق لو كان من قُبُلٍ لم يكن هارباً مطلوباً، ولكن كان يكون طالبا مدفوعاً، وكان ذلك شهادة على كذبه.

وذلك أن الرجل إنما يريد المرأة مقبلاً. إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ وذلك أن الرجل لا يأتي المرأة من دبر. وقال: إنه لا ينبغي أن يكون في الحق إلا ذاك. فلما رأى إطفير قميصه قُدَّ من دبر عرف أنه من كيدها.

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ قال الرجل. يا يوسف « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أي لا تذكره لأحد وأكتمه. ثم أقبل عليها فقال: وأنتِ ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول: استغفري زوجك من ذنبك لا يعاقبك. ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلب المذكر؛ والمعنى: من الناس الخاطئين، أو من القوم الخاطئين؛ وقيل: إن القائل ليوسف أعرض ولها استغفري زوجها الملك؛ وفيه قولان: أحدهما: أنه لم يكن غيوراً؛ فلذلك كان ساكناً. الثاني: أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ وذلك أن القصة أنتشرت في أهل مصر فتحدث النساء. قيل: هن امرأة ساقى العزيز، وأمراة خبازه، وأمراة صاحب دوابه، وأمراة صاحب سجنه. وقيل: امرأة الحاجب؛ وقالت النسوة ﴿ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم في حكم الممالك، وكان ينفذ أمرها فيه.

قال مقاتل عن أبي عثمان التَّهْدِيّ عن سلمان الفارسي قال: إن امرأة العزيز استوهبت

زوجها يوسف فوهبه لها، وقال: ما تصنعين به؟ قالت: أتخذه ولدًا؛ قال: هو لك؛ فربته حتى أرفع وفي نفسها منه ما في نفسها، فكانت تنكشف له وتزّين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله.

وبدأ الموضوع ينتشر.. خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها.. ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث. إن خلو حياة هذه الطبقات من المعنى، وانصرافها إلى اللهو، يخلعان أهمية قصوى على الفضائح التي ترتبط بشخصيات شهيرة.. وزاد حديث المدينة، وانتقل الخبر من فم إلى فم.. ومن بيت إلى بيت.. حتى وصل لامرأة العزيز، وغدت النساء يدلّين بدلوهن في الموضوع.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والشَّغَاف حجاب القلب، والشَّعَاف سويداء القلب، فلو وصل الحب إلى الشَّعَاف تمكن منه؛ وقال الحسن: ويقال إن الشَّغَاف الجلدة اللاصقة بالقلب التي لا ترى، وهي الجلدة البيضاء، فلصق حُبّه بقلبها ك لصوق الجلدة بالقلب.

فما كان من نساء المدينة، من نساء الأمراء وبنات الكبراء إلا الطعن على امرأة العزيز وعيبتها، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له وهو لا يساوي هذا لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا. ولهذا قلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي بغيتهن إياها، واحتياهن في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهن وأستأمنتن فأفشين سرها، فسمى ذلك مكراً. أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهر ندمًا وهي معذورة في نفس الأمر، فلهذا أحبت أن تبسط عذرهما عندهن، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن، ولا من قبيل ما لديهن. فأرسلت إليهن فجمعتن في منزلها، وأعدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين، كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وأمرته بالخروج عليهن، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة.

وهنا نقف مع امرأة العزيز وقفة. فقد قررت أن تعد مأدبة كبيرة في القصر. ونذكر من هذا أنه كن من نساء الطبقة الراقية. فهن اللواتي يدعين إلى المآدب في القصور. ويدعوا أنهن

كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا، فأعدت لهن هذا المتكأ. واختارت ألوان الطعام والشراب وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلى جوار الطعام المقدم. ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها.

قال مجاهد عن ابن عباس: إن امرأة العزيز قالت لزوجها إني أريد أن أتخذ طعاماً فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لها: افعلي؛ فاتخذت طعاماً، ثم نَجَدَتْ وَزَيْتَ لهن البيت؛ وأرسلت إليهن أن يحضرن طعامها، ولا تتخلف منكن امرأة ممن سميت. قال وهب بن مئب: إهن كن أربعين امرأة فجئن على كره منهن، ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ فجعلت في كل مجلس جأماً فيه عسل وأُتْرَجٌ وسكين حاد؛ فلما شرعن في تقطيع الأترج بالسكين؛ تحينت امرأة العزيز الفرصة، وأمرت يوسف ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ﴾.

قيل: إنما قالت لهن: لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن، ثم قالت للخادمتها: إذا قلت لك أدع لي إيلاً فأدع يوسف؛ وإيل: صنم كانوا يعبدونه، وكان يوسف عليه السلام يعمل في الطين، وقد شدّ مئزره، وحسّر عن ذراعيه؛ فقالت للخادمة: أدع لي إيلاً؛ قال: فتعجب النسوة وقلن: كيف يجيء! فصعدت الخادمة فدعت يوسف، فلما آنحدر قالت لهن: أقطعن ما معكن. ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالمدى حتى بلغت السكاكين إلى العظم؛ هذا ولم يخرج يوسف عليهن في زينته، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه، وتحيّرن لحسن وجهه، فجعلن يقطعن أيديهن، ويحسبن أنهن يقطعن الأترج؛ فأعظمنه وأجللنه وهبته، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح، وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم.

وقد جاء في حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن». قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، لأن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري. ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه. ويوسف كان على النصف من حسن آدم. ولم يكن بينهما أحسن منهما؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره: كان في الغالب مبرقعا لثلا يراه الناس. ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى؛ من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعابنته. وذلك قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها، وأهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول. فقالت قولة المرأة المنتصرة، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها، والتي تفتخر عليهن بأن هذا متناول يدها؛ ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّغِيرِينَ ﴾ * وإن كان قد استعصم في المرة الأولى فهي ستحاول المرة تلو الأخرى إلى أن يلين: انظرون ماذا لقين منه من البهر والدهش والإعجاب! لقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه لكنه استعصم، وإن لم يطعن سآمر بسجنه لأذله.

إنما لم ترى بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية أما نساء طبقتها. فقالتها بكل إصرار، قالتها مبينة أن الإغراء الحديد تحت التهديد.

وكان جواب يوسف عليه السلام جواباً عجيباً ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ * يعني إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وحطيتني بحولك وقوتك.

فدخول السجن، أحبُّ إليَّ وأسهل عليَّ وأهون من الوقوع في المعصية؛ لا أنْ دخول السجن مما يُحِبُّ على التحقيق.

هذا وقد روي أن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ * أوحى الله إليه :

« يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إليّ، ولو قلت العافية أحب إليّ لعوفيت ». فالله أعلم بتلك الرواية المنقولة عن الإمام القرطبي رحمه الله.

فأمام هذه الدعوات - سواء كانت بالقول أم بالحركات واللفتات - استنجد يوسف بربه ليصرف عنه محاولاته لإيقاعه في حبالهن، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم، فيقع فيما يخشاه على نفسه. دعى يوسف الله دعاء الإنسان العارف ببشريته، الذي لا يغتر بعصمته؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته، ويعاونه على ما يعترضه من فتن وكيد وإغراء. ﴿وَالَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أي كيد النسوان. وقيل: كيد النسوة اللاتي رأينه؟ فإنهنّ أمرنه بمطاعة امرأة العزيز، وقلن له: هي مظلومة وقد ظلمتها.

وقيل: طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة في امرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تعذله في حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له: يا يوسف! أقض لي حاجتي فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال: يا رب كانت واحدة فصرن جماعة!!.

وقيل: كيد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والكيد الاحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيداً لاحتيال الناس فيها.

فخشى يوسف على نفسه وعلم أنه في حالة ما إذا وافقهن سيكون من الجاهلين ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجاهل؛ ودلّ هذا على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودلّ أيضاً على قبح الجهل والذم لصاحبه. فكان يوسف يعني من مقولته تلك: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله. فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني، وحطتني بحولك وقوتك.

قوله تعالى: ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ثم بدأ لهم من بعد ما رأوا الآية ليسجننّه حتى حين * ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصِر خمرا وقال الآخر إني أراي أخمِل فوق رأسي خبزا تأكل الطير

مَنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبِئَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَصَاحِبِي السَّجَنُ أَرْبَابٌ مُتَّفَقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَصَاحِبِي السَّجَنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿١٠﴾

وهنا بدا لهم، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن، بعد هذه التجربة؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى يحس في نفسه أثراً منه. أو بهما جميعاً. وهكذا اجتاز يوسف المحنة الثانية بلطف الله ورعايته، فهو الذي سمع الكيد ويسمع الدعاء، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء.

قال الله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانٌ﴾ قيل كان أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل: «نبا» والآخر خبازه، يعني الذي يلي طعامه، واسمه فيما قيل «مجلث» وكان الملك قد اهتمهما في بعض الأمور فسجنهما. فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه، ودله وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

وقال «فتيان» لأتهما كانا عبيدين، والعبد يسمى فتى، صغيراً كان أو كبيراً؛ ذكره الماوردي. وقال القشيري: ولعل الفتى كان اسماً للعبد في عرفهم؛ ولهذا قال: «تَرَاوَدُّ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ». ويحتمل أن يكون الفتى اسماً للخادم وإن لم يكن مملوكاً.

قال وهب وغيره: حمل يوسف إلى السجن مقيداً على حمار، وطيف به « هذا جزاء من يعصي سيده » وهو يقول: هذا أيسر من مُقَطَّعات النيران، وسرايل القطران، وشراب الحميم، وأكل الزقوم.

فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قومًا قد انقطع رجائهم، واشتد بلاؤهم؛ فجعل يقول لهم: اصبروا وأبشروا وتوجروا؛ فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك، من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب، ابن ذبيح الله إسحق، ابن خليل الله إبراهيم.

وقال ابن عباس: لما قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبراني قد فضحني، وأنا أريد أن تسجنه، فسجنه في السجن؛ فكان يُعزِّي فيه الحزين، ويعود فيه المريض، ويداوي فيه الجريح، ويصلي الليل كله، ويكي حتى تبكي معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب، وطهر به السجن، واستأنس به أهل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال له: يا يوسف! لقد أحبتك حباً لم أحب شيئاً حبك؛ فقال: أعوذ بالله من حبك، قال: ولم ذلك؟ فقال: أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتي سيدي فنزل بي ما ترى، فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه، وذلك أن الملك عُمرَ فيهم فملّوه، فسدّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمّاه جميعاً، فأجاب الخباز وأبي صاحب الشراب، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك، فأمر الملك بحبسهما، فاستأنسا بيوسف، فذلك قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ وقد قيل: إن الخباز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقى: أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم. وقال الخباز: أيها الملك لا تشرب! فإن الشراب مسموم؛ فقال الملك للسّاقى: أشرب! فشرّب فلم يضرّه، وقال للخباز: كُلْ؛ فأبى، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه، فحبسهما سنة، وبقياً في السجن تلك المدة مع يوسف. ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله، غير أنهما دخلا معه البيت الذي كان فيه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً؛ كان يوسف قال لأهل السجن: إني أعبر الأحلام؛ فقال أحد الفتين لصاحبه: تعال حتى نجرب هذا العبد العبراني؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً؛ قاله ابن مسعود. وحكى الطبري أنهما سألاه عن علمه فقال: إني أعبر

الرؤيا؛ فسألاه عن رؤياهما. قال ابن عباس ومجاهد: كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها؛ ولذلك صدق تأويلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً».

وقيل: إنها كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريباً؛ وهذا قول ابن مسعود والسدي. وقيل: إن المصلوب منهما كان كاذباً، والآخر صادقاً؛ قاله أبو مجلز. وروى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من تحلّم كاذباً كلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين (ولن يعقد بينهما)». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وعن عليّ عن النبي ﷺ قال: «من كذب في حُلْمه كلّف يوم القيامة عَقْدَ شَعِيرَةٍ». قال: حديث حسن.

قال ابن عباس: لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين؛ فقال لهما يوسف: مالي أراكما مكروبين؟ قالوا: يا سيدنا! إنا رأينا ما كرهنا؛ قال: فقصّ عليّ، فقصّ عليه؛ قالوا: نبئنا بتأويل ما رأينا؛ وهذا يدلّ على أنها كانت رؤيا منام. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإحسانه، أنه كان يعود المرضى ويدأويهم، ويُعزّي الحزائي؛ قال الضّحّاك: كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسّع له، وإذا احتاج جمع له، وسأل له. وقيل: «مِنَ الْمُحْسِنِينَ» أي العالمين الذين أحسنوا العلم، قاله الفراء.

وقال ابن إسحق: ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لنا إن فسّرته، كما يقول: افعل كذا وأنت محسن. قال: فما رأيتما؟ قال الحَبّاز: رأيت كأني اختبرت في ثلاثة تنانير، وجعلته في ثلاث سلال، فوضعت على رأسي فجاء الطير فأكل منه. وقال الآخر: رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض، فعصرتهن في ثلاث أوان، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنباً، بلغة عُمان، قاله الضّحّاك.

وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ عَنبًا﴾. وقال الأصمعي: أخبرني المعتمر بن سليمان أنه لقي أعرابياً ومعه عنب فقال له: ما معك؟ قال: خمر. وقيل: معنى: ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنب خمر. ويقال: خَمْرَةٌ وَخَمْرٌ وَخُمُورٌ، مثل تمرّة وتمر وثُمُور.

قال لهما يوسف: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ يعني لا يجيئكما غداً طعام من

منزلكما ﴿إِلَّا تَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ﴾ لتعلما أي أعلم تأويل رؤياكما، فقالا: أفعل! فقال لهما: يخيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال؛ وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف. وبين أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، يعني دين الملك. ومعنى الكلام عندي: العلم بتأويل رؤياكما، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله، فاسمعوا أولاً ما يتعلق بالدين لتهتدوا، ولهذا لم يعبر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام، فقال: ﴿يُصَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الآية كلها، على ما يأتي. وقيل: علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليسعدا به.

وقيل: إن يوسف كره أن يعبر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما، وأخذ في غيره فقال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ في النوم ﴿إِلَّا تَبَأْتُكُمَا﴾ بتفسيره في اليقظة، قاله السُّدِّيُّ، فقالا له: هذا من فعل العرَّافين والكهنة، فقال لهما يوسف عليه السلام: ما أنا بكاهن، وإنما ذلك مما علّمني ربي، إني لا أخبركما به تكهناً وتنجيماً، بل هو بوحى من الله عزّ وجلّ. وقال ابن جرّيج: كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معروفاً فأرسل به إليه، فالمعنى: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة، فعلى هذا ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ أي يجري عليكم من جهة الملك أو غيره.

ويحتمل يزرقكما الله. قال الحسن: كان يخبرهما بما غاب، كعيسى عليه السلام. وقيل: إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام، وجعل المعجزة التي يستدلان بها إخبارهما بالغيوب^(١).

وقال بعض من أهل التفسير في رواية مشابهة: رأيا في ليلة واحدة. أما الساقى فرأى كأن ثلاث قضبان من حبله وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز، وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى.

إن أول ما قام به يوسف - عليه السلام - هو طمأننتهما أنه سيؤول لهم الرؤى، لأن ربه علمه علماً خاصاً، جزاء على تجرده هو وآباؤه من قبله لعبادته وحده، وتخلصه من عبادة الشركاء.. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياهما، كما

يكسب ثقتهم كذلك لدينه. ثم بدأ بدعوتهم إلى التوحيد، وتبيان ما هم عليه من الظلال. قام بكل هذا برفق ولطف ليدخل إلى النفوس بلا مقاومة.

بعد ذلك فسر لهما الرؤى. بين لهما أن أحدها سيصلب، والآخر سينجو. لكنه لم يحدد من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفاً وتخرجاً من المواجهة بالشر والسوء. ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ وأوضح: إن هذا من تعليم الله إياي، لأنني مؤمن به موحد له، متبع ملة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل، وإسحاق ويعقوب. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل، وصغر أمر الأوثان وحقرها، وضعف أمرها فقال: ﴿يُصَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَاقِمُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [يوسف: ٤٠] أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره. وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال: ﴿يُصَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ * وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] أي وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة.

ولهذا جاء في الحديث: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر؛ فإذا عبرت وقعت». وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد أن الفتیان قالاً: لم نر شيئاً فقال لهما: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَلَسَّاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

يخبر تعالى أن يوسف قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقى ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على

جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب.

قوله تعالى : ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي سيّدك، وذلك معروف في اللغة أن يقال للسيد رب؛ قال الأعشى:

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً وَإِذَا تُنْوِشِدَ فِي الْمَهَارِقِ أَلْشَدَا

ومعنى ما قاله يوسف؛ أي أذكر ما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنني مظلوم محبوس بلا ذنب . وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَسْقَى رَبُّكَ أَطْعَمَ رَبُّكَ وَضَيَّ رَبُّكَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ رَبِّي وَلَيَقُلْ سَيِّدِي مُوَلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أُمِّي وَلَيَقُلْ فَتَايَ فَتَاتِي غَلَامِي » .

وفي القرآن: ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ . إلى ربِّك أي سيك ، ويدل على هذا قول يوسف ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أي صاحبي؛ يعني العزيز.

ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد رَبَّهُ يَرْبُهُ، فهو رَبٌّ له. قال العلماء قوله عليه السلام: « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ » « وَلَيَقُلْ » من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم؛ ولأنه قد جاء عن رسول الله ﷺ : « أَنْ تُلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا » أي مالكتها وسيّدها؛ وهذا موافق للقرآن في إطلاق ذلك اللفظ؛ فكان محل النهي في هذا الباب ألاّ تتخذ هذه الأسماء عادة فترك الأولى والأحسن.

وقد قيل: إن قول الرجل عبدي وأمي يجمع معنيين:

أحدهما: أن العبودية بالحقيقة إنما هي لله تعالى؛ ففي قول الواحد من الناس لمملوكه عبدي وأمي تعظيم عليه، وإضافة له إلى نفسه بما أضافه الله تعالى به إلى نفسه؛ وذلك غير جائز.

والثاني: أن المملوك يدخله من ذلك شيء في استصغاره بتلك التسمية، فيحمله ذلك على سوء الطاعة. وقال ابن شعبان في « الزاهي » : « لَا يَقُلْ السَّيِّدُ عَبْدِي وَأُمِّي وَلَا يَقُلْ المملوك رَبِّي وَلَا رَبَّتِي » وهذا محمول على ما ذكرناه. وقيل: إنما قال ﷺ : « لَا يَقُلْ العبد رَبِّي وَلَيَقُلْ سَيِّدِي » لأن الرب من أسماء الله تعالى المستعملة بالإتفاق؛ واختلف في السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا؟ فإذا قلنا ليس من أسماء الله فالفرق واضح؛ إذ لا التباس ولا

إشكال، وإذا قلنا إنه من أسمائه فليس في الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الرب، فيحصل الفرق. وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون ذلك جائزاً في شرع يوسف عليه السلام.

وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام. قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو الصواب. وقيل أن الضمير في ﴿فَأَنسَاهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عائد إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل؛ وذلك أنه لما قال يوسف لساقى الملك - حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك - حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك- ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الإعتصام بمخلوق؛ فعوقب باللبث.

قال عبد العزيز بن عمير الكندي: دخل جبريل على يوسف النبي عليه السلام في السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالي أراك بين الخاطئين؟! فقال جبريل عليه السلام: يا طاهر (ابن) الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحييت إذ استغثت بالآدميين؟! وعزّيتي! لألبثتك في السجن بضع سنين؛ فقال: يا جبريل! أهو عني راضٍ؟ قال: نعم! قال: لا أبالي الساعة. والله أعلم بصحة هذه الرواية.

وروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك وطوّل سجنه، وقال له: يا يوسف! من خلّصك من القتل من أيدي إخوتك؟! قال: الله تعالى، قال: فمن أخرجك من الحب؟ قال: الله تعالى قال: فمن عصّمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى، قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى، قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟ قال: يا رب كلمة زلت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين.

وروى أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قال: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن بضع سنين».

وقال ابن عباس: عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لما قال للذي نجا منهما ولو ذكر يوسف ربه لخلصه.

وروى إسماعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمة يوسف - يعني قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ - ما لبث في السجن ما لبث» قال: ثم يكي الحسن ويقول: نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس.

والثاني: إن الهاء تعود على الناجي، فهو الناسي؛ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف لربه، أي لسيدته؛ وفيه حذف، أي أنساه الشيطان ذكره لربه؛ وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال: لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحق العقاب باللبث في السجن؛ إذ الناسي غير مؤاخذ. وأجاب أهل القول الأول بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب؛ ردّ عليهم أهل القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فدلّ على أن الناسي (هو) الساقى لا يوسف؛ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟! قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال ﷺ: «نسي آدم فنسيت ذريته». وقال: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون». وقد تقدم.

﴿فَلَيْثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف. وخالف الجوهري فيما زاد على بضعة عشر، فمنع أن يقال بضعة وعشرون إلى تسعين. وفي الصحيح: «الإيمان بضع وستون شعبة، وفي رواية: وسبعون شعبة، وأعلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» .

فالبضع قطعة من الدهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن أبي زيد: يقال بضع وبضّع بفتح الباء وكسرهما. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «وكم البضع» فقال: ما بين الثلاث إلى السبع، فقال: «أذهب فرائد في الخطر». وعلى هذا أكثر المفسرين، أن البضع سبع، حكاه الثعلبي. قال الماوردي: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله

عنه وقُطِرْب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفراء: والبضع لا يُذكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسعين، ولا يذكر بعد المائة. وفي المدة التي لبث فيها يوسف مسجوناً ثلاثة أقاويل:

أحدها: سبع سنين، قاله ابن جرّيج وقتادة ووهب بن مُنّبّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.
الثاني: اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس.

الثالث: أربع عشرة سنة، قاله الضحاك. وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال: مكث يوسف في السجن خمساً وبضعاً. وأشتقاقه من بضع الشيء أي قطعه، فهو قطعة من العدد، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس سبع سنين أو تسع سنين بعد الخمس التي مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله. قال وهب بن مُنّبّه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذّب بِخُتْنَصْرَ بالمسوخ سبع سنين. وقال عبد الله بن راشد البصريّ عن سعيد بن أبي عَرُوبة: إن البضع ما بين الخمس إلى الاثني عشرة سنة.

وبالجملة فإن آية ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يمكن تأويلها على أنها دليل على جواز التعلق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلًا فإن الأمور بيد مُسَبِّها، ولكنه جعلها سلسلة، وركّب بعضها على بعض، فتحريكها سنّة، والتعويل على المنتهى يقين. والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى في لقيا الخضر؛ وهذا بين فليتملّ^(١).

﴿وَقَالَ أَلَمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ * قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعِلْمَيْنِ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون * يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ

دَابَّأَ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿١٠﴾

لما دنا فرج يوسف عليه السلام إيداناً بخروجه من السجن ؛ سبب الله لذلك سبباً غاية في الإعجاز، قيل فيما رواه القرطبي بسنده ^(١).

« أن جبريل نزل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال: إن الله مخرجك من سجنك، وممكن لك في الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إختوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث في السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولاً ليوسف بلاء وشدة، وجعلها آخرًا بشري ورحمة؛ وذلك أن الملك الريان بن الوليد رأى في نومه كأنما خرج من نهر يابس سبع بقرات سمان، في أثرهن سبع عجاف - أي مهازيل - وقد أقبلت العجاف على السمان فأخذن بأذانهن فأكلنهن، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خضرت قد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات، وكذلك البقر كنّ عجافاً فلم يزد فيهن شيء من أكلهن السمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر، وأشراف قومه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ فقصّ عليهم، فقال القوم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي أخلط أحلام. والضغث في اللغة الحزمة من الشيء كالبقول والكلا وما أشبههما، أي قالوا: ليست رؤياك بيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث ما لا تأويل له من الرؤيا.

ويروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: البقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمناً فهي سيّ رخاء، وإن كانت عجافاً كانت شداداً، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فتناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما في الخير « يشبه بعضها بعضاً ».

وفي خبر آخر في الفتن: « كَانَهَا صِيَاصِي الْبَقَرِ » يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرًا كلها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدو يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلة والسنة؛ لما يكون فيها من الولد والغلة والنبات.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ أَلَمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ آلَانِ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ أَلَمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ ﴾ أي فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: أتتوني به ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أي يأمره بالخروج قال: ﴿ رَجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أي حال النسوة. ﴿ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصح براءته (عند) الملك مما قُذِفَ به، وأنه حبس بلا جرم. وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم (ابن الكريم) يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - قال - ولو لبثت في السجن ما لبث ثم جاءني الرسول أجبت - ثم قرأ - ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ - قال - ورحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد (إذ قال ﴿ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾) فما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه ». وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿ أَوَلَمْ تَأْمَنَّا يَا بَلَاءُ وَلَكِنْ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] » وروى عن النبي ﷺ أنه قال: « يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت في السجن ما لبثه أجبت الداعي ولم ألتمس العذر ». وروى نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره. وفي رواية الطبري: « يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعا أن كان حليما ذا أناة ». وقال ﷺ: « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه

والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشتري أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرهم الباب .

قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة؛ وذلك أنه - فيما روي - خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته، ويحقق منزلته من العفة والخير؛ وحينئذ يخرج للإحطاء والمنزلة؛ فلماذا قال للرسول: أرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سجت بحق أو بظلم؛ ونكّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذمام الملك العزيز له. فإن قيل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي، له جهة أيضاً من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد. قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ ذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفي الكلام محذوف، أي فاسأله أن يتعرف ما بال النسوة. قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز - وكان قد مات العزيز - فدعاهن ف ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي ما شأنكن. ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهن. ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله. ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي زنى. قَالَتْ أَمْرَأَةُ الْعَزِيزِ آلَانَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَي تَبَيَّنَ وَظَهَرَ؛ وأصله حَصَصَ، فقليل: حَصْحَصَ؛

كما قال: كُتِبُوا فِي كُتُبِهِمْ، وَكَفَّكَ فِي كَفِّهِ؛ قَالَ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ. وَأَصْلُ الْحَصِّ اسْتِصْصَالُ الشَّيْءِ؛ يُقَالُ: حَصَّ شَعْرُهُ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ جَزْأً.

﴿أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا القول منها - وإن لم يكن سأل عنه - إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظناً، ولا يخالطها شك. وشددت النون في ﴿خَطْبُكُنْ﴾ و﴿رَأَوْتُنَّ﴾ لأنها بمنزلة الميم والواو في المذكر.

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى: أي أخبروني بحكم هذه الرؤيا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمعنى عَبَرْتَ النهر، بلغت شاطئه، فعابر، الرؤيا يعبر بما يؤول إليه أمرها. واللام في «الرؤيا» للتبيين، أي إن كنتم تعبرون، ثم يبين فقال: للرؤيا.

قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

لما ثبت للملك براءته مما تُسبب إليه؛ وتحقيق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجلده عظمت منزلته عنده، وتيقن حسن خلاله قال: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ فانظر إلى قول الملك أولاً - حين تحقق علمه - ﴿أَتُؤْنِي بِهِ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿أَتُؤْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ ورؤي عن وهب بن منبه قال: لما دُعي يوسف وقف بالباب فقال: حسبي ربي من خلقه، عزّ جاره وجلّ ثناؤه ولا إله غيره.

ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره فخرّ له ساجداً؛ ثم أقعده الملك معه على سريره فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. قَالَ لَهُ يَوْسُفُ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ لِلْخَزَائِنِ عَلِيمٌ﴾ بوجوه تصرفاتها.

وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن.

وقيل: إنما تأخر تملكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل في هذه القصة: إن

يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيريه، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعربية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان عمّي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلما (تكلم الملك) بلسان أحابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياي، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيت سبع بقرات سماناً شُهْباً غُراً حساناً، كشف لك عنهن النّيل فطلعن عليك من شاطئه تشخّب أخلافها لبناً؛ فبينما أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَبَ النّيل فغار ماؤه، وبدا أسه، فخرج من حَمَتِه وَوَحَلَه سبع بقرات عِجَاف شُعْثُ غُبُرٍ مُقَلَّصَاتِ البطون، ليس لهنّ ضرور ولا أخلاف، لهنّ أنياب وأضراس، وأكفّ كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلفن بالسّمان فافترسنهنّ أفتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مَحْجَهنّ؛ فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَنٌ ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات ممتلئات حباً وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة في منبت واحد، عروقهنّ في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك: أي شيء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهنّ في الماء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهنّ النار فأحرقتهنّ؛ فصرن سوداً مغبرات؛ فانتبهت مذعوراً أيها الملك؛ فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كان عجباً بأعجب مما سمعتُ منك! فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟.

فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مدرّ لبنت، وأظهر الله فيه النّماء والبركة، ثم ترفع الزرع في قصبه وسنبله تبني له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسّنبل عُلْفاً للدواب، وحباً للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخُصّس؛ فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك؛ فقال الملك: ومن لي بتدبير هذه الأمور؟ ولو جمعت أهل مصر جميعاً ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء؛ فقال يوسف عليه السلام عند ذلك:

﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ أي على خزائن أرضك؛ وهي جمع خزانة؛ ودخلت الألف واللام عوضاً من الإضافة، كقول النابغة:

لَهُمْ شِمَّةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ مِنْ الْجُودِ وَالْأَحْلَامِ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ * وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * .

فإن الله جعل نهاية هذه القصة على وجه عظيم للاعتبار؛ فقد أنعم على يوسف في تقريره إلى قلب الملك، وإنجائه من السجن وتمكينه له في الأرض.

قال الطبري: استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريان يوسف على عمل إطفير (العزير) وعزله؛ قال مجاهد: وأسلم على يديه. قال ابن عباس: ملكه بعد سنة ونصف. وروى مقاتل أن النبي ﷺ قال: « لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله لمُلك في وقته » .

ثم مات إطفير فزوَّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل (امراة العزيز)، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء، وولدت له ولدين: إفرايم ومنشا، أبني يوسف، ومن زعم أنها زليخاء قال: لم يتزوَّجها يوسف، وأنها لما رأتها في موكبها بكّت، ثم قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك عبيداً بالمعصية، والحمد لله الذي جعل العبيد بالطاعة ملوكاً، فضمَّها إليه، فكانت من عياله حتى ماتت عنده، ولم يتزوَّجها؛ ذكره الماوردي؛ وهو خلاف ما تقدّم عن وهب، وذكره الثعلبي؛ فالله أعلم.

ولما فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به، وأقام فيهم العدل، فأحبّه الرجال والنساء، ثم دخلت السنون المخصبة، فأمر يوسف بإصلاح المزارع، وأمرهم أن يتوسعوا في الزراعة، فلما أدركت الغلّة أمر بها فجمعت، ثم بنى لها الأهرأء، فجمعت فيها في تلك السنة غلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها، ثم جمع عليه غلّة كل سنة كذلك، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجذبة نزل جبريل وقال: يا أهل مصر جوعوا؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين. وقال بعض أهل الحكمة: للجوع والقحط علامتان:

إحدهما: أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة، ويسرع إليها الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية.

والثانية: أن يفقد الطعام فلا يوجد رأساً ويعزّ إلى الغاية، فأجتمعت هاتان العلامتان في عهد يوسف، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع!! ويأكلون ولا يشبعون، وانتبه الملك، ينادي الجوع الجوع!! قال: فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك، ثم أصبح فنادى يوسف في أرض مصر كلها؛ معاشر الناس! لا يزرع أحد زرعاً فيضيع البذر ولا يطلع شيء. وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف.

قال ابن عباس: لما كان ابتداء القحط بينما الملك في جوف الليل أصابه الجوع في نصف الليل، فهتف الملك يا يوسف! الجوع الجوع!! فقال يوسف: هذا أوان القحط؛ فلما دخلت أول سنة من سني القحط هلك فيها كل شيء أعدّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يتاعون الطعام من يوسف؛ فباعهم أول سنة بالنقود، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه؛ وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء؛ وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب، حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، حتى احتوى على الكل؛ وباعهم في السنة الخامسة بالعقار والضياع، حتى ملكها كلها؛ وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ونساءهم فاسترقهم جميعاً وباعهم في السنة السابعة برفاقهم، حتى لم يبق في السنة السابعة بمصر حر ولا عبد إلا صار عبداً له؛ فقال الناس: والله ما رأينا ملكاً أجلاً ولا أعظم من هذا؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صنع ربي فيما خَوَّلني! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال: فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت، وإنما نحن لك تبع؛ وما أنا بالذي يستنكف عن عبادتك وطاعتك، ولا أنا إلا من بعض ممالكك، وخَوَّل من خَوَّلك؛ فقال يوسف عليه السلام: إني لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهم بلاء؛ وإني أشهد الله وأشهدك أنني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم، ورددت عليك ملكك بشرط أن تستنّ بسنتي. ويروى أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع من طعام في تلك السنين، فقليل له: أتجوع ويبدك خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف إن شبع أن أنسى الجائع؛ وأمر يوسف طبّاخ الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار، حتى يذوق الملك طعم الجوع، فلا ينسى الجائعين؛

فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

وهنا يبين المولى تبارك وتعالى حُكْمًا قدريًا، وسنة كونية ماضية وهي: ﴿لُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ أي بإحساننا؛ والرحمة النعمة والإحسان وهي لمن يريد الله برحمته ويستأثره بنعمة.

﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثوابهم. وقال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين؛ لصبره في الحب، وفي الرق، وفي السّجن، وصبره عن محارم الله عما دعت إليه المرأة. وقال الماوردي: وأختلف فيما أوتيّه يوسف من هذه الحال على قولين: أحدهما: أنه ثواب من الله تعالى على ما ابتلاه.

الثاني: أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلاً منه عليه، وثوابه باق على حاله في الآخرة. ثم يوجه الله عباده للنعيم الحق، والسعادة الدائمة؛ ﴿وَلَا أُجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ما أعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متّق. ويروى أن الناس أنشدوا:

أما في رسول الله يوسف أسوةً لملك محبوباً على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في الحبس برهة قال به الصبر الجميل إلى الملك
وكتب بعضهم إلى صديق له:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفًا خزائنه بعد الخلاص من السّجن
وأنشد بعضهم:

إذا الحادثات بلغتْ التَّهْيَ وكادت تَذوبُ لهنَّ المَهْجُ
وحلَّ البلاءُ وقُلَّ العزاء فعند التَّأْهِي يكونُ الفَرَجُ

هذا وقد عقد الملك جلسة ليتثبت من أمر يوسف بعد أن ذاع صيته وامتدت شهادته وعُرفت قصيه.

وهنا نجد ان السياق تجاوز عما حدث بين الملك ورسوله، وردة فعل الملك. ليقف بنا أمام المحاكمة. وسؤال الملك للنساء عن أمر يوسف: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ وَبَدُوا﴾ أن الملك سأل عن القصة ليكون على بينة من لامر وظروفه قبل أن يبدأ التحقيق، لذلك جاء سؤاله دقيقا للنساء. فاعترفت النسوة بالحقيقة التي يصعب إنكارها: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف، التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به.. تتقدم لتقول كل شيء بصراحة:

﴿قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾

فيصور السياق القرآني لنا اعتراف امرأة العزيز، بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ شهادة كاملة بإثمها هي، وبرأته ونظافته وصدقه هو.

وتمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إن تأمل الآيات يوحى بأن امرأة العزيز قد تحولت إلى دين يوسف. تحولت إلى التوحيد. إن سجن يوسف كان نقلة هائلة في حياتها. آمنت بربه واعتنقت ديانتها، وأحبته على البعد، وما زالت هي المرأة العاشقة التي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح. ولو بالغيب.. وعلى البعد.. ودون لقاء أو أمل في لقاء. ويصدر الأمر الملكي بالإفراج عنه وإحضاره.

ولم يرد في السياق القرآني بعد ذلك قصة امرأة العزيز تمامًا، يسقطها من المشاهد، فلا نعرف ماذا كان من أمرها بعد شهادتها الجريئة التي أعلنت فيها ضمنا إيمانها بدين يوسف.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ

وَالَّذِي لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ .

ذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: آتوني به ﴿١٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴿١٤٤﴾ أي يأمره بالخروج قال: ﴿١٤٥﴾ رُجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ ﴿١٤٦﴾ أي حال النسوة. ﴿١٤٧﴾ أَلَا تَنظُرُونَ أَن يُؤْتِي يَوْسُفَ أَن يَخْرُجَ إِلَّا أَن تَضْحَكَ بَرَاءَتَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ مِمَّا قُذِفَ بِهِ، وَأَنَّهُ حَبَسَ بِلَا جَرَمٍ.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم قال: ولو لبثت في السجن ما لبثت ثم جاءني الرسول أجبت - ثم قرأ - ﴿١٤٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ أَلَا تَنظُرُونَ أَن يُؤْتِي يَوْسُفَ أَن يَخْرُجَ إِلَّا أَن تَضْحَكَ بَرَاءَتَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ مِمَّا قُذِفَ بِهِ، وَأَنَّهُ حَبَسَ بِلَا جَرَمٍ. قال ﴿١٤٩﴾ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿١٥٠﴾ فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه » .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له: ﴿١٥١﴾ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴿١٥٢﴾ [البقرة: ٢٦٠] » ، ورود عن النبي ﷺ أنه قال: « يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابراً حليماً ولو لبثت في السجن ما لبثته أجبت الداعي ولم ألتمس العذر » .

وفي رواية الطبري: « يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إليّ لخرجت سريعاً أن كان حليماً ذا أناة » . وورد أيضاً عنه ﷺ: « لقد عجب من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشتري أن يخرجوني ولقد عجب من حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرهم الباب » .

فكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة؛ وذلك أنه خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً فيراه الناس بتلك العين أبداً ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه؛ فأراد يوسف عليه السلام أن يبين براءته، ويحقق منزلته من العفة والخير؛ وحينئذ يخرج للإخطاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول: أرجع إلى

ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصود يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري هل سحنت بحق أو بظلم؛ ونكَّب عن امرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لذِمِّام الملك العزيز له.

وهنا قد يطرأ استفهام وهو: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟

فالوجه في ذلك -والله أعلم- أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر من الرأي، له جهة أيضًا من الجودة؛ يقول: لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك؛ وذلك أن هذه القصص والنوازل هي معرضة لأن يقتدي الناس بها إلى يوم القيامة؛ فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور؛ وذلك أن ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السحن، ربما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام آمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد. والله أعلم.

ونرجع إلى يوسف فقد طلب من الرسول أن يسأل الملك : ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾؛ فذكر النساء جملة ليدخل فيهن امرأة العزيز حتى لا يتعرض لها تصريحًا وتوضيحًا؛ وذلك حُسن عشرة وأدب.

قال ابن عباس: فأرسل الملك إلى النسوة وإلى امرأة العزيز - وكان قد مات العزيز - فدعاهن ف ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ أي ما شأنكن. ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهن كلمت يوسف في حق نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت امرأة العزيز، فكان ذلك مراودة منهن.

وكان رد النسوة صريحًا صادقًا ف ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أي معاذ الله. ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ والسوء بعموم الكلمة هو كل دنية، وقيل: أي الزنى. والأولى أصح والله أعلم.

وهنا جاء الرد من صاحبة وشريكة القصة، وهو الرد الذي كان ينتظره الجميع، وأولهم يوسف عليه السلام. فقالت امرأة العزيز: ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ أي تبين وظهر،

وتذهب إلى أبعد من إسقاط التهمة عن يوسف؛ باعترافها على نفسها ﴿أَنَا رَاوِدُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا القول منها - وإن لم يكن سأل عنه - إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار، حتى لا يخامر نفساً ظنّاً، ولا يخالطها شك.

فاعتراف امرأة العزيز، بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر عميقة شهادة كاملة بإثمها هي، وبراءته ونظافته وصدقه هو. شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية أو أي اعتبار آخر.

ويتضح من السياق أن امرأة العزيز حرصت على أن يحترمها يوسف عليه السلام الذي أهان كبرياءها الأنثوية، ولم يعبأ بفتنتها الجسدية. وقامت لتصحيح صورتها في ذهنه. وتريد أن تصحح فكرته عنها: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. ثم تمضي في طريق العودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾.

وقد استشهد أهل العلم بهذه الآية على إسلام امرأة العزيز وتحولها إلى دين يوسف، واعتناقها دين التوحيد. فكان سجن يوسف نقلة هائلة في حياتها. آمنت بربه واعتنقت ديانتها، فسبحان مقدر الأقدار، ومسبب الأسباب؛ الذي عصم يوسف في السجن، وهدى امرأة العزيز بسبب سجن يوسف.

وهنا طلب الملك أن يكون يوسف وزيره كما تقدم، بعد ما رأى أمر يوسف. براءته، وعلمه، وعدم ثقافته على الملك. فعرف أنه أمام رجل كريم، فلم يطلبه ليشكره أو يثني عليه، وإنما طلبه ليكون مستشاره. وعندما جلس معه وكلمه، تحقق له صدق ما توسمه فيه. فطمئنه على أنه ذو مكانه وفي أمان عنده. فماذا قال يوسف؟

لم يسجد شكراً للملك، ولم يقل له: عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادملك الأمين، كما يفعل المتملقون للطواغيت؛ كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء في الازمة القادمة.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد اشتملت - فيما اشتملت - هذه الآية على أربع فوائد:

الفائدة الأولى: ورد عن مالك بن أنس قوله: مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي على حفظها، فحذف المضاف. ﴿إِنِّي حَفِظْتُ﴾ لما وُلِّيت ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمره. وفي التفسير: إني حاسب كاتب؛ وأنه أوّل من كتب في القراطيس. وقيل: ﴿حَفِظْتُ﴾ لتقدير الأقوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بسني المجاعات.

وورد عن جُوَيْرٍ عن الضَّحَّاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخِي يوسف لو لم يقل أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ وَلَكِنْ أَخَّرَ ذَلِكَ عَنْهُ سَنَةً». قال ابن عباس: لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فَتَوَجَّهَ وَرَدَّاهُ بِسَيْفِهِ، وَوَضَعَ لَهُ سَرِيرًا مِنْ ذَهَبٍ، مَكَلَّلًا بِالْدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَضَرَبَ عَلَيْهِ حُلَّةً مِنْ إِسْتَبْرَقٍ؛ وَكَانَ طُولُ السَّرِيرِ ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ عَشْرَةُ أَذْرَعٍ، عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ فَرَاشًا وَسِتُونَ مَرْفَاقَةً، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ، فَخَرَجَ مُتَوَجِّهًا، لَوْنُهُ كَالثَلْجِ، وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ؛ يَرَى النَّازِرُ وَجْهَهُ مِنْ صَفَاءِ لَوْنٍ وَجْهَهُ، فَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ وَدَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَدَخَلَ الْمَلِكُ بَيْتَهُ مَعَ نِسَائِهِ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ مِصْرَ، وَغَزَلَ قُطْفِيرَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَوْسُفَ مَكَانَهُ.

قال ابن زيد: كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلم سلطانه كله إليه، وهلك قطفير في تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف راعيل امرأة العزيز، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟! فقالت: أيها الصديق لا تلمي؛ فإني كنت امرأة حسنة ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي. فوجدها يوسف عذراء فأصاها فولدت له رجلين: إفرايم بن يوسف، ومنشا بن يوسف.

وقال وهب بن منبّه: إنما كان تزويجه زليخاء امرأة العزيز بين دخلي الإخوة، وذلك أن زليخاء مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفّف الناس؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها، وكان يوسف يركب في كل أسبوع مرة في موكب زهاء مائة ألف من عظماء قومه، فقليل لها: لو تعرّضت له لعله يسعفك بشيء؛ ثم قيل لها: لا تفعلي، فرمى ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسجن فيسيء إليك، فقالت: أنا أعلم بخلق جبي منكم، ثم تركته حتى إذا ركب في موكبه، قامت فنادت بأعلى صوتها: سبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيتهم، وجعل العبيد ملوكًا بطاعتهم،

فقال يوسف: ما هذه؟ فأتوا بها؛ فقالت: أنا التي كنت أخدمك على صدور قدمي، وأرجل جُمَّتِكَ بيدي، وتربيت في بيتي، وأكرمت مثواك، لكن فرط ما فرط من جهلي وعتوي فذقت وبال أمري، فذهب مالي، وتضعضع ركني، وطال ذلّي، وعمي بصري، وبعد ما كنت مغبوبة أهل مصر صرت مرحومتهم، أتكفف الناس، فمنهم من يرحمني، ومنهم من لا يرحمني، وهذا جزاء المفسدين.

فبكى يوسف بكاء شديداً، ثم قال لها: هل بقيت تجدين مما كان في نفسك من حبك لي شيئاً؟ فقالت: والله لنظرة إلى وجهك أحب إليّ من الدنيا بخذافيرها، لكن ناولني صدر سوطك، فناولها فوضعتته على صدرها، فوجد للسوط في يده اضطراباً وارتعاشاً من خفقان قلبها، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسل إليها رسولاً: إن كنت أيمّاً تزوّجناك، وإن كنت ذات بعل أغنيّاك، فقالت للرّسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بي الملك! لم يُردني أيام شبابي وغناي ومالي وعزّي أفيريدني اليوم وأنا عجوز عمية فقيرة؟! فأعلمه الرسول بمقاتلتها، فلما ركب في الأسبوع الثاني تعرّضت له، فقال لها: ألم يبلّغك الرسول؟ فقالت: قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهبّتها، ثم زُفّت إليه، فقام يوسف يصلّي ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالها وبصرها، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراماً ليوسف عليه السلام لما عَفَّ عن محارم الله، فأصاها فإذا هي عذراء، فسألها؛ فقالت: يا نبيّ الله إن زوجي كان عتيّاً لا يأتي النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بما لا يوصف؛ قال: فعاشا في خَفْض عيش، في كل يوم يجدّد الله لهما خيراً، وولدت له ولدين، إفرائيم ومنشا.

الفائدة الثانية: قال بعض أهل العلم: في طلب يوسف عليه السلام ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره فلا يجوز ذلك.

وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأوّل أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه. والله أعلم.

قال الماوردي: فإن كان المولّي ظالمًا فقد اختلف الناس في جواز الولاية من قبله على قولين: أحدهما: جوازها إذا عمل بالحق فيما تقلده؛ لأن يوسف وُلّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار في حقه بفعله لا بفعل غيره. الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من تولي الظالمين بالمعونة لهم، وتركيتهم بتقلد أعمالهم؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين: أحدهما: أن فرعون يوسف كان صالحًا، وإنما الطاغية فرعون موسى. الثاني: أنه نظر في أملاكه دون أعماله، فزال عنه التبعة فيه. قال الماوردي: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصل ما يتولاه من جهة الظالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد في تنفيذه كالصدقات والزكوات، فيجوز توليه من جهة الظالم، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرد أربابه به قد أغنى عن التقليد. والقسم الثاني: ما لا يجوز أن يتفردوا به ويلزم الاجتهاد في مصرفه كأموال الفيء، فلا يجوز توليه من جهة الظالم؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لا يستحق. والقسم الثالث: ما يجوز أن يتولاه لأهله، وللإجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام، فعقد التقليد محلول، فإن كان النظر تنفيذًا للحكم بين متراضيين، وتوسطًا بين مجبورين جاز، وإن كان إلزام إجبار لم يجز.

- الفائدة الثالثة: دلت الآية أيضًا على جواز أن يخطب الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرّة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها». وأيضاً ماورد عن أبي بردة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي ﷺ ومعني رجلان من الأشعرين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سأل العمل، والنبي ﷺ يستاك، فقال: «ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس -» قال: قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، قال: وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: «لن - أو - لا نستعمل على عملنا من أراد» وذكر الحديث؛ خرجه مسلم أيضاً وغيره.

فالجواب على ذلك: أولاً: أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم فرأى أن ذلك فرض متعين عليه

فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولّاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف عليه السلام، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله عليه السلام لعبد الرحمن: « لا تسأل الإمارة » .

وأيضاً فإن في الحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتهما وصعوبة التخلص منها دليل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله عليه السلام: « وكل إليها » ومن أبأها لعلمه بآفاتهما، وخوفه من التقصير في حقوقها فرّ منها، ثم إن أبلى بها فیرجى له التخلص منها، وهو معنى قوله: « أعین عليها » .

الثاني: أنه لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي ﷺ: « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: ﴿ إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال. الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . الرابع: أنه رأى ذلك فرضاً متعيناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.

الفائدة الرابعة: دلّت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل؛ وإن كان هذا ليس على الإطلاق في عموم الصفات، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصله، أو تعلق بظاهر من مكسب، وممنوع منه فيما سواه، لما فيه من تزكية ومראה، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله؛ فإن يوسف دعت الضرورة إليه لما سبق من حاله، ولما يرجو من الظفر بأهله. والله أعلم.

ملاقاة يوسف بإخوته والنهاية السعيدة للقصة

وينتقل بنا السياق إلى صورة أخرى؛ فبعد ما مكن الله ليوسف، ورزق الولاية على خزائن مصر؛ جاءه أخوته من فلسطين؛ وهم لا يعرفونه، ولا يدركون عن سيرته السابقة منذ دخوله بيت العزيز صغيراً مستعبداً؛ إلى أن أصبح عزيزاً مكرماً.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ انْثَوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون * قَالُوا سَتَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ *﴾ لما اطمأن يوسف في ملكه، وخرج من البلاء الذي كان فيه، وخلت السنون المخصصة التي كان أمرهم بالإعداد فيها للسنين التي أخبرهم بها أنها كائنة، جهد الناس في كل وجه، وضربوا إلى مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلدة. وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد، فكان لا يحمل للرجل إلا بعيراً واحداً، ولا يحمل للرجل الواحد بعيرين، تقسيطاً بين الناس، وتوسيعاً عليهم، فكان يوسف عليه السلام من خلال منصبه يعطي كل فرد في الفترة الواحدة حمل بعير. وذلك للمجاعة التي أصابت مصر في ذلك الزمان، ولم يكن كل من يملك الشراء يشتري المقادير التي يستطيع شرائها لحزنها ويموت الآخرون. وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذي يضطلع فيه بالتموين.

فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر، فعرفهم وهم له منكرون، لما أراد الله أن يبلغ ليوسف عليه السلام ما أراد.

فلما أصاب الناس الجوع، أصاب كذلك بلاد يعقوب التي هو بها، فبعث بنيه إلى مصر، وأمسك أخا يوسف بنيامين فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له منكرون فلما نظر إليهم.

قال: أخبروني ما أمركم، فإني أنكر شأنكم.

قالوا: نحن قوم من أرض الشام.

قال: فما جاء بكم؟

قالوا: جئنا ننتار طعاما. أي نشترى زادًا!

قال: كذبتُم، أنتم عيون. أي جواسيس. وهذا الحاجة في نفس يوسف، وأمرًا دبره، ليظفر برؤية يعقوب وبنيامين، وأيضًا ليكون درسًا لأخوته رماة البئر. وأردف سائلًا؛ كم أنتم؟ قالوا: عشرة.

قال: أنتم عشرة آلاف، كل رجل منكم أمير ألف، فأخبروني خيركم قالوا: إنا إخوة بنو رجل صديق، وإنا كنا اثني عشر، وكان أبونا يحبّ أبا لنا، وإنه ذهب معنا البرية فهلك منا فيها، وكان أحبنا إلى أبينا. قال: فإلى من سكن أبوكم بعده؟ قالوا: إلى أخ لنا أصغر منه.

قال: فكيف تخبروني أن أباكم صديق وهو يحبّ الصغير منكم دون الكبير؟ اتنوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه فإن لم تأتوني به فلا كيّل لكم عندي ولا تقرّبون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون.

قال: فضعوا بعضكم رهينة حتى ترجعوا فوضعوا شمعون.

فأمر يوسف أن يحمل لإخوته طعامًا على بعيرهم، وأقر لكل رجل منهم بعيره، قال لهم: اتنوني بأخ لكم من أبيكم كيما أحمل لكم بعيرا آخر فتزادوا به حمل بعير آخر. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾؛ قيل أن هذا القول يحتمل وجهين: أحدهما: أنه رخص لهم في السعر فصار زيادة في الكيل.

والثاني: أنه كال لهم بمكيال واف فلم يخس أحدا ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، أي وأنا خير من أنزل ضيفا على نفسه من الناس بهذه البلدة، فأنا أضيفكم، وأنا خير من يضيف بمصر، وأنا خير لكم من غيري، فإنكم إن أتيتم به أكرمت منزلتكم وأحسنتم إليكم، وازددتم به بعيرا مع عدتكم، فإني لا أعطي لكم كل رجل منكم إلا بعيرا. فإن لم تأتوني به فلا كيّل لكم عندي ولا تقرّبون.

وجعل شمعون رهينة غير أنه كان مكرّمًا مقرّبًا، وقد اختار شمعون لأنه كان يوم الحبّ

أجملهم قولاً، وأحسنهم رأياً .

وهنا كان مراد يوسف عليه السلام عندما قال لإخوته : ﴿ اَتُؤْنِسِي بَاخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ يعني بنيامين، وهو أخو يوسف لأبيه وأمه.

وهنا نقف عند مسألة: إن قيل: كيف أستحاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؟

قيل: عن هذا أربعة أجوبة: أحدها: يجوز أن يكون الله عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب، ليعظم له الثواب؛ فاتبع أمره فيه.

الثاني: يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليهما السلام.

الثالث: لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه.

الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم.^(١)

هذا؛ وقد قرر أخوة يوسف يرجعوا ليعقوب ليأخذوا منه بنيامين طمعاً في زيادة الكيل وحمل البعير؛ فقالوا ﴿ قَالُوا سَتَرَاوُدُّ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أي سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا. ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي لضامنون المجيء به، ومحتالون في ذلك.

وهنا انتهت هذه الصورة في مصر، ليبدأ مشهد آخر في أرض كنعان.

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، وقدموا عليه ، وكان منزلهم فيما ذكر عن بعض أهل العلم: أنه بالعربّات من أرض فلسطين بَعُورَ الشام. وبعض يقول: بالأولاج من ناحية الشعب أسفل من حسمي، وعلى كل فإن يعقوب كان صاحب بادية له شاء وإبل؛ فقالوا: يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الْكِيلُ فوق الكيل الذي كيل لنا فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ، ولم يُكَلْ لكل رجل منا إلا كيل بعير، فأرسل معنا أخانا بنيامين يكتل لنفسه كيل بعير آخر زيادة على كيل أباعرنا. وَإِنَّا لَحَافِظُونَ من أن يناله مكروه في سفره.

وجعلوا يلحون عليه ويصرون وقيل أنهم قالوا:

يا أبانا إن ملك مصر أكرمنا كرامة ما لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته،

وإنه ارتهن شمعون، وقال: اتنوني بأخيكم هذا الذي عكف عليه أبوكم بعد أخيكم الذي هلك، فإن لم تاتوني به فلا تقربوا بلادي.

قال يعقوب: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم ما لبث أن وافق خاصة وأن ابنه شمعون رهينة عند يوسف، ويعقوب لا يدري أن ابنه في مأمن وسلام.

وكانت تلك الموافقة مشروطة؛ ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وهنا نقف على مسألتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونَ﴾ أي تعطوني. ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي عهدًا يوثق به؛ فحلفوا بالله ليردنه إليه ولا يُسلمونه؛ واللام في ﴿تَأْتُنِنِي﴾ لام القسم. ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ أَوْ لَا﴾ أي أن تهلكوا أو تموتوا. أو أن تغلبوا عليه.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ للحلف. وقيل: حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل.

الثانية: هذه الآية أصل في جواز الحَمَالَةِ بالعين والوثيقة بالنفس؛ وقد اختلف العلماء في ذلك؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء: هي جائزة إذا كان المتحمل به مالا. وقد ضعف الشافعي الحَمَالَةَ بالوجه في المال؛ وله قول كقول مالك. وقال عثمان البتي: إذا تكفل بنفس في قصاص أو جراح فإنه إن لم يجيء به لزمه الدية وأرش الجراح، وكانت له في مال الجاني، إذ لا قصاص على الكفيل؛ فهذه ثلاثة أقوال في الحَمَالَةِ بالوجه. والصواب تفرقة مالك في ذلك، وأنها تكون في المال، ولا تكون في حد أو تعزير.^(١)

ثم قال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فاقروه مني السلام، وقولوا: إن أبانا يصلي عليك، ويدعو لك بما أوليتنا.

ولكن قبل أن يرجعوا ليوسف كانت هناك مفاجأة وهي: أنه لما فتح إخوة يوسف

متاعهم الذي حملوه من مصر من عند يوسف، وجدوا بضاعتهم، وذلك ثمن الطعام الذي اكتالوه منه ردت إليهم. قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا يعني: ماذا نبغي؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا تطيبها منهم لنفسه بما صنع بهم في رد بضاعتهم إليه. فما نبغي وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل.

ولكنه حب الزيادة التي فطر عليها ولد آدم؛ وهناك أيضًا شمعون لا يزال عند يوسف؛ فقررُوا الرجوع إلى مصر.

فأوصاهم يعقوب ﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وهنا نقف على مراد يعقوب من أمره لأبنائه بدخولهم من أبواب متفرقة؛ فغالب أهل العلم ذهبوا إلى أن يعقوب خشي عليهم من العين؛ والعين حق كما هو ثابت بالكتاب والسنة، فلا بأس هنا أن نتعرض لشيء مما ذكر عن العين والوقاية منها.



الحسد والعين، وقوله عليه الصلاة والسلام «عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ»

لا شك أن العين حق، والحسد حاصل من ابن آدم، وأهل الإسلام على هذا المعتقد؛ غير أن أهل البدع، والعوام من الناس لا يدركون الوسائل الشرعية لدفع العين والحسد، ولا بأس أن نقف على بعض أحكام هذا الأمر وما ورد في الكتاب والسنة بشأنه:

الأمر الأول: أن أخوة يوسف لما عزموا على الخروج خشي عليهم يعقوب من العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً لرجُل واحد؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة؛ وفي هذا دليل على اجتناب اجتماع الإخوة في مكان واحد أمام أعين الناس خشية الحسد.

الأمر الثاني: في الآية دليل على الأمر بالتحرز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْخُلَ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقَدْرُ». وفي تعوذه عليه السلام: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَأَمَّةٍ» ما يدل على ذلك.



أمثلة للحسد

* روى مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرار فنزع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء! فوعك سهل مكانه واشتد وعكه، فأتي رسول الله ﷺ فأخبر أن سهلاً وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: «عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ إِلَّا بَرَكْتُ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ تَوْضُأً لَهُ».

فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس؛ في رواية «اغتسل» فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجله وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه؛ فراح سهل مع رسول الله ﷺ ليس به بأس.

* ركب سعد بن أبي وقاص يوماً فنظرت إليه امرأة فقالت: إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكشحين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغه ما قالت المرأة، فأرسل إليها فغسلت له. ففي هذين الحديثين أن العين حق، وأنها تقتل كما قال النبي ﷺ؛ وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة؛ وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن يجب يعلم أن ذلك كله بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال الأصمعي: رأيت رجلاً عيئاً سمع بقرة تحلب فأعجبه شخبها فقال: أيتها هذه؟ فقالوا: الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها، فهلكتا جميعاً، المورى بها والمورى عنها.

قال الأصمعي: وسمعت يقول: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني. الأمر الثالث: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: «ألا بركت» فدل على أن العين لا تضر

ولا تعدو إذا بَرَكَ العائن، وأما إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الأمر الرابع: العائن إذا أصاب بعينه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال، ويُحجر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المَعِين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

الأمر الخامس: من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلته الناس دفعاً لضرره؛ وقد قال بعض العلماء: يأمره الإمام بلزوم بيته؛ وإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، ويكفّ أذاه عن الناس. وقد قيل: إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذي ذكرناه يرد هذه الأقوال؛ فإنه عليه السلام لم يأمر في عامر بحبس ولا بنفي، بل قد يكون الرجل الصالح عائناً، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسق به؛ ومن قال: يحبس ويؤمر بلزوم بيته. فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

الأمر السادس: روى مالك عن حميد بن قيس المكي أنه قال: دُخِلَ على رسول الله ﷺ بابني جعفر بن أبي طالب فقال لحاضنتهما: « ما لي أراهما ضارِعَيْن » فقالت حاضنتهما: يا رسول الله! إنه تسرع إليهما العين، ولم يمنعا أن نَسْتَرْقِي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك من ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: « أَسْتَرْقُوا لهما فإنه لو سبق شيء القدر سبقتة العين ». وهذا الحديث وإن كان منقطع، لكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيْس الخنعمية عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة متصلة صحاح.

وفيه أن الرُّقَى مما يُسْتَدْفَع به البلاء، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضُرُّعه، أي تضعفه وتتحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم.

الأمر السابع: أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا: إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم.

فهذا يعلم خطورة العين ومدى استغراقها في أذى المسلم؛ نعوذ بالله من شر كل حاسد

وباغض وحاقد.

فالله أسأل أن يرفع عنا صاحب الحسد وأن يعصمنا من عين العائنين .

ونرجع إلى يعقوب؛ فبعد أخذه بأسباب الوقاية أحال السبب لمسبيه، وقال: ﴿ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ . أي لن يمنعكم حذري من شيء أحذره عليكم؛ فلا ينفع الحذر مع القدر. فما كان من قضاء الله فهو نافذ؛ عليه اعتمدت وبه وثقت.

لما دخل ولد يعقوب من حيث أمرهم أبوههم وذلك دخولهم مصر من أبواب متفرقة. ما كان يُعْنِي دخولهم إياها كذلك عنهم من قضاء الله الذي قضاه فيهم فحتمه، من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها إلا أنها طاعة ليعقوب بدخولهم من طرق عدة خوفا من العين عليهم، فاطمأنت نفسه أن يكونوا أوثوا من قبل ذلك أو نالهم من أجله مكروه. ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أي بنيامين؛ ضمه إليه، وأنزله معه.

وقيل: أمر أن ينزل كل اثنين في منزل، فبقي أخوه منفردا فضمه إليه وقال: أشفقت عليه من الوحدة، وقال له سرا من إخوته ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فلما عرف بنيامين أنه يوسف قال له: لا تردني إليهم، فقال: قد علمت اغتنام يعقوب بي فيزداد غمه، فأبى ورفض بنيامين الخروج؛ فقال يوسف: لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يحمل بك: فقال: لا أبالي!

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ فدس الصاع في رحله؛ إما بنفسه من حيث لم يطلع عليه أحد، أو أمر بعض خواصه بذلك. والتجهيز التسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جهّز على الجريح أي قتله، ونجّز أمره.

والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مقبض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ وكان صواع الملك شيء من فضة يشبه المَكْوَك مرصع بالجواهر، يجعل على الرأس؛ وبه كال طعامهم مبالغة في إكرامهم. وقيل: إنما كان يكال به لعزة الطعام.

﴿ ثُمَّ أَذِّنْ مُؤَدِّنَ آيَتِهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أي نادى منادٍ وأعلم. ﴿ وَأَذِّنْ ﴾ للتكثير؛ فكأنه نادى مراراً ﴿ آيَتِهَا الْعِيرُ ﴾ . والعير: الإبل المرحولة المركوبة؛ والمعنى: يا أصحاب العير.



لماذا أمسك يوسف بنيامين ونسب السرقة لإخوته وهم براء؟!

هنا اعتراضان: الأول: إن قيل: كيف رضي بنيامين بالقعود طوعاً وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن، ووافقه على ذلك يوسف؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم براء؟ فالجواب عن الأول: أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أو لا تراه لما فقدته قال: ﴿يَاسِفًا عَلَى يُوسُفَ﴾ ولم يعرج على بنيامين؛ ولعل يوسف إنما وافقه على القعود بوحى؛ فلا اعتراض. وأما نسبة يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب: أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فآلقوه في الحب، ثم باعوه؛ فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل، فصدق إطلاق ذلك عليهم.

وهناك جواب آخر: وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السراق؛ والمعنى: إن شيئاً غيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه.

وجواب آخر: وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع في رحله، ولا أخبره بنفسه. وقد قيل: إن معنى الكلام الاستفهام؛ أي أو إنكم لسارقون؟ كقوله ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ [الشعراء: ٢٢] أي أو تلك نعمة تمنها عليّ؟ والغرض ألا يعزى إلى يوسف ﷺ الكذب والله أعلم.

ونعود إلى أخوة يوسف؛ فقد أقبلوا على المنادي ومن يحضرهم يقولون لهم: ماذا تَفْقِدُونَ ما الذي تفقدون؟ قالوا نَفَقْدُ صُوعِ الْمَلِكِ وَمَشْرَبَتِهِ. أو الإناء الذي كان يوسف يكيل به الطعام، كما سبق بيانه.

ولم يقف الأمر عند تلك التورية؛ بل تعداه إلى جعل مكافأة لمن يأتي بالصواع فقالوا: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي لمن جاء بالصواع حمل بعير من الطعام.

قالوا: ما نعلمه فينا ولا معنا. قال: لستم بيارحين حتى أفتش أمتعتكم وأُعْذِرَ في طلبها منكم. ففتش يوسف أوعيتهم ورحالهم طالبا بذلك صُوعِ الْمَلِكِ، فبدأ في تفتيشه بأوعية إخوته من أبيه، إنما بدأ يوسف برحالهم لنفي التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه فجعل يفتشها وعاء وعاء قبل وعاء أخيه، فإِنَّهُ أَخَّرَ تفتيشه، ثم فتش آخرها وعاء أخيه،

فاستخرج الصواع من وعاء أخيه.

وذكر أنه كان لا ينظر في وعاء إلا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به، حتى بقي أخوه، وكان أصغر القوم، قال: ما أرى هذا أخذ شيئاً، قالوا: بلى فاستبره، ألا وقد علموا حيث وضعوا سقائهم. ثم استخرجها من وعاء أخيه.

ثم جاء السياق موضحاً أن الذي قدر هذا كله ورتبه هو الله سبحانه، كذلك ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهكذا صنع الله ليوسف حتى يُخَلِّصَ أخاه لأبيه وأمه من إخوانه لأبيه، بإقرار منهم أن له أن يأخذه منهم ويحتبسه في يديه ويحول بينه وبينهم وذلك أنهم قالوا إذ قيل لهم ﴿مَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ فقررُوا أن جزاء من سرق الصواع أن من وجد ذلك في رحله فهو مُسْتَرَقٌّ به، أي يصبح خادماً عند من سُرِق. وذلك كان حكمهم في دينهم. فكاد الله ليوسف كما وصف لنا حتى أخذ أخاه منهم، فصار عنده بحكمهم وصنع الله له من قبل ومن بعد.

فلم يكن ليوسف أن يأخذ أخاه في حكم ملك أرضه إلا أن يشاء الله بكيده الذي كاده له، حتى أَسْلَمَ مَنْ وُجِدَ في وعائه الصُّوَاعِ إخوانه ورفقاؤه بحكمهم عليه وطابت أنفسهم بالتسليم. ف ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. أي في سلطانه وتبعيته.

ثم يبين الله عز وجل أن العزة يمنحها هو لمن ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ فيرفع الله منازل من يشاء، وقال أهل التفسير إن معنى الآية السابقة: أن الله رفع منازل ومراتب يوسف في الدنيا بالعلم على غيره، كما رفعها مرتبة ومنزلته في الدنيا على منازل وإخوانه ومراتبهم. وفوق كل عالم مَنْ هو أعلم منه حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن يوسف أعلم إخوانه، وأن فوق يوسف من هو أعلم من يوسف، حتى ينتهي ذلك إلى الله تعالى.

وقد ورد عن ابن عباس قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

ونعود إلى إخوة يوسف؛ فإنه لما استخرج الصواع من رحل بنيامين، أرادوا أن يبرؤوا أنفسهم من فعلة بنيامين؛ ﴿فَقَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

قيل أنهم قالوا تلك المقولة لأنه ليس من أمهم؛ فأمعنوا في اتهامه؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق، وهم يعنون يوسف بالسرقة؛ من غير أن يعلموا أن يوسف أمامهم. وقد اختلف أهل العلم في السرقة التي نسبوها إلى يوسف .

فروي عن مجاهد وغيره: أن عمه يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب، وكانت صارت إليها منطقة إسحق لسنّها؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالسنّ، وهذا مما نسخ حكمه بشرعنا، وكان من سرق استُبعد. وكانت عمه يوسف حَضَنَتْه وأحبته حباً شديداً؛ فلما ترعرع وشبَّ قال لها يعقوب: سَلِّمي يوسف إليّ، فلست أقدر أن يغيب عني ساعة؛ فولعتُ به، وأشفقت من فراقه؛ فقالت له: دعه عندي أياماً أنظر إليه فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة-أي حزام- إسحق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: لقد فقدتُ منطقة إسحق، فانظروا مَنْ أخذها ومَنْ أصابها؛ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت فكشفوا؛ فوجدت مع يوسف.

فقالت: إنه والله لي سَلَمُ أصنع فيه ما شئت؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك؛ فأمسكته حتى ماتت؛ فبذلك عبّره إخوته، وقد تكون تلك الواقعة سبباً في تعلّم يوسف وضع السقاية في رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته.

وقال سعيد بن جبّير: إنما أمرته - أي عمته - أن يسرق صنماً كان لجده أبي أمه، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق، وكان ذلك منهما تغييراً للمنكر؛ فرموه بالسرقة وعيروه بها؛ وقاله قتادة: أنه كان صنم ذهب. وقال عطية العوفي: إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عرق فحبّاه فعيروه بذلك. وقيل: إنه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين؛ حكاه ابن عيسى. وقيل: إنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه؛ قاله الحسن.

﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ ﴾ ولم يرد على اتهامهم لكي لا ينكشف أمره.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ . أي عبداً بدله؛ وقد قيل: إن هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّة؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: أقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في استنزاله. ويحتمل أن يكون قولهم: «فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» أي خذ

أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فيمنع يوسف عليه السلام من ذلك .

وجعلوا يتلطفون له ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وأطنبوا في وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أي من أن نأخذ البريء بالجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه ﴿ إِنَّا إِذَا لَطَّالِمُونَ ﴾ أي أن نأخذ غيره.

وفي رواية مشاهة^(١): أن الصواع لما وُجد في رحل أخيه يوسف تلاوم القوم بينهم، وانقطعت ظهورهم، وقالوا: يا بني راحيل، ما يزال لنا منكم بلاء حتى أخذت هذا الصواع فقال بنيامين: بل بنو راحيل الذين لا يزال لهم منكم بلاء، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم. فقالوا: لا تذكر الدراهم فنؤخذ بها.

فلما دخلوا على يوسف دعا بالصواع، فنقر فيه، ثم أدناه من أذنه، ثم قال: إن صواعي هذا ليخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه. فلما سمعها بنيامين، قام فسجد ليوسف، ثم قال: أيها الملك، سل صواعك هذا عن أخي أحيّ هو؟ فنقره، ثم قال: هو حيّ، وسوف تراه. قال: فاصنع بي ما شئت، فإنه إن علم بي سوف يستنقذي. قال: فدخل يوسف فبكى، ثم توضأ، ثم خرج فقال بنيامين: أيها الملك إني أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق، فسله من سرقه فجعله في رحلي؟

فَلَمَّا يَتَسَّ إِخْوَةُ يُوسُفَ أَنْ يَخْلُصُوا بَنِيَامِينَ ؛ قَالَ كَبِيرُهُمْ رُوبِيلُ ، ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ في حفظ أبنه، وردّه إليه. وذكرهم بيوسف ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنُ بَرِّحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ .

عقد الأخوة مجلساً يتشاورون فيه. لكن السياق القرآني لا يذكر أقوالهم جميعاً. إنما يثبت آخرها الذي يكشف عما انتهوا إليه. ذكر القرآن قول كبيرهم إذ ذكرهم بالموثق المأخوذ

عليهم، كما ذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل. ثم يبين قراره الجازم: ألا يرح مصر، وألا يواجه أباه، إلا أن يأذن أبوه، أو يقضي الله له بحكم، فيخضع له وينصاع. وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق، فأخذ بما سرق. ذلك ما علموه وشهدوا به. أما إن كان بريئاً، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب. وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها - أي أهل مصر - وليسأل القافلة التي كانوا فيها، فهم لم يكونوا وحدهم، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتأخذ الطعام.

﴿ فَلَمَّا اسْتِأْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

وروى القرطبي^(١): أن يهوذا قال لإخوته - وكان أشدهم غضباً - : إما أن تكفوني الملك ومن معه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفوني أهل مصر أكفكم الملك ومن معه؛ قالوا: بل أكفنا الملك ومن معه نكفك أهل مصر؛ فبعث واحداً من إخوته فعذبوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقاً؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال: أيها الملك! لئن لم تخل معنا أخانا لأصبحن صيحة لا تبقي في مدينتك حاملاً إلا أسقطت ما في بطنها؛ وكان ذلك خاصة فيهم عند الغضب؛ فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وأشد غضبه، وانتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بني يعقوب؛ كان إذا غضب، أقشعر جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهدم البنيان، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم والطير إلا وضعت ما في بطنها، تماماً أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دمًا، أو تمسكه يد من نسل يعقوب؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تم وكمل كلم ولداً له صغيراً بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفي يهوذا من

حيث لا يراه؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف فالتفت يميناً وشمالاً لعله يرى أحداً من إخوته فلم يره؛ فخرج مسرعاً إلى إخوته وقال: هل حضرتي منكم أحد؟ قالوا: لا! قال: فأين ذهب شمعون؟ قالوا: ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد احتمل صخرة عظيمة؛ قال: ما تصنع بهذه؟ قال أذهب إلى السوق الذي وقع في نصيبي أشدخ بها رؤوس كل من فيه؛ قال: فأرجع فردّها، أو ألقها في البحر، ولا تحدثنّ حَدَثًا؛ فوالذي آخذ إبراهيم خليلاً! لقد مَسَّنِي كَفٌّ من نَسْلِ يعقوب. ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشاً، فقال: يا معشر العبرانيين! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحونة فركّله برجله فدحا به من خلف الجدار؛ ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصرعه لجنبه، وقال: هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصوّاعه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا! قال: فإنه يقول: إنه ليس على قلب أبي هؤلاء هم ولا غم ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال: إنه يخبرني أن هؤلاء أخذوا أخاً لهم صغيراً فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلّفوه؛ فقالوا: أيها العزيز! أستر علينا ستر الله عليك، وأمن علينا من الله عليك؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول: إن هؤلاء طرحوا صغيرهم في الجُبِّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله؛ ثم نقره رابعة وقال: إنه يخبرني أنكم أذنبتم ذنباً منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه؛ ولم تتوبوا إليه، ثم نقره خامسة وقال إنه يقول: إن أخاهم الذي زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقره سادسة وقال إنه يقول: لو كنتم أنبياء أو بني أنبياء ما كذبتُم ولا عَقَقْتُم والدكم؛ لأجعلنكم نكالا للعالمين. إيتوني بالحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم، فتضرعوا وبكوا وأظهروا التوبة وقالوا: لو قد أصبنا أخانا يوسف إذ هو حيّ ل نكونن طوع يده، وتراباً يطأ علينا برجله؛ فلما رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم: أخرجوا عني! قد خلّيت سبيلكم إكراماً لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالا.

فعل الأبناء ما أمرهم به أخوهم الكبير، وحكوا ليعقوب عليه السلام ما حدث. استمع يعقوب إليهم وقال بحزن صابر، وعين دامعة:

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ﴿٢﴾ فصبري على ما نالني من فقد ولدي صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية، عسى الله أن يأتيني بأولادي جميعاً؛ وهي كلمته ذاتها يوم فقد يوسف.. لكنه في هذه المرة يضيف إليها الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك فيردّهم عليه. إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بوحده وبفقدهم وحزنه عليهم؛ إنه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته. وهو مؤمن بأن الله يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات. ويأتي بكل امر في وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَيُّضْتُ عُيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٣﴾

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع. يحس أنه منفرد بهم، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب يوسف. الذي لم ينسه، ولم تهون من مصيبته السنون، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل.

وأسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره.. أو ما يشبه فقد بصره. فصارت أمام عينيه غشاوة بسبب البكاء لا يمكن أن يرى بسببها. فقد كظم حزنه، فالكظم هو الحزين الذي لا يظهر حزنه. ولم يكن يعقوب عليه السلام يبكي أمام أحد.. كان بكأوه شكوى إلى الله لا يعلمها إلا الله.

ثم لاحظ أبنائه أنه لم يعد يبصر ورجحوا أنه يبكي على يوسف، وهاجموه في مشاعره الإنسانية كأب.. حذروه بأنه سيهلك نفسه:

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ﴿٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

وكررُوا عليه التحذير من أن عاقبة بكاءه ستهلكه أو سيكون حَرَضًا؛ والحرض: الشيء البالي الفاني.

ردهم جواب يعقوب إلى حقيقة بكائه.. إنه يشكو همه إلى الله.. ويعلم من الله ما لا يعلمون.. فليتركوه في بكائه وليصرفوا همهم لشيء أجدى عليهم:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

إنه يكشف لهم في عمق أحزانه عن أمله في روح الله.. إنه يشعر بأن يوسف لم يموت كما أنبؤوه.. لم يزل حيا، فليذهب الإخوة بخثا عنه.. وليكن دليلهم في البحث، هذا الأمل العميق في الله.

وهذا يدل على أن يعقوب كان متيقن من حياة يوسف؛ إما بالرؤيا، أو بالوحي، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه؛ وهو أظهر.

والتحسس طلب الشيء بالحواس؛ فهو تفعل من الحس، أي أذهبوا إلى هذا الذي طلب منكم أخاكم، واحتال عليكم في أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه.

ويروى أن ملك الموت قال له: أطلبه من هاهنا! وأشار إلى ناحية مصر. وقيل: إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة، واحتباس أخيه، وإظهار الكرامة؛ فلذلك وجههم إلى جهة مصر دون غيرها. ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ فَلَا﴾ تقنطوا من فرج الله؛ فالمؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة.

﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذا دليل على أن القنوط من الكبائر.

وتتقرب لحظة المواجهة الأخيرة، ونهاية القصة، فهذه هي المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ فقد رجعوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا: ﴿مَسْنَا﴾ أي أصابنا ﴿وَأَهْلْنَا الضَّرُّ﴾ أي الجوع والحاجة؛ وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر، أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحا في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط؛ والصبر والتجلد في التوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل .

وأحسن الكلام في الشكوى: سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائده على عبادته؛ فأما الشكوى على غير مُشكٍ فهو السّفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلي؛ كما قال ابن دُرَيْد:

لَا تَحْسَبَنَّ يَا دَهْرُ آتِي ضَارِعٌ مَارَسْتَ
لَنَكْبَةٍ تَعْرِقُنِي عَرَقَ الْمُدَى
مَنْ لَوْ هَوَتْ الْأَفْلَاكُ مِنْ لَكْنِهَا نَفْثَةٌ
جَوَابِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا
مَصْدُورٍ إِذَا جَاشَ لُغَامٌ مِنْ نَوَاحِيهَا غَمَا

هذا وقد جاء إخوة يوسف بأموال ليشتروا من خير مصر لحاجتهم ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ والبضاعة - هنا - القطعة من المال يقصد بها شراء شيء؛ تقول: أبضعت الشيء وأستبضعته أي جعلته بضاعة؛ وفي المثل: كمستبضع التمر إلى هجر.

والبضاعة المزجاة هي الناقصة غير التامة. اختلف في تعيينها هنا؛ فذكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت قديداً وحيساً؛ وقيل: خَلَقُ الْعَرَائِرِ وَالْحِبَالِ. وقيل: متاع الأعراب صوف وسمن؛ وقيل: الحبة الخضراء والصنوبر وهو البُطْم، حبّ شجر بالشام، يؤكل ويعصر الزيت منه لعمل الصابون، فباعوها بدراهم لا تنفق في الطعام، وتنفق فيما بين الناس؛ فقالوا: خذها منا بحساب جيد تنفق في الطعام. وقيل: دراهم رديئة. والله أعلم.

وطلبوا أن يتصدق عليهم بما عرفوا عنه من كرم وإحسان؛ وهنا واجههم يوسف بسؤال مباغت لينهي به الغموض القائم بينهم؛ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا أَأَنْتَ يَاسُوفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾.

قيل: إن يوسف تبسم فشبهوه بيوسف وأستفهموا. قال ابن عباس لما قال لهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ الآية، ثم تبسم يوسف - وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم - فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: ﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يَوسُفُ ﴾. وعن ابن عباس أيضاً: أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا: ﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يَوسُفُ ﴾. وقال ابن عباس: كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفّي الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر - أما بعد - فإنّا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّي

إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبي إسحق بالذبح، ثم آبتلاني بولد كان لي أحب أولادي إلي حتى كُفَّ بصري من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألدُّ سارقاً والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله، واقتشعر جلده، وأرخت عينيه بالبكاء، وعيل صبره فباح بالسر.

فبعد ما مرت السنوات، وذهب كيدهم له.. ونفذ تدبير الله المحكم الذي يقع بأعجب الأسباب.. كان إلقاؤه في البئر هو بداية صعوده إلى الحكم.. وكان إبعادهم له عن أبيه سبباً في زيادة حب يعقوب له. وها هو ذا يملك رقايم وحياتهم، وهم يقفون في موقف استجداء عطفه.. إنهم يَحْتَمُونَ حوارهم معه بقولهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

إن روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يشيان بخوف مبهم غامض يحتاج نفوسهم.. ولعلهم فكروا في انتقامه منهم وارتعدت فرائضهم.. ولعل يوسف أحس ذلك منهم فطمأنهم بقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فلا مؤاخذه، ولا لوم، انتهى الأمر من نفسي وذابت جذوره.. لم يقل لهم إنني أسامحكم أو أغفر لكم، إنما دعا الله أن يغفر لهم، وهذا يتضمن أنه عفا عنهم وتجاوز عفوه، ومضى بعد ذلك خطوات.. دعا الله أن يغفر لهم.. وهو نبي ودعوته مستجابة.. وذلك تسامح نراه آية في التسامح. والتثريب التَّعْيِير والتوبيخ، أي لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ ومنه قوله عليه السلام: «إِذَا زَنَتِ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْخَذَّ وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا» أي لا يعيرها؛

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أخذ بُعْضَادَتِي الباب يوم فتح مكة، وقد لَازَ النَّاسُ بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال: «ماذا تظنون يا معشر قريش» قالوا: خيراً، أخ كريم، وأبن أخ كريم وقد قَدَّرْتَ؛ قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف: لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ»؛ فقال عمر رضي الله عنه: فَفَضْتُ عَرَقًا مِنَ الْحَيَاءِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ ذلك أي قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكة: اليوم ننتقم منكم ونفعل، فلما قال رسول الله ﷺ ما قال أستحييت من قولي.

وزاد يوسف في الإحسان لإخوانه بأن دعى لهم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ سأل الله أن يستر عليهم ويرحمهم.

وها هو ذا يوسف ينهي حوارهم معهم بنقلة مفاجئة لأبيه.. يعلم أن أباه قد ابيضت عيناه

من الحزن عليه.. يعلم أنه لم يعد يبصر.. لم يدر الحوار حول أبيه لكنه يعلم.. يحس بقلبه. أو بوحى؛ فمن ثم خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

(والقميص) ذرْع مُفاضةً، وكان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدُّ على يعقوب بصره، ولكن قيل أن ذلك قميص إبراهيم الذي ألبسه الله في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحق، وكان إسحق كساه يعقوب، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص في قَصَبَةٍ من فضة وعلقه في عُتق يوسف، لَمَّا كَانَ يَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَيْنِ، وَأَخْبَرَهُ جَبْرِيلُ بِأَنْ أَرْسَلَ قَمِيصَكَ فَإِنْ فِيهِ رِيحُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُ الْجَنَّةِ لَا يَقَعُ عَلَى سَقِيمٍ وَلَا مُبْتَلًى إِلَّا عُوفِيَ.

وقال الحسن: لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذي حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذي أحمله الآن لأسره، وليعود إليه بصره، فحمله؛ وزاد يوسف من الإحسان بأن طلب منهم جمع الشمل، وأن يأتوا بأبنائهم وأزواجهم، وجميع أهلهم إلى مصر؛ ليكونوا في كنفه وتحت رعايته، ويفيض عليهم مما أفاض الله عليه من خيرات، ونعيم، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على بره برحمه وأهله؛ فقال: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال مسروق: فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ في فلسطين.. قال يعقوب -عليه السلام- لمن حوله: إني أشم رائحة يوسف، لولا أنكم تقولون في أنفسكم أنني شيخ خرف لصدقت ما أقول. فرد عليه من حوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

وقيل أن الريح استأذنت رها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير، فأذن لها، فأتته بها. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ فهاجت ريح، فجاءت بريح يوسف من مسيرة ثمان ليال.

قال ابن عباس: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه.

وقال مجاهد: هبَّت رِيح فَصَفَقَتَ القَمِيصَ فراحَت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بـيعقوب، فوجد رِيح الجنة فعلم أنه ليس في الدنيا من رِيح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فعند ذلك قال: «إِنِّي لِأَجِدُ أَيَّ أَشْمٍ؛ فهو وجود بحاسة الشم. فقال: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُونُسَ لَوْ أَن تُقْنِدُونِ﴾ .

لكن المفاجأة السعيدة تقع: فقد ذهب يهوذا وقال لإخوته: أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبت به مُلَطَّخًا بالدم؛ قد علمتم أنني ذهبت إليه بقميص التَّرحَة فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحَة. وقال يحيى بن يمان عن سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب قال له: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام؛ قال: الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن: لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئاً يُشبه به؛ فقال: والله ما أصبتُ عندنا شيئاً، وما خبزنا شيئاً منذ سبع ليالٍ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت.

وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .



وقفه مع قميص يوسف عليه السلام

إن الناظر في قصة يوسف عليه السلام؛ يمكن أن يقف عند قصة قميص يوسف ثلاث وقفات:

الوقفه الأولى: حين جاء أخوة يوسف على القميص بدم كذب، فكان دليل إدانتهم من حيث أرادوا أن يكون القميص دليل صدقهم؛ فيعقوب عليه السلام أستدل على كذبهم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهي قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها.

الوقفه الثانية: حين مراودة امرأة العزيز يوسف تريده لها، وامتناعه عن الفحشاء والحرام؛ ثم فراره عليه السلام يريد أن يستبق الباب ليعصم نفسه من كيد زوجة العزيز؛ فلحقت به، وقدت قميصه من دبر، وكان ما سنسرده إن شاء الله من أنهما ألفيا العزيز عند الباب، وقد ارتاب في ذلك الحال؛ ثم اتهم زوجة العزيز ليوسف بالبهتان وإتيان ما لم يأت؛ فكان القميص دليل صدقه بما كان عليه من آمارات الهتك من الخلف لا من الأمام؛ فكان القميص آية ثانية لنفس صاحب القصة وهو يوسف عليه السلام.

الوقفه الثالثة: حين مكن ليوسف في الأرض وأضحى وزيراً لعزيز مصر، وجمع أخوته حوله بعدما عرفهم وعرفوه، جعل الله معجزة في قميص يوسف؛ عندما أمر أخوته أن يذهبوا بقميصه لأبيهم؛ فيلقوه على وجهه ليعود بصيراً بعد عمى أصاب عينيه من كثرة بكاءه على يوسف وأخيه وافتقاده لهما.

فسبحان الله الذي جعل الآيات تترى، والمعجزات تتعدد في قميص من القماش. ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئاً من بنيه، وأنه لم يصف لهم بعد، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح.



حكم طلب الصفح ممن آذى مسلماً ظالماً له

لما رجع أخوة يوسف من مصر؛ سألوا يعقوب المغفرة، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله.

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها؛ وهل ينفعه التحليل المطلق أم لا؟

وهذا فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدرٌ وبأل ربما لم تطب نفس المظلوم في التحلل منها. فعلى الظالم أن يطلب الصفح صراحة من المظلوم، وأصح أقوال أهل العلم في هذا الشأن أن المظلوم إن لم يعف صراحة بغير تعريض أو تورية أو إيهام بقيت المظلمة في نفس الظالم لم تسقط عنه والله أعلم.

وفي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحللله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

قال المهلب فقولہ ﷺ: «أخذ منه بقدر مظلمته» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشاراً إليها مبيّنة، والله أعلم.

فإن الله كم من ظالم بيت الليالي لا يدري كم سيأخذ من حسناته أو ستطرح عليه من سيئات من ظالم.

ونرجع إلى يعقوب؛ قيل أنه أخر دعاءه إلى السحر. وقيل: سحر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وقيل في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب.

وعن عامر الشعبي قال: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» أي أسأل يوسف إن عفا عنكم استغفرت لكم ربي؛ وذكر سنيد بن داود قال: حدثنا هشيم قال حدثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دثار عن عمه قال: كنت آتي المسجد في السحر فأمر بدار ابن مسعود

فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سحرٌ فأغفر لي، فلقيت ابن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهن في السحر؟ فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

وها هو المشهد الأخير في قصة يوسف:

بدأت قصته برؤيا.. وها هو ذا الختام تأويل رؤياه:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

رفع يوسف أبواه على السرير، وقد تقدّمت محامله؛ وقد يُعبر بالعرش عن الملك والمَلِكِ نفسهُ ﴿خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾. تحقيقاً للرؤية، ورؤيا الأنبياء حق.

فتحققت رؤيا يوسف، ولم الله عليه شمله وجمعه بأبيه وأمه وإخوته من بعد سنين فراق عجاف كابد فيها يوسف عليه السلام ما كابد وذاق فيها ما ذاق والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهنا نقف على مسألة؛ وهي هل يجوز سجود البشر بعضهم لبعض؟.



حكم الانحاء المسلم تحية لغيره والإشارة باليد

يمكننا أن نفصل هذه المسألة على ثلاثة أوجه:

الأول: قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَخَرُّوْاْ لَهُ سُجَّدًا﴾ كان تحيتهم أن يسجد الوضيع والصغير للكبير؛ فهذا في شريعة يعقوب منسوخة بشريعة محمد ﷺ.

الثانية: قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن - في قوله: ﴿وَخَرُّوْاْ لَهُ سُجَّدًا﴾ - قال: لم يكن سجوداً، لكنه سنة كانت فيهم، يؤمّون برؤوسهم إيماء، كذلك كانت تحيتهم. وقال الثوري والضحاك وغيرهما: كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم. وقيل: كان انحاء كالركوع، ولم يكن خرواً على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحاء، وقد نسخ الله ذلك كله في شرعنا، وجعل الكلام بدلاً عن الانحاء.

وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة.

فهذا الانحاء والتكفي الذي نُسخ عنا قد صار عادة عند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به، وأنه لا قدر له؛ وكذلك إذا ألتقوا أنحن بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نكّبوا عن السنن، وأعرضوا عن السنن.

روى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله! أينحن بعضنا إلى بعض إذا ألتقينا؟ قال: «لا»؛ قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضاً؟ قال: «لا». قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال «نعم». خرّجه أبو عمر في «التمهيد».

فإن قيل: فقد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيّدكم وخيركم» - يعني سعد بن معاذ - قلنا: ذلك مخصوص بسعد لما تقتضيه الحال المعينة؛ وقد قيل: إنما كان قيامهم لينزلوه عن الحمار؛ وأيضاً فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثر ذلك في نفسه، فإن أثر فيه وأعجب به ورأى لنفسه حظاً لم يجز عونه على ذلك؛ لقوله ﷺ: «من سره أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار». وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم

يكن وجهه أكرمَ عليهم من وجه رسول الله ﷺ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه، لما يعرفون من كراهته لذلك.

الثالثة: فإن قيل: فما تقول في الإشارة بالإصبع؟ قيل له: ذلك جائز إذا بعد عنك، لتعين له به وقت السلام، فإن كان دانيًا فلا؛ وقد قيل بالمنع في القرب والبعد؛ لما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من تشبه بغيرنا فليس منا ». وقال: « لا تُسلموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالكُفِّ والتصارى بالإشارة ». وإذا سلم فإنه لا ينحني، ولا أن يُقبل مع السلام يده، ولأن الانحناء على معنى التواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم، ولا يتبعون على أفعالهم التي أحدثوها تعظيمًا منهم لكبرائهم.

قال النبي ﷺ: « لا تقوموا عند رأسي كما تقوم الأعاجم عند رؤوس أكاسرهما » فهذا مثله. ولا بأس بالمصافحة؛ فقد صافح النبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال: « تصافحوا يذهب الغل » وروى غالب التَّمَار عن الشعبي أن أصحاب النبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا؛ فإن قيل: فقد كره مالك المصافحة؟ قلنا: روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة، وذهب إلى هذا سُحْنُون وغيره من أصحابنا؛ وقد روي عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة، وهو الذي يدل عليه معنى ما في الموطأ؛ وعلى جواز المصافحة جماعة العلماء من السلف والخلف. قال ابن العربي: إنما كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرًا عامًا في الدين، ولا منقولاً نقل السلام؛ ولو كانت منه لاستوى معه.

وقد جاء في المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها، والدَّأْب عليها والمحافظة؛ وهو ما رواه البراء بن عازب قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فقلت: يا رسول الله! أن كنت لأحسب أن المصافحة للأعاجم؟ فقال: « نحن أحق بالمصافحة منهم ما من مسلمين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا ألقى ذنوبهما بينهما ». والله أعلم.

ونرجع إلى يوسف فإنه دعى ربه: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾. فهذه أخلاق الأنبياء، وعقيدتهم وإيمانهم في عزو النعمة والفضل لله عند النعمة والنعمة، فلا كبر، وافتخار في مواقف العزة، ولا يأس وقنوط عند مواقف الشدة.

ويروى هنا أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارَفَ أرض مصر وبلغ ذلك يوسف أستاذن فرعون - وأسمه الريان - أن يأذن له في تَلْقَى أبيه يعقوب، وأخبره بقدمه فأذن له، وأمر الملا من أصحابه بالركوب معه؛ فخرج يوسف والملاك معه في أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلَقَ الله أعلم بهم؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشي متكئاً على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيل والناس والعساكر .

فقال: يا يهوذا! هذا فرعون مصر؟ قال: لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فمُنِعَ من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوب بالسلام فقال: السلام عليك يا مُذْهِبَ الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحاً، وبكى يوسف لما رأى بأبيه من الحزن؛ قال ابن عباس: فالبكاء أربعة، بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء.

ثم قال يعقوب: الحمد لله الذي أقرَّ عيني بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر في اثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمَةُ عن ابن عباس.

وحكى ابن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة (ألف) وسبعون ألفاً.

وقال الربيع بن خيثم: دخلوها وهم اثنان وسبعون ألفاً، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف.

وقال وهب بن منبه: دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فراراً من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً مقاتلين، سوى الذرية والهرمى والزمنى؛ وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف سوى المقاتلة.

وقال أهل التواريخ: أقام يعقوب بمصر أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل، ثم أنصرف إلى مصر. قال سعيد بن جبير: نقل يعقوب عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عيصو، فدفنا في قبر واحد؛ فمن ثم تنقل اليهود موتاهم إلى

بيت المقدس، مَنْ فَعَلَ ذلك منهم؛ ووُلِدَ يعقوب وعِصُو في بطن واحد، ودفنا في قبر واحد وكان عمرهما جميعاً مائة وسبعاً وأربعين سنة.^(١) والله أعلم.

وهنا تمت قصة يوسف؛ وقبل أن نرحل لغيرها من القصص؛ فلا بأس من أن نستخرج منها بعض الفوائد:

(١) الطبري (٢٥٩/٩) .

بعض الفوائد المنتقاة من قصة يوسف

❖ لاشك أن ما حصل ليوسف في بداية قصته إنما كان ابتلاءً ومحنة، وقد صبر، واشتدت عزيمته وإيمانه بالله، وقد ورد في الحديث والسنة الثابتة أن هذا الابتلاء؛ إنما يتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان؛ لقوله ﷺ: « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل » .

ولهذا حكم الله تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكليف. فعلى العاقل منا أن يتصور الواقع على حقيقته، ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطن آدم الأول - الجنة - إلى دار الشقاء والبلاء، فعلى المسلم أن يجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال ابن القيم :

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم

❖ المتأمل في حال إخوة يوسف، وما أتمروا عليه من إبعاد يوسف عن أبيه؛ ليستأثروا هم بمحبتته؛ ليجد أن تلك المؤامرة لم تزدهم إلا بعداً عن أبيهم؛ لأنه أدرك بفطرة الأب السليمة أن أخوة يوسف إنما فرطوا فيه لحاجة في أنفسهم؛ فقال لهم ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾ ، وهذا من فطنة الأب، وهداية الله عز وجل له، فرجعوا خائبين لم ينالوا من أبيهم خيراً، فضلاً عن اقترافهم ذنباً عظيماً في حق يوسف عليه السلام.

❖ لاشك أن التمييز بين الأبناء بالمحبة أو العطايا؛ يلقي الحقد والحسد في نفوس إخوته، فأخوة يوسف ما فعلوا بيوسف ما فعلوا إلا لأنهم وجدوه مستأثراً بحب يعقوب له ﴿ لِيُؤْثِرُوا بِأَخْوَاهُ أَحَبَّ إِلَيْ آبَائِهِمْ مِنْهُمْ ﴾ . وقد نهي رسول الله ﷺ عن التفريق بين الأبناء في العطايا، أو أن ييدي الأبوان محبة لولد دون الآخر، فعلى الرجل أن يعدل بين أولاده، كما أمر الله ورسوله، فقد ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال لبشير بن سعد لما نخل ابنه النعمان نخلًا - أي أهده هدية - ، وأتى النبي ﷺ ليشهده على ذلك، فقال له: « اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم » وقال: « لا تشهدني على هذا؛ فأني لا أشهد على جور » وقال له: « اردده » فردده

بشير. وقال له على سبيل التهديد: «أشهد على هذا غيري». لكن إذا خص أحدهما بسبب شرعي: مثل أن يكون محتاجاً مطيعاً لله، والآخر غني عاص يستعين بالمال على المعصية، فإذا أعطى من أمر الله بإعطائه ومنع من أمر الله بمنعه فقد أحسن. والله أعلم.

✽ من الفوائد المتقاة من قصة يوسف؛ أن على المرء أن يترث في الحكم على الأمور، ولا يأخذ بشهادة أحد طرفي النزاع دون الآخر، وأن يعمل عقله إذا قابله أمر غامض؛ فلا استدلال بقميص يوسف المقطوع من الدبر لا من الأمام إنما كان من الاستدلالات الموفقة الصحيحة، والتي لا يمكن أن تقطعها ريبة أو يظللها شك، وكان أقوى دلائل برأة يوسف من ادعاء امرأة العزيز.

✽ من الآيات التي تحمل دلالة نقاء سريرة يوسف قول الله عز وجل ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾؛ فمما يفهم من هذه الآية أن الله صرف النساء عن يوسف، ولم يقل سبحانه - فصرفناه عنهن -؛ لأنها لو كانت الأخيرة؛ لكان المعنى أن يوسف هو الذي يسعى إليهن ولكن صرفه الله عنه، ولكن حاشاه يوسف عن ذلك؛ بل هن اللاتي سعين له، وراودنه عن نفسه، ولكن الله عصمه، فأحسن يوسف التعامل مع كيد النساء، وأنجاه الله منهن بغير فاحشة اقترفها، أو ذنب وقع فيه. وسبحان من أحكم كلماته في محكم كتبه.

✽ التقوى والصبر، من الفوائد التي جاءت على لسان يوسف في نهاية القصة، والتي تعد من أهم ما يستمسك بهما المسلم في هذا الزمان؛ فلا شك أن ترك يوسف مغريات امرأة العزيز كان تقوى لله وأنه صبر على ذلك؛ بل وصبر على السجن وفضَّله على غواية النساء، وصبر على أخوته وأذاهم له، والأمثلة في قصة يوسف على الصبر والتقوى جليلة وعظيمة.

قال علي بن أبي طالب الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا انقطع الرأس بار الجسد ألا لا إيمان لمن لا صبر له فالصبر على أداء الواجبات واجب ولهذا قرن بالصلاة في أكثر من خمسين موضعاً.

وسئل الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية عن الصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس فأجاب رحمه الله:

الحمد لله أما بعد فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل فالهجر الجميل هجر بلا أذى والصفح الجميل صفح بلا عتاب والصبر الجميل صبر بلا شكوى قال

يعقوب عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، مع قوله فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون؛ فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل.

ويروى عن موسى عليه السلام أنه كان يقول اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ومن دعاء النبي ﷺ «اللهم إليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وانت ربي اللهم إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى أن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير ان عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتي حتى ترضى».

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ في صلاة الفجر ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ ويكسى حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف بخلاف الشكوى إلى المخلوق.

وقرىء على الإمام أحمد في مرض موته إن طاووسا كره أنين المريض وقال أنه شكوى فما أن قالها حتى مات وذلك ان المشتكى طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَاَنْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾، وقال ﷺ لابن عباس «إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فإستعن بالله». ولا بد للإنسان من شيئين:

أولاً: طاعته لله بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور فالأول هو التقوى.

والثاني: هو الصبر قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ إلى قوله ﴿وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وقال تعالى ﴿بَلَىٰ إِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، وقال تعالى ﴿لَتَبْلُوَنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عِزِّ الْأُمُورِ﴾ وقد قال يوسف ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِّن يَّتَّقِي وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

فنقول: أن التقوى تقرب المسلم من ربه؛ تبعده عن الشيطان، والصبر يزيد المسلم تقوى؛ فتكون المحصلة كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. والله أعلم.

* الصفح والمغفرة عند المقدرة من شيم الكرام؛ وقد قالها يوسف لإخوته بعد ما مكن له واعترفوا هم بذنوبهم وما اقترفوه في حقه فكان التسامح منه آية في التسامح؛ ﴿قَالَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ فما انتقم لنفسه، وثأر لها.

وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه يوم دخوله مكة - كما سبق ذكره - فما انتقم لنفسه؛ فكانت صفاته وشيمه كما ورد في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا». نسأل الله حسن الخلق والعفو عند المقدرة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(والحمد لله رب العالمين).



قصة موسى والخضر

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَآرَدْنَا أَنْ نُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * .

قصة النبي موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام من القصص المشهورة عند الناس

بما ورد في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

هذا وقد ورد ذكرهما في كتب أهل الكتاب على مناحي متعددة، بعد أن امتدت أيديهم لقصة موسى والخضر عليهما السلام بالتحريف والتقلص والتأخير؛ ولكن سلمت أخبارهما بما ورد في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

ومن الكتاب والسنة نبدأ سائلين المولى عز وجل العون؛ فنذكر الخضر عليه السلام؛ ليس تفضيلاً منا لأحدهما على الآخر؛ وإنما لشهرة كلّم الله موسى عليه الصلاة والسلام، وذكره في مواضع كثيرة في القرآن تفوق المواضع التي ذكر فيها الخضر عليه السلام؛ فعرفت أخبار موسى عليه السلام بأضعاف ما عرف عن الخضر؛ والذي اختلف فيه كثير من أهل العلم فضلاً عن غيرهم.



اسم الخضر ونسبه

اختلف العلماء والمؤرخون في اسم الخضر عليه السلام ونسبه على أكثر من عشرة أقوال، وأشهر أسمائه : بلياً بن ملكان وكنيته أبو العباس وهو معروف بلقبه الخضر . وقيل أنه من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم وهاجر معه من أرض بابل حكاة بن جرير الطبري في تاريخه، وقيل كان أبوه فارسياً وأمه رومية وقيل كان أبوه رومياً وأمه فارسية .

أما سبب تسميته بالخضر: فيوجد في مصادر التفسير والحديث ما رواه البخاري وأحمد والترمذي وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إنما سمي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تمتز من خلفه خضراء » ^(١).

وقد ورد بعض الخلاف في الخضر، هل هو صاحب موسى بن عمران عليه السلام أم غيره؟.

ومنشأ هذا الخلاف بين المؤرخين إنما هو نتاج بعض الروايات الإسرائيلية التي ورد فيها:

أن موسى بن ميثا بن يوسف بن يعقوب، نبي قبل موسى بن عمران وأنه هو للذي طلب الخضر بن ملكان، وهو قول ساقط مرجوح سنداً وتاريخاً؛ فالصحيح الراجح أن موسى بن عمران عليه السلام الذين أنزلت عليه التوراة وصاحب الخضر المعروف الوارد قصته مع موسى في سورة الكهف وقد روى الشيخان في صحيحهما من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالي يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى فقال: « كذب عدو الله » .

ولم يقل ذلك ابن عباس رضي الله عنهما إلا على وجه الإغلاظ لمخالفته قول رسول الله ﷺ، الثابت بأن الخضر هو صاحب موسى بن عمران عليهما السلام. فقد غضب ابن عباس على قوهي هذا وقال: « كذب عدو الله » لشدة إنكاره عليه.

(١) الفتح (٤٣٣/٦)، النووي (١٣٦/١٥)، تحفة الترمذي (٩٧٥/٨).

زمان الخضر عليه السلام

قال أبو جعفر كان الخضر ممن كان في أيام أفريدون الملك بن أثفيان في قول عامة أهل الكتاب الأول وقبل موسى بن عمران وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان أيام إبراهيم خليل الرحمن وهو الذي قضى له بيثر السبع وهي بئر كان إبراهيم احتفرها لماشيته في صحراء الأردن وإن قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التي كان احتفر بها إبراهيم بئر فحاكمهم إبراهيم إلى ذي القرنين الذي ذكر أن الخضر كان على مقدمته أيام سيره في البلاد وإنه بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم، ولا يعلم به ذو القرنين ومن معه مخلص فهو حي عندهم إلى الآن.

وقول الذي قال إن الخضر كان في أيام أفريدون وذي القرنين الأكبر قبل موسى بن عمران أشبه بالحق إلا أن يكون الأمر كما قاله من قال إنه كان على مقدمة ذي القرنين صاحب إبراهيم فشرب ماء الحياة فلم يبعث في أيام إبراهيم نبيا وبعث أيام ناشية بن أموص وذلك أن ناشية بن أموص الذي ذكر ابن إسحاق أنه كان ملكا على بني إسرائيل كان في عهد بشتاسب بن هراسب وبين بشتاسب وبين أفريدون من الدهور والأزمان ما لا يحله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم.

وذكر عن عبدالله بن شاذب قال: الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان في كل عام بالموسم.



هل الخضر ملك أم ولي أم نبي؟

اختلف المفسرون والمؤرخون في الخضر عليه السلام بهذا الصدد على ثلاثة أقوال مشهورة :

الأول: إنه ملك من الملائكة، يتصور في صورة الآدميين . وقد عارضه بعض أهل العلم؛ قال ابن كثير: هذا غريب جدًا . وقال النووي: هذا غريب باطل.

الثاني: إنه وليّ. ذهب إليه جماعة من الصوفية وغيرهم. ورتبوا درجة الولاية ترتيبات غير مشروعة، وقال بالولاية أيضًا من الحنابلة: أبو علي بن أبي موسى، وأبو بكر الإنباري، وأبو القاسم القشيري.

الثالث: أنه نبي، قاله الثعلبي، وقال: هو نبي في جميع الأقوال. وقال القرطبي: الخضر نبي عند الجمهور. وذكره الآلوسي نبوته عند الجمهور. وبه قال الحافظ بن حجر.



الأدلة من الكتاب والسنة على نبوة الخضر عليه السلام

إذا تأمل القاريء في أمر الخضر، لوجد أدلة عديدة من الكتاب والسنة تدل وتشير على نبوة الخضر نعددها فيما يلي:

القرآن الكريم

١- نجد أن الآيات وصفت الخضر بعبد أوتي رحمة من الله وعلمه ربه علماً؛ فقال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ الآية.

قال جمهور من أهل العلم أن الرحمة التي آتاها الرب جل وعلا للخضر إنما هي الوحي والنبوة، والناظر في قول موسى عليه السلام للخضر ﴿هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ الآية.

فلو كان الخضر ولياً - وهي منزلة دون منزلة النبوة - وليس بني، لم يخاطبه موسى عليه السلام بهذه المخاطبة، ولم يرد على الخضر عليه السلام على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دون، فلو كان غير نبي لم يكن معصوماً، ولم تكن لموسى وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة كبير رغبة ولا عظيم طلب لعلم ولي غير واجب العصمة.

٢- إن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام الوارد ذكره في الآيات. فما ذلك إلا من وحي أوحاه الله عز وجل إليه؛ وهذا دليل قوي وواضح ومستقل على نبوة الخضر عليه السلام، وبرهان ظاهر على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يرد على خاطره، أو يلقي في خلدته، لأن خلدته - أي الولي - ليس خلد معصوم؛ وخاطره لا يعتد به في مثل تلك الأحكام.

٣- لما فسر الخضر تأويل تلك الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره قال بعد ذلك كله ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ الآية. أي ما فعلته من تلقاء نفسي، بل

أمرت به، وأوحى إلي فيه.

٤- قال الله عز وجل: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن ٢٦-٢٧]. وقد دلت قصة الخضر عليه السلام وموسى عليه السلام أنه كان مظهرًا على الغيب، وليس ذلك إلا لنبي أو رسول. ولا يؤتى لولي مثله. والله أعلى وأعلم.



أما من السنة

١- فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « وددت أن موسى صبر، حتى يقص علينا من أمرهما » ^(١).

وفي تمجي الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الاطلاع على ما يقع بينهما، دليل على أن الخضر كان موحى إليه، ولو لم يكن كذلك لما جاز هذا التمني بأن ينتظر الرسول محمد ﷺ أمراً غير موحى إليه.

٢- صح عن النبي ﷺ أنه قال : « لما لقي موسى الخضر عليهما السلام، جاء طير فألقى منقاره في الماء. فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطير؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء. » ^(٢).

فهذا صريح في أن الخضر قد علم منطق الطير، وهو من الغيب الذي لا يعلمه البشر فهو في هذا على نحو النبي سليمان عليه السلام الذي حكى عنه القرآن: (يأبها الناس علمنا منطق الطير) ^(٣).

٣- حديث أبي بن كعب الذي ورد فيه « بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر » ^(٤).

إن دل تخصيص الله عز وجل بتلك الأمور الغيبية بالخضر دون موسى عليه السلام مع أنه من أولي العزم من الرسل فإنما يدل على نبوة الخضر، ويؤيده سياق هذا الحديث حيث قال الله عز وجل « بلى عبدنا خضر ».

ومما يمكن أن نستأنس به في هذا الباب ماورد في المعجم الكبير للطبراني؛ عن أبي أمامة

(١) رواه البخاري (٤٣٣/٦)، ومسلم (١٤٤/١٥) من حديث ابن عباس.

(٢) رواه الحاكم وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٤٦٧).

(٣) سورة النمل ١٦

(٤) البخاري.الفتح (٤٣١/٦، ١٦٨/١)، وصحيح مسلم (١٨٥٣/٤).

الباهلي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدثكم عن الخضر » ؛ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ قال : « بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل أبصره رجل مكاتب فقال تصدق على بارك الله فيك . قال الخضر : آمنت بالله ما شاء الله من أمر يكن ما عندي من شيء أعطيكه فقال المسكين : أسألك بوجه الله لما تصدقت علي فأني نظرت السماحة في وجهك ورجوت البركة عندك فقال الخضر آمنت بالله ما عندي شيء أعطيكه إلا أن تأخذني فتبعني فقال المسكين : وهل يستقيم هذا فقال نعم الحق أقول لقد سألتني بأمر عظيم أما إني لا أخيك بوجه ربي يعني قال فقدمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم فمكث عند المشتري زمانا لا يستعمله في شيء فقال له إنك إنما اشتريتني التماس خير عندي فأوصني بعمل. قال: أكره أن أشق عليك إنك شيخ كبير ضعيف؛ قال: ليس يشق علي قال فقم فانقل هذه الحجارة وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم فخرج الرجل لبعض حاجته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة فقال: أحسنت وأجملت وأطقت ما لم أرك تطيقه. قال: ثم عرض للرجل سفر؛ فقال: إني أحسبك أمينا فاخلفني في أهلي خلافة حسنة. قال: نعم وأوصني بعمل. قال: إني أكره أن أشق عليك، قال: ليس يشق علي. قال: فاضرب من اللبن لبيتي حتى أقدم عليك، قال: ومر الرجل لسفره ثم رجع وقد شيد بناءه؛ فقال: أسألك بوجه الله ما سبيلك وما أمرك، قال: سألتني بوجه الله ووجه الله أوقعني في العبودية؛ فقال: الخضر سأخبرك من أنا أنا الخضر الذي سمعت به سألني مسكين صدقه فلم يكن عندي شيء أعطيه فسألني بوجه الله فمكنته من رقبتني فباعني وأخبرك أنه من سئل بوجه الله فرد سائله وهو يقدر وقف يوم القيامة وليس على وجهه جلد ولا لحم ولا عظم يتقعقع؛ فقال الرجل: آمنت بالله؛ شققت عليك يا نبي الله، ولم أعلم. قال: لا بأس أحسنت وأبقيت؛ فقال الرجل: بأبي وأمي يا نبي الله احكم في أهلي ومالي بما شئت أو اختر فأخلي سبيلك، قال أحب أن تخلي سبيلي فأعبد ربي. قال: فخلي سبيله. فقال: الخضر الحمد لله الذي أوثقني في العبودية ثم نجاني منها » .

قلت: وسند هذا الحديث حسن لولا عنعنة بقية ولو ثبت لكان نصا أن الخضر نبي لحكاية النبي ﷺ قول الرجل يا نبي الله وتقريره على ذلك. ^(١) والله أعلى وأعلم.

وقبل أن نشرع في رواية قصة موسى والخضر عليهما السلام؛ ننبه على مسألة يختلط

فهما على كثير ممن وقفوا على هذه القصة بالنظر والتأمل. تلك المسألة هي:

إذا كان الخضر عليه السلام قتل غلامًا وخرق سفينة وبنى جدارًا بغير أجر، فهل يجوز بعد تمام الرسالة المحمدية وختم الدين وإكمال الشرع؛ أن يأتي من يقول أنه ولي الله فيأت بأفعال وأعمال لم ترد في الشرع، ولم تنزل في كتاب الله؟

أقول والله أعلم: أن دين الإسلام دين البشرية أجمعها، بل ودين الجن أيضًا؛ لأن الرسول محمدًا ﷺ أرسل للثقلين الأنس والجن، وشريعته كاملة تامة، ولو كان الخضر حيًا بين الناس عند بعثة الرسول ﷺ، ما كان وسعه غير أن يتبعه ويسير خلفه، مقتديًا أثره وملزمًا هديه.

ونقل هنا كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. يوضح هذا الأمر ويحليه فيقول رحمه الله:

فلفظ «الشرع، والشرعة» إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقًا إلى الله، غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا فلم يتابعه باطنًا وظاهرًا فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غلطًا من وجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه؛ فإن موسى كان مبعوثًا إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم، وموسى، وعيسى وجب عليهم اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبيًا أو وليًا؛ ولهذا قال الخضر لموسى: «أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه» وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفًا لشرعية موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفًا من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيرًا، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله. قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان - قال له: إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم. رواه البخاري. وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض

والصبر على الجوع، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفاً شرع الله.
وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عادلاً، وقد يكون صواباً
وقد يكون خطأ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه: كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس
والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم، فهؤلاء أقوالهم يحتاج
لها بالكتاب والسنة، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً أي ليس اتباع أحدهم واجباً
على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير
علم.

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة، أو تأول النصوص
بخلاف مراد الله ونحو ذلك؛ فهذا من نوع التبديل، فيجب الفرق بين الشرع المنزل،
والشرع المؤول، والشرع المبدل، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية،
وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة، وبين ما يكفي فيها بذوق صاحبها ووجدته.^(١)
ولاشك أن الشرح السابق قد بين أن الشرع ليس بالكتاب المفتوح الذي يزيد فيه أو
ينقص من أراد ذلك بدعوى الولاية أو الإلهام - إن لم يقل وحياً - عياداً بالله!



(١) مجموع الفتاوى. فصل أجمع السلف والاولياء على أن الأنبياء أفضل من الأولياء. (٢١٨/١١).

ونبدأ القصة

قَامَ مُوسَى خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: أَنَا فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمُ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ وَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ تَأْخُذْ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلْهُ بِمَكْتَلٍ فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثُمَّ. فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلْهُ بِمَكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ.

كان لموسى عليه السلام هدف من رحلته هذه التي اعتمرها، وانه كان يقصد من ورائها امرا، فهو يعلن عن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول. فيعبر عن هذا التصميم قائلا: (أَوْ أَمْضِي حُقُبًا).

ونرى أن القرآن الكريم لا يحدد لنا المكان الذي وقت فيه الحوادث، ولا يحدد لنا التاريخ، كما أنه لم يصرح بالأسماء. ولم يبين ماهية العبد الصالح الذي التقاه موسى، هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟

ولكن مضى موسى وفتاه حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المَكْتَلِ فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سَرَبًا.

واختلف المفسرون في تحديد المكان، ف قيل إنه بحر فارس والروم، وقيل بل بحر الأردن أو القلزم، وقيل عند طنجة، وقيل في أفريقيا، وقيل هو بحر الأندلس.. ولا يقوم الدليل على صحة مكان من هذه الأمكنة، ولو كان تحديد المكان مطلوباً لحدده الله تعالى.. وإنما أهم السياق القرآني المكان، كما أنهم تحديد الزمان، كما ضُيِبَ أسماء الأشخاص لحكمة عليا. وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ قَالَ لَفَتَاهُ أَتَنَا غَدًا نَآ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ﴿ قَالَ ﴾ له فتاه: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ فكان للحوت سَرَبًا ولموسى ولفته عَجَبًا ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ ، قَالَ فَرَجَعَا يَقْصَصَانِ أَثَرَهُمَا حَتَّى اتَّهَيَّا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِذَا رَجُلٌ مُسْحًى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَقَالَ الْخَضِرُ: وَإِنِّي بِأَرْضِكَ السَّلام، قَالَ أَنَا

موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿١﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٢﴾ يَا مُوسَى إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمْنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكِهِ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ.

لقد خص الله تعالى نبيه الكريم موسى عليه السلام بأمور كثيرة. فهو كليم الله عز وجل، وأحد أولي العزم من الرسل، وصاحب معجزة العصا واليد، والنبي الذي أنزلت عليه التوراة دون واسطة، وإنما كلمه الله تكليماً.. هذا النبي العظيم يتحول في القصة إلى طالب علم متواضع يحتمل أستاذه ليتعلم.. ومن يكون معلمه غير هذا العبد الذي يتجاوز السياق القرآني اسمه، وإن حدثتنا السنة المطهرة أنه هو الخضر - عليه السلام - كما حدثتنا أن الفتى هو يوشع بن نون، ويسير موسى مع العبد الذي يتلقى علمه من الله بغير أسباب التلقي التي نعرفها.

ومع منزلة موسى العظيمة إلا أن الخضر يرفض صحبة موسى.. يفهمه أنه لن يستطيع معه صبراً.. ثم يوافق على صحبته بشرط.. ألا يسأله موسى عن شيء حتى يحدثه الخضر عنه. ونبقى في السياق؛ ففي رواية عن قتادة قوله: أن نبي الله موسى لما قطع البحر وأنجاه الله من آل فرعون جمع بني إسرائيل فخطبهم فقال أتم خير أهل الأرض وأعلمهم قد أهلك الله عدوكم وأقطعكم البحر وأنزل عليكم التوراة؛ فقيل له إن ها هنا رجلاً هو أعلم منك قال فانطلق هو وفتاه يوشع بن نون يطلبانه فتزودا مملوحة في مكثل لهما وقيل لهما إذا نسيتما ما معكما لقيتما رجلاً عالماً يقال له الخضر فلما أتيا ذلك المكان رد الله إلى الحوت روحه فسرّب له من الجد حتى أفضى إلى البحر ثم سلك فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً، ومضى موسى وفتاه.

ويظهر عزم موسى عليه السلام على العثور على هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر إلى أن يسير أحقاباً وأحقاباً. قيل أن الحقب عام، وقيل ثمانون عاماً. على أية حال فهو تعبير عن التصميم، لا عن المدة على وجه التحديد.

وصل الاثنان إلى صخرة جوار البحر.. رقد موسى واستسلم للنعاس، وبقي الفتى ساهراً.. وألقت الرياح إحدى الأمواج على الشاطئ فأصاب الحوت رذاذ فدبت فيه الحياة وقفز إلى البحر.. ﴿٣﴾ فَأَخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٤﴾ .. وكان تسرب الحوت إلى البحر علامة

أعلم الله بها موسى لتحديد مكان لقائه بالرجل الحكيم الذي جاء موسى يتعلم منه.

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ أن الحوت تسرب إلى البحر.. ونسي فتاه الذي يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت.. وسار موسى مع فتاه بقية يومهما وليلتهما وقد نسيا حوقهما.. ثم تذكر موسى غداؤه وحل عليه التعب.. ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .. ولمع في ذهن الفتى ما وقع. ساعته تذكر الفتى كيف تسرب الحوت إلى البحر هناك.. وأخبر موسى بما وقع، واعتذر إليه بأن الشيطان أنساه أن يذكر له ما وقع، رغم غرابة ما وقع، فقد اتخذ الحوت ﴿ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .. كان أمرا عجيبا ما رآه يوشع بن نون، لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال.

سعد موسى من مروق الحوت إلى البحر و ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ .. هذا ما كنا نريده.. إن تسرب الحوت يحدد المكان الذي سنلتقي فيه بالرجل العالم.. ويرتد موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين.. انظر إلى بداية القصة، وكيف تجيء غامضة أشد الغموض، مبهمة أعظم الإبهام.

يقول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ فلقيا رجلا عالما يقال له الخضر فذكر لنا أن نبي الله قال إنما سمي الخضر خضرا لأنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت به خضراء. يقول البخاري إن موسى وفتاه وجدا الخضر مسجى بثوبه.. وقد جعل طرفه تحت رجليه وطرف تحت رأسه.

فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضك سلام..؟ من أنت؟ قال موسى: أنا موسى.

قال الخضر: موسى بني إسرائيل.. عليك السلام يا بني إسرائيل.

قال موسى: وما أدراك بي..؟

قال الخضر: الذي أدراك بي وذلك علي.. ماذا تريد يا موسى..؟

قال موسى ملاطفا مبالغا في التوقير: ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا غُلْمًا

رُشْدًا ﴾ .

قال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيدك.. وأن الوحي يأتيك؟.. يا موسى ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ .

وتتابعت الشروط التي اشترطها الخضر على موسى وقبول موسى عليه السلام. وهنا نقف عند رواية أخرى. بمزيد دلالات.

في رواية للطبري عن ابن عباس قال:

« سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال أي رب أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأبي عبادك أفضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال أي رب أي عبادك أعلم قال الذي يتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال رب فهل في الأرض أحد قال أبو جعفر أظنه قال أعلم مني قال نعم قال رب فمن هو قال الخضر قال وأين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت قال فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكره الله عز وجل وانتهى موسى إليه عند الصخرة فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى إني أريد أن تستصحبني قال لن تطيق صحبتي قال بلى قال فإن صحبتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلِقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلّمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول .

فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿قال: وقال رسول الله ﷺ: « وَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسْيَانًا » قال: « وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرّة، فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر » . ثم خرجا من السفينة فينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿قال وهذه أشد من الأولى﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا

فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوْجَدًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴿١﴾ قَالَ مَائِلٌ فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ: ﴿٢﴾ فَأَقَامَهُ ﴿٣﴾ فَقَالَ مُوسَى قَوْمِ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا وَلَمْ يَضَيِّفُونَا ﴿٤﴾ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٥﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « وَدَدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقْصُصَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا » .

ووردت القصة ببعض الزيادات كما يلي:

قال ابن عباس: قام موسى رسول الله ﷺ في الناس يوماً حَتَّى إِذَا فَاضَتْ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ وَلَّى فَأَذْرَكَ رَجُلٌ فَقَالَ أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: لَا؛ فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ. قِيلَ: بَلَى قَالَ: أَيُّ رَبٍّ فَأَيْنَ؟ قَالَ: بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ قَالَ: أَيُّ رَبٍّ أَجْعَلُ لِي عِلْمًا، أَعْلَمُ ذَلِكَ بِهِ. قَالَ: حَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحَوْتُ، قَالَ: خِذْ حَوْتًا مَيْتًا حَيْثُ يَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَأَخِذْ حَوْتًا فَجَعَلَهُ فِي مَكْتَلٍ، فَقَالَ لِفَتَاهُ لَا أَكْلَفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحَوْتُ، قَالَ: مَا كَلَفْتُ كَبِيرًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴿٢﴾ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرِيانٍ إِذْ تَضَرَّبَ الْحَوْتُ وَمُوسَى نَائِمٌ، فَقَالَ فَتَاهُ لَا أَوْقِظْهُ. حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرَهُ، وَتَضَرَّبَ الْحَوْتُ حَتَّى دَخَلَ الْبَحْرَ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَةَ الْبَحْرِ حَتَّى كَانَهُ أَثَرُهُ فِي حَجَرٍ. قَالَ: ﴿٣﴾ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٤﴾. قَالَ: وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ عَنْكَ النَّصَبَ فَرَجَعَا فَوْجَدًا خَضِرًا. قَالَ لِي عُثْمَانُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ عَلَى طَنْفَسَةِ خَضِرَاءَ عَلَى كَبِدِ الْبَحْرِ قَالَ سَعِيدٌ مَسْجَى بَثْوِهِ قَدْ جَعَلَ طَرَفَهُ تَحْتَ رِجْلَيْهِ، وَطَرَفَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ بَارِضٌ مِنْ سَلَامٍ مِنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: جِئْتُكَ ﴿٥﴾ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا ﴿٦﴾ قَالَ أَمَا يَكْفِيكَ أَنْ التُّورَةَ بِيَدَيْكَ وَأَنْ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ يَا مُوسَى، إِنْ لِي عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، وَإِنْ لَكَ عِلْمًا لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْلَمَهُ، فَأَخِذْ طَائِرَ مِمَّنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَلِمِي وَعِلْمُكَ فِي جَنْبِ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِرُ مِمَّنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ ﴿٧﴾ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴿٨﴾ وَجَدَا مَعَابِرَ صَغَارًا تَحْمِلُ أَهْلَ هَذَا السَّاحِلِ إِلَى أَهْلِ هَذَا السَّاحِلِ الْآخَرَ عَرَفُوهُ، فَقَالُوا عَبْدُ اللَّهِ الصَّالِحُ. قَالَ: فَقُلْنَا لِسَعِيدٍ: (خَضِرُ) قَالَ: نَعَمْ. لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ ﴿٩﴾ فَخَرَقَهَا ﴿١٠﴾ وَوَتَدَ فِيهَا وَتَدًا ﴿١١﴾ قَالَ ﴿١٢﴾ مُوسَى ﴿١٣﴾ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا

﴿ قَالَ مُجَاهِدٌ: مَنَكَرًا ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ كانت الأولى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا ﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ .

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ قال: وجد غلامًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا ظريفًا فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، والغلام المقتول يزعمون أن اسمه: جيسور ﴿ قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ لم تعمل بالخبث. ابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلامًا زكيًا ﴿ فَأَنْطَلَقَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴾ قال بيده هكذا ورفع يده فاستقام، ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أجرًا نأكله.

وهنا حصل الفراق بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام .

فقد حذر الخضرُ موسى من مغبة السؤال . وجاء دور التفسير الآن ..

إن كل تصرفات العبد الرباني التي أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره .. كان ينفذ إرادة عليا .. وكانت لهذه الإرادة العليا حكمتها الخافية، وكانت التصرفات تشي بالقسوة الظاهرة، بينما تخفي حقيقتها رحمة حانية .. وهكذا تخفي الكوارث أحيانًا في الدنيا جوهر الرحمة، وترتدي النعم ثياب المصائب، وهكذا يتناقض ظاهر الأمر وباطنه، ولا يعلم موسى، رغم علمه الهائل غير قطرة من علم الخضر، ولا يعلم الخضر من علم الله إلا بمقدار ما يأخذ العصفور الذي يبيل منقاره في البحر، من ماء البحر ..

وهنا كشف الخضر لموسى شيئين في الوقت نفسه .. كشف له أن علمه - أي علم موسى - محدود .. كما كشف له أن كثيرا من المصائب التي تقع على الأرض تخفي في ردها الأسود الكتيب رحمة عظمى (والله أعلم ولا أنتم لا تعلمون) .

إن أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءهم، بينما هي نعمة تتخفى في زي المصيبة .. نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها إلا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبا، ثم يفلت هذه السفينة التالفة المعيبة .. وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو، فلا يموتون جوعا .

أيضًا سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البريء .. غير أن موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى، فإن الله سيعطيها بدلًا منه غلاما

يرعاهما في شيخوختهما ولا يرهقهما طغيانا وكفرا كالغلام المقتول.

وهكذا تختفي النعمة في ثياب المحنة، وترتدي الرحمة قناع الكارثة، ويختلف ظاهر الأشياء عن باطنها حتى ليحتج نبي الله موسى على تصرف يجري أمامه، ثم يستلفته عبد من عباد الله إلى حكمة التصرف ومغزاه ورحمة الله الكلية التي يخفيها سبحانه، ولا تبدو لكثير من الخلق.

أما الجدار الذي أتعب نفسه بإقامته، من غير أن يطلب أجراً من أهل القرية، كان يخبيئ تحته كنزاً لغلّامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلا يستطيع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته.

ثم يزيد الخضر الأمر بيّناً وتوضيحاً؛ بأن الأمر كله إنما هو رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف. وهو أمر الله لا أمر الخضر. فقد أطلعه على الغيب في هذه المسألة وفيما قبلها، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه.

واختفى هذا العبد الصالح.. لقد مضى في المجهول كما خرج من المجهول.. إلا أن موسى تعلم من صحبته درسين مهمين:

تعلم ألا يغتر بعلمه في الشريعة، فهناك علم الحقيقة.

وتعلم ألا يتجهّم قلبه لمصائب البشر، فرمما تكون يد الرحمة الخالقة تخفي سرها من اللطف والإنقاذ، والإيناس وراء أقنعة الحزن والآلام والموت.

هذه هي الدروس التي تعلمها موسى كليم الله عز وجل ورسوله من هذا الخضر عليه السلام.

وهنا نورد رواية مشاهمة؛ فإنه لما أنبأ الخضر موسى عن سبب خرقه للسفينة؛ فقد كان أمامهم ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ ملك يزعمون أن اسمه: هدد بن بدد، ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فإذا هي مرّت به يدعها بعبعها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها. منهم من يقول سدّوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار؛ وأما الغلام الذي قتله الخضر ﴿كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وكان كافراً ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي يحملهما حبّه على أن يتابعاه على

دينه ﴿فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قال السُّهَيْلِيُّ وهما أَصْرَمُ وَصَرِيمُ ابْنَا كَاشِحٍ . ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال عِكْرَمَةُ: كان ذهبًا. قال ابن عباس: علمًا، والأشبه أنه كان لوحًا من ذهب، مكتوبًا فيه علم.

روى البزار بسنده عن أبي ذرٍّ قال: إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من الذهب مصمت مكتوب عليه : عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وقد قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته فالله المستعان. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ دليل على أنه كان نبيًا، وأنه ما فعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه فهو نبي.



هل الخضر حي أم ميت؟

إن الكلام عن بقاء الخضر عليه السلام حيًا أمر شائع عند العوام والخواص، وهناك من يقول أنه مات ولم يبق له أثر بعد كلیم الله موسى عليه السلام، وساق هذا حججه وساق آخر حججه، ونقف في هذا الكتاب على الأرجح من الأحاديث، وأقوال أهل العلم، سائلين المولى عز وجل أن يرزقنا الصواب فيما بلغناه من تلك الروايات؛ التي تحتاج إلى استزاده ممن أراد المزيد.



آراء القائلين باستمرار حياته

وردت طائفة كبيرة من الأخبار والحكايات، تحتوي على لقاءات (الصالحين) معه، وزياراتهم إياه في الفلوات والبراري، والأودية والصحاري؛ وعلى رحلاته وتنقلاته من بلد إلى بلد، وأحاديثه مع الناس، وبذله النصيح لهم، وتعليمه الأدعية إياهم وما شاكل ذلك.

قال النووي: اختلفوا في حياة الخضر ونبوته. قال الأكثرون من العلماء: هو حي موجود بين أظهرنا ^(١)، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء الصالحين والعامة منهم، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين ^(٢)..

وأنشد السيوطي في جوابه مسألة عن الخضر:

للناس خلف شاه في الخضر	وهل أودى قديماً أوحى ببقاء
ولكل قول حجة مشهورة	تسمو على الجوزاء في العلياء
والمرتضى قول الحياة فكم له	حجج تجل الدهر عن إحصاء
خضر وإلياس بأرض مثل ما	عيسى وأدريس بقوا بسماء ^(٣)
هذا جواب ابن السيوطي الذي	يرجو من الرحمن خير جزاء ^(٤)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نسى للخضر في أجله حتى يكذب الدجال. وهذا الحديث في سنده ثلاث علل متوالية، فهو باطل لا يقوم عليه احتجاج ولا يمكن الاستعانة به في الاستدلال.

ذكر رواية عن حياة الخضر في زمان رسول الله ﷺ.

استدل بعضهم على حياة الخضر في زمان رسول الله ﷺ؛ بما أخرجه ابن عساكر بسنده عن أنس قال:

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/١٧٦).

(٢) فتاوى ابن الصلاح (٢٨).

(٣) روي بسند ضعيف (أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء: عيسى وأدريس؛ واثنان في الأرض: الخضر وإلياس).

(٤) الحاوي للفتاوى (٢/١٣٩).

(خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة لحاجة فخرجت خلفه فسمعنا قائلاً يقول: « اللهم إني أسألك شوق الصادقين إلى ما شوقتهم إليه » فقال رسول الله ﷺ: « يا لها دعوة لو أضاف إليها أختها » ؛ فسمعنا القائل وهو يقول: « اللهم إني أسألك أن تعينني بما ينجي مني مما خوفتني منه » ؛ فقال رسول الله ﷺ: « وجبت ورب الكعبة يا أنس انت الرجل فاسأله أن يدعو لرسول الله ﷺ أن يرزقه الله القبول من أمته والمعونة على ما جاء به من الحق والتصديق » .

قال أنس: فأتيت الرجل فقلت يا عبدالله ادع لرسول الله . فقال لي ومن أنت فكرهت أن أخبره ولم أستأذن وأبي أن يدعو حتى أخبره فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته؛ فقال لي: « أخبره » فرجعت . فقلت له: أنا رسول رسول الله ﷺ إليك .

فقال مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ فدعا له وقال : اقرأه مني السلام وقل له : أنا أخوك الخضر وأنا كنت أحق أن أتيك قال : فلما وليت سمعته يقول : « اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها » ^(١) . والحديث ضعيف؛ تكلم فيه أهل العلم.



ذكر رواية عن بقاء الخضر بعد زمان رسول الله ﷺ

قال الفاكهي في كتاب مكة: حدثنا الزبير بن بكار حدثني حمزة بن عتبة حدثني محمد ابن عمران عن جعفر بن محمد بن علي هو الصادق بن الباقر قال كنت مع أبي بمكة في ليالي العشر وأبي قائم يصلي في الحجر؛ فدخل عليه رجل أبيض الرأس واللحية شثن الآراب فجلس إلى جنب أبي فخفف؛ فقال: إني جئتك يرحمك الله تخبرني عن أول خلق هذا البيت. قال: ومن أنت.

قال: أنا رجل من أهل هذا المغرب.

قال: إن أول خلق هذا البيت أن الله لما رد عليه الملائكة حيث قالوا أجبنا فيها من يفسد فيها غضب فطافوا بعرشه فاعتذروا فرضي عنهم وقال اجعلوا لي في الأرض بيتا يطوف به من عبادي من غضبت عليه فأرضى عنه كما رضيت عنكم.

فقال له: الرجل إي يرحمك الله ما بقي من أهل زمانك أعلم منك ثم ولى.

فقال لي أبي أدرك الرجل فردّه علي قال: فخرجت وأنا أنظر إليه فلما بلغ باب الصفا مثل فكأنه لم يك شيئاً فأخبرت أبي. فقال: تدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا الخضر.

والحديث لم يصح نسبته للباقر رحمه الله.

وهناك ادعاءات كثيرة عن رؤية الخضر قد سمعت بعضها، والآخر وقفت عليه في مصنفات عدة، ويمكن تلخيص تلك الادعاءات فيما يلي:

- ١- الخضر بنفسه يقول لمن رآه: أنا الخضر.
- ٢- رؤيا بعض الناس لشخص مجهول، فغاب، فكانوا يرون أنه الخضر.
- ٣- رأى الرجل المدعي للقاء الخضر رجلاً فظنه، أو خيل له، أو وقع في نفسه أنه الخضر.

٤- رؤيا بعض الناس لمجهول ذات صفات خاصة؛ فظنوا أنه الخضر.

٥- رؤيا بعض الناس لشخص في المنام يخبرهم أنه الخضر ثم يرونه في الحقيقة؛ فيسلموا

بأن هذا هو الخضر.

و بمجرد أدنى تفكير في سياق ما سبق؛ ينكشف زيف تلك الأقوال، وضعف أساليبها، وعدم دلالتها على المعنى المقصود، وهو استمرار حياته؛ وبالتالي تتبخر ادعاءات من قال بلقاءه للخضر أو زيارته له في الأودية والصحاري والجبال، وقد فند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تلك الادعاءات فقال:

« وعامة ما يحكى في هذا الباب من الحكايات: بعضها كذب، وبعضها بني على ظن رجل؛ مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر. وقال: إنه الخضر، كما أن الرافضة ترى شخصاً تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم، أو تدعي ذلك » ^(١).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: « فوا عجباً! ألهم فيه علامة يعرفون بها؟ وهل يجوز لعاقل أن يلقي شخصاً، فيقول له الشخص: أنا الخضر؛ فيصدقه؟ » ^(٢).

هذا وقد أنكر جماعة من أهل العلم على من قال ببقاء الخضر حياً؛ وقطعوا بموته كبقية الأنبياء والصالحين، فمن الذين قالوا بهذا: الإمام البخاري، وابن قيم الجوزية، وأبو يعلى الحنبلي، وأبو الحسين بن المنادي، وإبراهيم الحربي، وأبو بكر بن العربي، وشرف الدين أبو عبد الله المرسى، وأبو بكر النقاش، وأبو طاهر العبادي، وأبو الفضل بن ناصر، وغيرهم مما لا يتسع المقام لبيان أسماءهم جميعاً.



(١) مجموع الفتاوى (١٠١/٢٧).

(٢) الموضوعات لابن الجوزي (١٩٧/١).

قول ابن كثير في موت الخضر

أخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء، وينصره، فلو كان الخضر حيًّا في زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكات، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيًّا وهو الحق أو رسولاً كما قيل، أو ملكاً فيما ذكر، وأياً ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حيًّا لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته، فكيف إن كان الخضر وليًّا كما يقوله طوائف كثيرون، فأولى أن يدخل في عموم البعثة، وأخرى. ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله ﷺ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التعزية فيه، وإن كان الحاكم قد رواه، فإسناده ضعيف والله أعلم.

وحديث التعزية رواه ابن ماجه؛ قال: حدثنا الوليد بن عمرو بن السكين، ثنا أبو همام وهو محمد بن الزبرقان الأهوازي، ثنا موسى بن عبيدة، ثنا مصعب بن محمد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة. قالت: فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس - أو كشف ستراً - فإذا الناس يصلون وراء أبي بكر، فحمد الله على ما رأى من حسن حالهم رجاء أن يخلفه فيهم بالذي رأهم.

فقال: «يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعرّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإنَّ أحداً من أمي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبي» تفرد به ابن ماجه.

وقال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، ثنا شافع بن محمد، ثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوي، ثنا المزني، ثنا الشافعي عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص، عن جعفر بن محمد، عن أبيه: أن رجلاً من قريش دخلوا على أبيه علي بن الحسين. فقال: ألا أحدثكم عن رسول الله؟ قالوا: بلى فحدثنا عن أبي القاسم. قال: لما أن مرض رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك تكريماً لك وتشريفاً لك، وخاصة لك، أسألك عما هو أعلم به منك، يقول: كيف تجدك؟ قال: «أجدني يا جبريل مغموماً،

وأجدي يا جبريل مكروبا » ثم جاءه اليوم الثاني فقال له ذلك، فرد عليه النبي كما ردّ أول يوم، ثم جاءه اليوم الثالث فقال له كما قال أول يوم ورد عليه كما ردّ، وجاء معه ملك يقال له إسماعيل على مائة ألف ملك كل ملك على مائة ألف ملك، فاستأذن عليه فسأل عنه، ثم قال جبريل: هذا ملك الموت يستأذن عليك ما استأذن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك فقال عليه السلام: « إيذن له » ، فأذن له فدخل فسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله أرسلني إليك فإن أمرتني أن أقبض روحك قبضت، وإن أمرتني أن أتركه تركته.

فقال رسول الله ﷺ: « أو تفعل يا ملك الموت؟ » قال: نعم وبذلك أمرت، وأمرت أن أطيعك.

قال فنظر النبي إلى جبريل فقال له جبريل: يا محمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال رسول الله للملك الموت: « امض لما أمرت به » فقبض روحه .

فلما توفي النبي وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت؛ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله فتقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب.

فقال علي رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام . وهذا الحديث مرسلًا، وفي إسناده ضعف.

ونستخلص من الروايات والأحاديث ومن جل ماسبق أن الخضر كان نبياً، وأنه لم يدرك محمداً ﷺ، وأنه كان سبباً في تعليم موسى عليه السلام؛ ليعلم أن هناك من هو أعلم منه من البشر، وليعلم أن الله سبحانه يجتبي من يشاء من عباده، وفوق كل ذي علم عليم.

(والحمد لله رب العالمين)

بعض الفوائد المنتقاة من قصة موسى والخضر

❖ الله أعلم حيث يجعل رسالاته:

كانت قصة الخضر مع موسى امتحاناً لموسى ليعتبر، وليتعض بعده كل إنسان قد تعلم علماً؛ أو أوتي فهماً. فالعلم المطلق لا ينبغي إلا لله سبحانه وتعالى، فجميع البشر إنما يرزقون العلم بقدر وحصر، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد صح عن نبينا محمد ﷺ أنه كان يفوض العلم لله سبحانه وتعالى الذي له علم الغيب وعلم الشهادة؛ فقد ورد من دعائه عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللهم إني عَبْدُكَ وابن عبدك وابن أمتِكَ في قبضتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همِّي وغمِّي».

يدعو عليه الصلاة والسلام ربه بأسماءه التي تعلمها الرسول ﷺ من ربه، ويدعوه بأسماءه التي لم يعلمها له ربه جل وعلا فيقول: «أو علَّمته أحدًا من خلقك» أي اسم لم يعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام، وعَلَّمَهُ غيره من عباد الله الذين لا يعلمهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا من الأدب الذي تعلمه رسول الله ﷺ؛ وصدق ربه حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الآية.

فادعاء العلم الكامل التام الذي لا علم بعده، أمر لم يرضه الله سبحانه ولو كان من كليمة، ورسوله موسى عليه السلام؛ فما بالناس ممن هم دونه من البشر الذين إذا أوتوا نصيباً من العلم الدنيوي الزهيد؛ تجده يغتر بعقله، ويستبد برأيه، وينصب ميزان الحلال والحرام بهواه، راكباً في ذلك كلمات منمقة وأقوال مزركشة يلوي أعناق الحروف ويتشدد بما لا يعي، وكأنه فاق الأنبياء علماً ورزق مما لم يفهم فهماً.

فحري بمثل هذا أن يُزجر، وإن تكلم يُعذَّر، وإن تقدم يؤخر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❖ التأويل يجب أن يكون بعلم:

الناظر في كيفية تأويل الخضر عليه السلام لأسباب أفعاله التي بدت لموسى على أنها أفعال غير مقبولة؛ ليلحظ أن الخضر أحال ما فعله لعلم الله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ ؛ أما ما يقوم به بعض أصحاب الخزعبلات من تأويل أعمالهم التي لا أصل لها في الشرع، ولا مرجع لها في الدين؛ فيقولون: هذا علم قد أوتيته، وهو علم من الشيطان لا من الرحمن، وقد ورد عن الإمام الشافعي رحمه الله قوله: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

فيجب الانتباه لمثل تلك الخزعبلات التي يأتي بها أصحاب الشعوذة والدجل؛ كما ننبه على مسألة تأويل الرؤى والمنامات التي أصبح كل من هب ودب يدلي فيها بدلوه، ويفسرها بهواه، وبجهالة تدع الحليم حيران؛ فيستخف بعقول السذج، ويلهو بعقول من لا علم له ولا فطنة.

❖ الأدب في طلب العلم:

لما قصد موسى الخضر عليهما السلام طلباً للعلم؛ اشترط الخضر على موسى أموراً يجدر بنا الوقوف عليها: فقد اشترط الخضر على موسى أن يتبعه دون أن يسأله ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وهذا أمر بالنسبة لطلبة العلم قد يبدو صعباً لأن غالب حال طلبة العلم هو السؤال؛ فبالسؤال يتم التعلم، ولكن إذا طلب المعلم من المتعلم الصمت؛ وجب عليه ذلك احتراماً للمعلم وتوقيراً له.



قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِذْ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَلَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ الْآيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

[مریم: ٥١ - ٥٣].

بعد أن علما من قصة يوسف عليه السلام كيف مكّن الله له ، وكيف جاء بأهله إلى مصر؛ جاء دور موسى عليه السلام؛ فقد دخل يعقوب عليه السلام - وهو المسمى بإسرائيل - مصر مع بنيه بطلب من ولده يوسف عليه السلام حين ولي وزارة مصر، وكانوا أفرادا معدودين، فأواهم يوسف عليه السلام وقال لهم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾

[يوسف: ٩٩].

ولمكانة يوسف عند الملك أكرم الملك أبويه وإخوانه وأهله، وأحسن مثواهم ومكّن له في الأرض، حتى ولاهم مناصب عالية فيها.

ولأن قصة موسى عليه السلام من القصص التي اشتهرت في القرآن الكريم، وبسطها الله في كتابه؛ لهذا سنبداً هذه القصة بملخص لها ثم نسردها بشيء من التفصيل، والله المستعان.



ملخص القصة

مضت السنون بعد ذهاب يعقوب عليه السلام بأهله إلى مصر، ونزوله بها على وجه من وجوه التمكين؛ فكثر بنو إسرائيل في مصر وزاد عددهم، وبدأ الفراعنة يحسدوهم على ما وصلوا إليه في البلاد من مناصب مع غربتهم، ويقلقون بسبب وجود بني إسرائيل في مصر، فأخذوا يعزلونهم عن المناصب والولايات.

وحدث أن رأى فرعون رؤى، فسرت له بأن هلاكه وذهاب ملكه سيكون على يد غلام يولد من بني إسرائيل، فاستشاط غضبا، وأصدر أوامره بذبح كل مولود ذكر من بني إسرائيل، وأخذ يستخدم كبار رجالهم ونسائهم في الأعمال الشاقة وفي ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ولكن الله تعالى يريد غير ما يريد فرعون، ويقدر غير ما يقدر الطاغية، والظغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم فينسبون إرادة الله تعالى وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون، ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون. والله يعلن إرادته، ويكشف عن تقديره، ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتىلا: ﴿وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿[القصص: ٥-٦].

ويولد موسى عليه السلام في هذه الظروف، والخطر محقق به، والموت يتلفت عليه، وتحتار أمه، وترجف خشية أن تتناول عنقه السكين، ويوحى إليها ربها: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩].

وهذا منتهى التحدي

لقد أعلنت الطوارئ، وصدرت الأوامر بذبح المواليد المساكين، تخوفاً من واحد سيكون هلاك فرعون على يده، وإذا بالقدرة الإلهية تحمل هذا الغلام نفسه إلى فرعون، مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد، وكأنها تقول له: يا فرعون! لا تتعب نفسك في البحث عن هذا الغلام الذي سيكون ذهاب ملكك على يده، فهذا هو بين يديك، فإن كان لك كيد أو تدبير فاصنع ما تريد.

وإذا بفرعون نفسه يبحث لموسى عن المراضع، ويأتيه بهن واحدة بعد الأخرى حتى آل إلى أمه ﴿كَيِّ تَقْرَ عَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

ويربى موسى في قصر فرعون تحت رعايته وإشرافه، وفرعون يوفر له كل احتياجاته ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]. وتنتهي مدة الرضاع وفترة الصبي، ويبلغ موسى أشده، ويستوي عوده، ويكتمل نضجه العضوي والعقلي، فيؤتيه الله حكماً وعِلْماً، وبينما موسى يتجول في المدينة في وقت الظهيرة حين تغفوا العيون ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

فأجمعوا أمرهم ليقتلنه، فنصحه ناصح بالخروج من البلاد ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

حتى دخل مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْحَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي

ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿ [القصص: ٢٣-٢٨].

وقضى موسى أبر الأجلين وأوفاهما، ثم استأذن صهره في الرجوع إلى مصر! مصر التي قتل فيها رجلا بالأمس! مصر التي خرج منها خائفا يترقب! ترى هل نسي ما كان منه؟ هل نسي أن لهم عنده ثأرا؟ إنها إرادة الله! إنه القدر الذي ذكر به الله موسى حين قال له: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٤٠].

وفي الطريق اشتد البرد، وفقد النار، وضل الطريق، وبينما هو في هذه الظروف القاسية ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠].

فأتى موسى هذه النار فإذا هي نور عظيم، وعندها خير كثير: ﴿ فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١١-١٤].

وهذا نبي موسى، وأرسل حين قال له ربه: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٤]. وموسى يعرف من هو فرعون فسأل الله العون: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾ [طه: ٢٥-٣٠].

فقال الله له: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

ويأخذ موسى أخاه هارون ويتوجهان إلى فرعون، ويبدأ موسى الكلام فيقول لفرعون: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦].

هكذا من أول لحظة، ليشعر فرعون أنه ليس ربا ولا إلهًا، وأنه مربوب لرب العالمين الذي يجب أن يتخذها إلهًا يعبد.

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى الضخمة: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].
فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا في قصره منذ أن التقطوا تابوته، وأنه هرب بعد قتله للقبطي. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهها بما بعد عشر سنين، ومن ثم بدأ فرعون متهمكا مستهزئا مستعجبا: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا؟ بأن تأتي اليوم لتخالف ديننا ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره؟! ولقد قتلت نفسا بالأمس وأنت من الكافرين برب العالمين الذي تقول به اليوم؟! فما الذي حدث؟! ويرد موسى في ثبات وثقة وطلاقة لسان: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٠-٢٢].

وعندئذ عدل فرعون عن هذه المسألة، وراح يسأله عن صميم دعواه، ولكن في تجاهل وهزء وسوء أدب في حق الله الكريم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣٠].

فسقط في يده، ورأى أنه لا بد أن يستمع لبرهانه، فطلب منه أن يأتي بالدليل: ﴿قَالَ قَاتِلْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

وأحس فرعون بضخامة المعجزة وقوتها، فأسرع يقاومها ويدفعها وهو يحس ضعف موقفه، ويكاد يتملق الملائ من حوله، ويهيج مخاوفهم من موسى وقوله، ليغطي على وقع

المعجزة المزلزلة: ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

فأشاروا عليه أن يأخذ من موسى موعداً يجتمع فيه السحرة من كل مكان، ويقابلون سحر موسى بسحرهم، فمن غلب اتبعوه، والأمر مفصول فيه أن السحرة هم الغالبون، فخبب الله سعيهم، وأبطل كيدهم، وجعل نبيه موسى هو الأعلى: ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴾ [الشعراء: ٤٦-٤٨].

فجن جنون فرعون وأخذ يهدد ويتوعد، ولكن بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب لم يعبأ بأية تهديد، ولذا قال المؤمنون كلمتهم بكل جرأة وثبات: ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٠].

لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصليب والتعذيب، لا ضير في الموت والاستشهاد، لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون، وليكن في هذه الأرض ما يكون، فالمطمع الذي تتعلق به ونرجوه أن يغفر لنا ربنا خطايانا جزاء أن كنا أول المؤمنين.

وهنا تدخل الملائة أهل الأهواء والمصالح والمطامع، تدخلوا ليهيجوا فرعون على موسى ومن معه، ويخوفونه عاقبة التهاون في أمرهم، فطمأنهم فرعون بأنه سيحكم القبضة، ويعيد العمل بقانون الطوارئ، فيقتل الذكران ويستحي النساء.

وأخذ موسى يعظ قومه وينصحهم بالصبر حتى يأتي أمر الله، ف ﴿ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومضى فرعون وملؤه في جبروتهم، ومضى موسى وقومه يتحملون العذاب ويرجعون فرج الله، وعندئذ تدخلت القدرة الإلهية فأخذت آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، ثم جاءت الإنذارات تترأى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

ثم أعلنوها صريحة: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وأدرك موسى أن لا فائدة ترجى من القوم، وأنهم مصرون على الكفر والفساد في

الأرض ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَاءَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢].

فأوحى الله إليه أن ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣].

فإذا عبرت أنت ومن معك فاترك البحر رهوا أي ساكننا كما هو إغراء لفرعون بالعبور، فإنهم قوم مغرقون.

وفي الليلة الموعودة خرج موسى ببني إسرائيل، وعلم فرعون بخروجهم فجمع الجموع وخرج في طلبهم ﴿ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴾ * فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿ [الشعراء: ٦٠-٦٣].

أي كالجبل العظيم، وصار البحر إثني عشر طريقا لكل سبط طريق، وأمر الله الريح فنشفت أرضه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ [طه: ٧٧].

وتخرق الماء بين الطريق كهيئة الشبايك ليرى كل قوم غيرهم فيطمئنوا عليهم.

وجاوز بنوا إسرائيل، فلما خرج آخرهم كان فرعون قد انتهى إلى شاطئ البحر، فوقف مترددا أيعبر خلفهم؟ أم يرجع وقد كُفيهم؟ فجاء جبريل عليه السلام على فرس فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل فاقتحم فرعون ورائه، وميكائيل في ساقهم، لا يترك منهم أحدا إلا أقحمه، حتى إذا أدركوا في البحر جميعا جاءهم الموح من كل مكان وجعل يرفعهم ويخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وجاءته سكرة الموت فنادى: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

ف قيل له: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿ [يونس: ٩٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا أخذ من حل البحر فادسّه في في فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة ».

وهكذا أنجى الله موسى والمسلمين، وأغرق فرعون والكافرين: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿

[الشعراء: ٦٧-٦٨].

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].
 فهنيئاً للصابرين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].



القصة على نحو من البسط

قال الله تعالى:

﴿ طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكُتُبِ الْمُبِينِ * تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَحْيِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمُنَّ وَجُنُودُهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ١ - ٦] .

وقد أورد ابن كثير في تفسير معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا ﴾ [القصص: ٤] ، أن فرعون تجبر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعة، فقسم رعيته إلى أقسام، وفرق وأنواع، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سَلَطَ عليهم هذا الملك الظالم الغاشم، الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأذناها ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأترونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته. وهم يَسْمُرُونَ عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرًا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وروي عن ابن عباس، وابن مسعود: أن فرعون رأى في منامه؛ كأن نارًا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله

ذلك، فجمع الكهنة والحدقة والسحرة. وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النساء.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] وهم بنو إسرائيل، ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] أي الذين يقول ملك مصر وبلادها إليهم.

فجعل الله الضعيف فيهم قوياً، والمقهور قاهراً، والذليل عزيزاً. وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُّونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى أو أي غلام ذكر آخر، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان، لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاوموهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم.

وهذا فيه نظر، بل هو باطل. وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥] ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذراً من وجود موسى. هذا، وكان القدر يقول:

«يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه، واتساع سلطانه: قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تحالف أقداره: أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه، من النفوس مالا يُعد ولا يُحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك، وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه، وتربيه وتتفاده، ولا تطلع على سر

معناه، ثم يكون هلاكك في دنيائك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعّال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التي لا مردّ لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولداهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يَلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عامًّا وأن يتركوا عامًّا، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، أن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم، فضاعت أمه به ذرعًا، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل. فلما وضعت أُلهمت أن تتخذ له تابوتًا، ربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به. قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٧ - ٩] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ أَلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩] الآية.

وليس هو بوحى نبوة كما زعمه غير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

قال السُّهيلي: واسم أم موسى « أيارخا » ، وقيل: « أياذخت » . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وألقي في خلدها ورؤوعها: ألا تخافي ولا تحزني؛ فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبيًّا مرسلًا، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ * ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

قال السدي: لما ولدت أم موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة.

وقال ابن جريج: أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان، فإذا خافت أن يصيح - لأن لبنها لا يكفيه - صنعت به هذا. والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله: «فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ» و«إِذَا» لما يستقبل من الزمان؛ فيروى أنها اتخذت له تابوتًا من بردى وقيرته بالقار من داخله، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر.

قال ابن عباس: إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس، وعملوا بالمعاصي؛ فسلب الله عليهم القبط، وساموهم سوء العذاب، إلى أن نجاهم الله على يد موسى.

قال وهب: بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد. ويقال: تسعون ألفًا. ويروى أنها حين اقتربت وضربها الطلق، وكانت بعض القوايل الموكلات بحبال بني إسرائيل مصافية لها؛ فقالت: لينفني حبك اليوم؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، وارتعش كل مفصل منها، ودخل حبه قلبها، ثم قالت: ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخير فرعون، ولكني وجدت لابنك حبًا ما وجدت مثله قط، فاحفظيه؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعه في تنور مسجور نارًا لم تعلم ما تصنع لما طاش عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئًا، فخرجوا وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، وقد جعل الله عليه النار بردًا وسلامًا.

وذكر المفسرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعه بين يدي امرأة فرعون «آسية» بنت مزاحم بن عبيد بن الريان ابن الوليد، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف.

وقيل: إنما كانت من بني إسرائيل من سبط موسى. وقيل: بل كانت عمته، فالله أعلم. وآسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، ورد في الحديث أنهما من أزواج رسول الله في الجنة.

فلما فتحت آسية الباب، وكشفت الحجاب، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية، فلما رآته ووقع نظرها عليه، أحبته حبًا شديدًا جدًّا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت: ﴿قُرْءُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون: أمَّا لك

فنعم وأما لي فلا. أي لا حاجة لي به.

وقولها: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ قد أنالها الله ما رجحت من النفع: أما في الدنيا فهذاها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه. ﴿أَوْ تَنْجِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] وذلك أنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم، حين قيضهم لالتقاطه، من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده؟ وعند أهل الكتاب: أن التي التقت موسى «دربته» ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلية، وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل. وقال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلَنَعْلَمَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٠-١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ﴾ ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ [القصص: ١٠-١١]. وهي ابنتها الكبيرة: ﴿قُصِّيه﴾ أي اتبعي أثره، واطلبي لي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾، قال مجاهد: عن بُعد. وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده. ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً، فحاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾.

فأرسلوه مع القوايل والنساء إلى السوق؛ لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصُرَتْ به أختها، فلم تظهر أنها تعرفه بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ قال ابن عباس: لما قالت ذلك، قالوا لها: ما يدريك بنصحتهم وشفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة في سرور الملك ورجاء منفعتة.

فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه. فلما أرضعته التقم ثديها، وأخذ يعتصه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى (آسية) يُعلمها بذلك،

فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلًا وأولادًا، ولست أقدر على هذا، إلا أن ترسله معي. فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات، والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزة إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها. قال الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿١٢﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٣].

وقد امتنَّ على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿١٤﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمَلِكَ مَا يُوحَىٰ ﴿١٥﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴿١٦﴾ وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحِبَّهُ ﴿١٧﴾ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿١٨﴾﴾ [طه: ٣٧ - ٣٩].

قال قتادة وغير واحد من السلف: أي تطعم وترفه وتغذي بأطيب المأكول، وتلبس أحسن الملابس. برأى مني، وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيره. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴿١٩﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَلِكَ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٢٠﴾ وَقَتَلْنَا نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٤٠]. وسنورد حديث الفنون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُنْصِرَنَّ عَلَىٰ فُلَانٍ وَلَا أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ١٤ - ١٧].

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشدّه واستوى، وهو احتكام الخلق والخلق، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين، آتاه الله حكماً وعلمًا، وهو النبوة والرسالة التي كان بشّر بها أمه حين قال: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىٰكَ وَجَعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد، وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به. كما سيأتي.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴿٢٧﴾﴾ قال ابن عباس وسعيد بن

جَبْرِ وعِكرمة وَقَتَادَة والسُّدِّي: وذلك نصف النهار، وكان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون، وكان يركب مراكبه، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون؛ فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف - قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر - ثم علم موسى بركوب فرعون، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت القائلة، وهو وقت الغفلة؛ قاله ابن عباس. وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَمَةِ.

وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلها. بعد أن غاب عنها سنين، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره، وبعُدَ عهدهم به، وكان ذلك يوم عيد.

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي إسرائيلي، ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي قبطي. قاله ابن عباس وقتادة والسُّدِّي ومحمد ابن إسحاق.

﴿ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام، كانت له بديار مصر صَوْلَةً، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزّوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله أي من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ قال مجاهد: أي طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه، ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم، ولم يُردِّ موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه. ومع هذا، ﴿ قَالَ ﴾ موسى: ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿ [القصص: ١٥ - ١٧] ﴾ أي من العز والجاه ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملة. وتكثير سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدّية إلى القتل الذي لم يحلّ له قتله. وقيل: أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع.

وقيل في بعض الروايات: إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كافر، فقال: لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ أَلْمَلَا يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ١٨ - ٢١].

فلما أصبح موسى بمدينة مصر خائفاً أن يعلموا أن هذا القاتل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي يتلفت، فبينما هو كذلك، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي، فبرده عنه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه، لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ .

فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس. فذهب القبطي فاستعدى فرعون على موسى. وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطي، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه، ورأى من سجيته انتصاراً جديداً للإسرائيلي. فقال ما قال من باب الظن والفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القاتل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا. والله أعلم. والمقصود أن فرعون بلغه أن

موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه. وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب. ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ [القصص: ٢٠] ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال: ﴿يُمُوسَىٰ إِنَّ أَلْمَلَا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أي من هذه البلدة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ﴾ ، أي فيما أقوله لك.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه، قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢١-٢٤] .

خرج موسى من مصر خائفاً يترقب، أي يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا أين يذهب؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها. ووروده الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه. ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورد، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل. فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه؛ ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وكانت بئراً يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء.

ولما ورد الماء المذكور ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ ، أي تكفكفان عنهما غنمهما أن تحتلط بغنم الناس. وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات، وهذا أيضاً من الغلط، ولعلهن كن سبعاً، ولكن إنما كان تسقى اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي لا تقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أينا وكبره. قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا فرغوا من وردهم، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في

فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما.

ثم تولى إلى الظل، قالوا: وكان ظل شجرة من السَّمُر وروى ابن جرير عن ابن مسعود، أنه رآها خضراء ترف ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيًا فسقطت نعلًا قدميه من الحفاء، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، إنه محتاج إلى شق ثمرة.

قال عطاء بن السائب لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمع المرأة. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَتِ اسْتَجْرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥ - ٢٨].

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرته بما كان من أمر موسى عليه السلام. فأمر إحداها، أن تذهب إليه فتدعوه، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مشي الحرائر، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حياتها وصيانتها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ وأخبره خبره، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارًا من فرعونها، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي خرجت من سلطاتهم فليست في دولتهم.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين. ومن نص عليه: الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحًا به في حديث،

ولكن في إسناده نظر.

وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه «يثرون» هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي كبيرها وعالمها.

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب. وزاد ابن عباس: صاحب مدين.

والمقصود: أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنيتين لأبيها: ﴿يَأْتِ اسْتَجِرُّهُ﴾ أي لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين.

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فأخذني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَأْتِ اسْتَجِرُّهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]. استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله، على صحة ما إذا باعه أحد هذين العبدین أو الثوبین ونحو ذلك، أنه يصح؛ لقوله: ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ وفي هذا نظر؛ مراوضة لا معاقدة. والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار بالطعمة والكسوة، كما جرت به العادة.

فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه

وطعمة بطنه » .

ثم قال تعالى على لسان موسى: ﴿ ذَلِكْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٨] .

قال موسى لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليّ وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

فعن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: « سَأَلْتُ جَبْرِيلَ أَيِ الْأَجْلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَى؟ قَالَ: أَتَمَّهُمَا وَأَكْمَلَهُمَا » .

وقد رواه البزار وابن أبي حاتم عن أبي ذر، أن رسول الله سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: « أَوْفَاهُمَا وَأَبْرَهُمَا » : قال: « وَإِنْ سَأَلْتُ أَيِ الْمَرَاتِينِ تَزُوجُ؟ فَقُلْ: الصَّغْرَىٰ مِنْهُمَا » . فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاهما ما ولدت غنمه، من قالب لوّن من ولد ذلك العام، وكانت غنمه سوداء حسناً.

فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض، ثم أورها فسقاها، ووقف موسى عليه السلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: « فَاتَّامَتْ وَأَلْبَنَتْ » ووضعت كلها قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين.

واعد نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما، وقال له صاحبه: كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها، فعمد موسى فوضع جبلاً على الماء فلما رأت الجبال فرعت فجالت جولة فولدت كلهن بُلُقاً إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يُمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ ﴾

إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ * أَسْلُوكَ يَذْكُ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿ [القصص: ٢٩ - ٣٢] .

سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ مِنْ عِنْدَ صَهْرِهِ، قِيلَ لَاشْتِيَاقِهِ إِلَى أَهْلِهِ، فَقَصَدَ زِيَارَتَهُمْ بِبِلَادِ مِصْرَ فِي
صُورَةٍ مُخْتَفٍ، فَلَمَّا سَارَ بِأَهْلِهِ وَمَعَهُ وَلَدَانِ مِنْهُمْ وَغَنَمٌ قَدْ اسْتَفَادَهَا مَدَّةَ مَقَامِهِ .

قَالُوا: وَاتَّفَقَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ بَارِدَةٍ، وَتَاهُوا فِي طَرِيقِهِمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى السَّبِيلِ فِي
الدَّرْبِ الْمَأْلُوفِ، وَجَعَلَ يُوْرِي زَنَادَهُ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَاشْتَدَّ الظَّلَامُ وَالْبَرْدُ .

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَبْصَرَ عَنْ بُعْدٍ نَارًا تَأَجَّجَ فِي جَانِبِ الطُّورِ وَهُوَ الْجَبَلُ الْغَرَبِيُّ مِنْهُ عَنْ
يَمِينِهِ؛ ف ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ ﴿ لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص: ٢٩]
أَيَّ لَعَلِّي أَسْتَعْلَمُ مِنْ عِنْدِهَا عَنِ الطَّرِيقِ ﴿ أَوْ جَذْوَةً مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

وَقَالَ سَبِّحَانَهُ ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكُثُوا إِنِّي
ءَانَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى ﴿
﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَنَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧] .

اسْتَأْذَنَ مُوسَى صَهْرَهُ فِي الرَّجُوعِ إِلَى وَالِدَتِهِ فَأَذِنَ لَهُ فَخَرَجَ بِأَهْلِهِ وَغَنَمِهِ، وَوَلَدَ لَهُ فِي
الطَّرِيقِ غُلَامٌ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ بَارِدَةٍ مَثْلُجَةٍ وَسَارَ بِأَهْلِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَدِينٍ يُرِيدُ مِصْرَ، وَكَانَ قَدْ
أَخْطَأَ الطَّرِيقَ، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا غَيُورًا، يَصْحَبُ النَّاسَ بِاللَّيْلِ وَيَفَارِقُهُمْ بِالنَّهَارِ
غَيْرَةً مِنْهُ، لِثَلَا يَرَوْا أَمْرَاتِهِ؛ فَأَخْطَأَ الرِّفْقَةَ - لَمَّا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى - وَكَانَتْ لَيْلَةٌ مَظْلَمَةٌ،
وَكَانَتْ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فِي الشِّتَاءِ، فَحَادَ عَنِ الطَّرِيقِ وَتَفَرَّقَتْ مَاشِيَتُهُ، فَقَدَحَ مُوسَى النَّارَ فَلَمْ تَوْرِ
الْمَقْدَحَةَ شَيْئًا، إِذْ بَصُرَ بِنَارٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَى يَسَارِ الطَّرِيقِ فَلَمَّا تَوَجَّهَ نَحْوَ النَّارِ فَإِذَا النَّارُ فِي شَجَرَةٍ
عَنَابٍ، فَوَقَفَ مُتَعَجِّبًا مِنْ حَسَنِ ذَلِكَ الضَّوْءِ، وَشَدَّةِ خُضْرَةِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَلَا شَدَّةَ حَرِّ النَّارِ
تَغْيِيرَ حَسَنِ خُضْرَةِ الشَّجَرَةِ، وَلَا كَثْرَةَ مَاءِ الشَّجَرَةِ وَلَا نِعْمَةَ الْخُضْرَةِ تَغْيِيرَ حَسَنِ ضَوْءِ النَّارِ
فَرَأَى النَّارَ وَهِيَ فِي شَجَرَةٍ مِنَ الْعُلَيْقِ، فَقَصَدَهَا فَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ، فَارْجَعَ وَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً،
ثُمَّ دَنَتْ مِنْهُ وَكَلِمَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الشَّجَرَةِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِءِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ

الشَّجَرَةَ أَنْ يُمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ [القصص: ٣٠]. وقال في النمل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ يُمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ [النمل: ٩]. وقال في سورة طه: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١١ - ١٦].

قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، وكل ما لتلك النار في اضطرام، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد. فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] وكان موسى في واد اسمه طوى فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناده ربه بالواد المقدس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة. وعند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور؛ مهابة له وخوفاً على بصره.



الحكمة من خلع النعل لموسى عليه السلام وحكمها في الصلاة

الأولى: اختلف العلماء في السبب الذي من أجله أمر بخلع النعلين. والخلع النزاع. والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض. فقيل: أمر بطرح النعلين؛ لأنها نجسة إذ هي من جلد غير مُذَكَّى؛ قاله كعب وعكرمة وقتادة.

وقيل: أمر بذلك لينال بركة الوادي المقدس، وتمس قدماه تربة الوادي؛ قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وابن جريج.

وقيل: أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت. وقيل: إعظاماً لذلك الموضع كما أن الحرم لا يُدخل بنعلين إعظاماً له. قال سعيد بن جبير: قيل له طمّ الأرض حافياً كما تدخل الكعبة حافياً. والعرف عند الملوك أن تخلع النعال ويبلغ الإنسان إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه؛ ولا تبالى كانت نعلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة براً بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة، والجنة الكريمة. ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخصاصية وهو يمشي بين القبور بنعليه: «إذا كنت في مثل هذا المكان فاخلع نعليك» قال: فخلعتهما. وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد.

وقيل: لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى، ولا ينبغي أن يطمأ على بساط رب العالمين بنعله. وقد يحتمل أن يكون موسى أمر بخلع نعليه، وكان ذلك أول فرض عليه.

الثانية: في الخبر أن موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي. وقال أبو الأحوص: زار عبد الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى؛ فقال أبو موسى لعبد الله: تقدّم. فقال عبد الله: تقدّم؛ أنت في دارك. فتقدّم وخلع نعليه؛ فقال عبد الله: أبالوادي المقدس أنت؟!.

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال: قلت: لأنس: أكان رسول الله ﷺ يصلي في نعلين؟ قال: نعم.

ورواه التَّسَائِي عن عبد الله بن السائب: أن النبي ﷺ صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره.

وروى أبو داود من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: « ما حملكم على إلقائكم نعالكم » قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا.

فقال رسول الله ﷺ: « إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قدراً » وقال: « إذا جاء أحدكم المسجد فليُنظر إذا رأى في نعليه قدراً أو أذى فليمسحه وليصل فيهما ».

ولم يختلف العلماء في جواز الصلاة في النعل إذا كانت طاهرة من ذكي، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٣١] على ما تقدّم. وقال إبراهيم النخعي في الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجاً جاء فأخذها.

الثالثة: فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه ».

وقال أبو هريرة للمقبري: اخلعهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلماً. وما رواه عبد الله ابن السائب رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماماً، فإن كنت إماماً أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموماً في الصف فلا تؤذ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروي عن جبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة: فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بني آدم لم يطهرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهرها المسح بالتراب من النعل والخف أو لا؟ قولان عندنا. وأطلق الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعي وأبو ثور. وقال أبو حنيفة: يزيله إذا بيس الحك والفرك، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ما عدا البول، فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل. وقال الشافعي: لا يطهر شيئاً من ذلك كله إلا الماء. والصحيح قول من قال:

إن المسح يطهره من الخفّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد. فأما لو كانت النعل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق .

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدّس: المطهر. والقُدّس: الطهارة، والأرض المقدّسة أي المطهرة؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين. وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض، ولبعض الحيوان كذلك. والله أن يفضل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدّساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين؛ فقد شاركه في ذلك غيره. و«طوى» اسم الوادي.

وقال الضحاك: هو واد عميق مستدير مثل الطوى. وقرأ عكرمة «طوى». والباقون «طوى». قال الجوهري: «طوى» اسم موضع بالشام، وقال بعضهم: «طوى» مثل «طوى» وهو الشيء المثني، وقالوا في قوله ﴿الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: طوي مرتين أي قدّس. وقال الحسن: ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين.

وذكر المهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له طوى لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ» الذي طويته طوى؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك. الحسن: معناه أنه قدّس مرتين؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضاً.

هذا ما تيسر من أمر الصلاة في النعل بغير توسع، وأحكامه مبسطة في أماكنها بكتب الفقه والله أعلم.

ونعود لتكليم الله عز وجل لموسى؛ فقد اصطفاه ربه بالتكليم والاستماع المباشر من الله؛ فقال سبحانه ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾؛ فالاستماع هو الإنصات؛ لأنه بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

فمن أدب الاستماع سكون الجوارح وغلّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها. فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

قال سفيان بن عُيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نوراً.

ثم خاطب الله تعالى كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣] ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

فتلك كانت بداية للتكاليف التي كلف بها موسى وهي: إخلاص العبادة، كمعتقد يلزم كل عبد؛ ثم الصلاة؛ فهذه ثلاث مسائل ينبغي أن يعرفها كل مسلم مؤمن بالله عز وجل:

المسألة الأولى: قضية التوحيد والعبودية: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ فلا بد أن تعلم هذه القضية، قولاً وعملاً، وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يعلمها ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٦].

فلا معبود بحق إلا الله، ولا متصرف إلا الله، ولا خالق، ولا مدبر، ولا حاكم، ولا مسيطر، ولا مرجو، ولا مقصود إلا الله تبارك وتعالى.

المسألة الثانية: قضية الصلاة، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا امتثال لمعالم العقيدة بغير صلاة.

المسألة الثالثة: قضية الإيمان باليوم الآخر، وهي قضية كبرى، ركز عليها القرآن في مواضع كثيرة، وأبطل زعم الذين أنكروا هذا اليوم ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُنْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُنْعَثُنَّ ثُمَّ لَتَسْتَبْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

تلكم كانت التكاليف التي كلف بها موسى، وكلف بها رسول الله محمداً ﷺ، وهنا يجدر بنا نقف على بعض المسائل في الصلاة لأهمية هذه الشعيرة وعلوها عن بقية الشعائر التعبدية.

إقامة الصلاة وحكم تاركها، وقضاء الصلاة الفائتة

المسألة الأولى: اختلف أهل العلم في تأويل قوله تعالى: « لَذِكْرِي » فقيل: يحتمل أن يريد لتذكركني فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها، وقيل: المعنى؛ أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى الله تعالى، وقيام بين يديه؛ وعلى هذا فالصلاة هي الذكر. وقد سمي الله تعالى الصلاة ذكراً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. وقيل: المراد إذا نسيت فتذكرت فصل كما في الخير « فليصلها إذا ذكرها ». أي لا تسقط الصلاة بالنسيان.

الثانية: روى مالك وغيره أن النبي ﷺ قال: « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ». وروى عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يرقد عن الصلاة ويغفل عنها قال: « كفارتها أن يصلها إذا ذكرها ».

وروى الدارقطني عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « من نسي صلاة فوقتها إذا ذكرها » ؛ فقوله: « فليصلها إذا ذكرها » دليل على وجوب قضاء الصلاة على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلت، وهو مذهب عامة العلماء.

وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء.

قلت: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقاً لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاص؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله عليه الصلاة والسلام: « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها » لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأما من ترك الصلاة متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب قضاء الصلاة عليه، وإن كان عاصياً.

والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، حط المأثم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. هو أمر يقتضي الوجوب.

وأيضاً فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مأثومين، فالعائد أولى. وأيضاً قوله: « من نام عن صلاة أو نسيها » والنسيان الترك؛ قال الله تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] و﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن الله تعالى لا ينسى وإنما معناه تركهم و﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ [البقرة: ١٠٦] أي نتركها. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي » وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان وإنما معناه علمت. فكذا ذلك يكون معنى قوله: « إذا ذكرها » أي علمها. وأيضاً فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يسقطها الإبراء كان في ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه.

وأيضاً فقد اتفق أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر لوجب قضاؤه فكذا ذلك الصلاة. فإن قيل فقد روي عن مالك: من ترك الصلاة متعمداً لا يقضي أبداً. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ؛ كما روي عن ابن مسعود وعلي: أن من أفطر في رمضان عامداً لم يكفره صيام الدهر وإن صامه. ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء. وقد روى أبو المطوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « من أفطر يوماً من رمضان متعمداً لم يجزه صيام الدهر وإن صامه » وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود. وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح، وفي بعضها قضاء اليوم؛ والحمد لله تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: « من نام عن صلاة أو نسيها » الحديث؛ يخص عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ» والمراد

بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: « وعن الصبي حتى يحتلم » وإن كان ذلك جاء في أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل.

الخامسة: اختلف العلماء في هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو في صلاة، فجملة مذهب مالك: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها، وعلى نحو هذا مذهب أبي حنيفة والثوري والليث؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشي فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم.

وقد روي عن الثوري وجوب الترتيب، ولم يفرق بين القليل والكثير. وهو تحصيل مذهب الشافعي. قال الشافعي: الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر. وقال: لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه.

وروى الدارقطني عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: « إذا ذكر أحدكم صلاة وهو في صلاة مكتوبة فليبدأ بالتي هو فيها فإذا فرغ منها صلى التي نسي » وعمر بن أبي عمر مجهول.

قلت: وهذا لو صح كان حجة للشافعي في البداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله: أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش، وقال: يا رسول الله والله ما كدت أن أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب؛ فقال رسول الله ﷺ: « فوالله إن صليتها » فنزلنا البطحان فتوضأ رسول الله ﷺ، وتوضأنا فصلى رسول الله ﷺ العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب. وهذا نص في البداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق غير ممتد.

وروى الترمذي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى، فأمر بالأذان بلا فقام فأذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء.

وبهذا استدلل العلماء على أن من فاتته صلاة قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها في وقت واحد. واختلفوا إذا ذكر فاتته في مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفاتنة وإن خرج وقت الحاضرة، وبه قال مالك والليث والزهري وغيرهم كما قدّمناه. الثاني: يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعي وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا. الثالث: يتخير فيقدم أيتهما شاء، وبه قال أشهب.

السادسة: وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يقول، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته. والأصل في هذا ما رواه مالك والدارقطني عن ابن عمر قال: «إذا نسي أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التي نسي ثم ليعد صلاته التي صلى مع الإمام».

واختلفوا؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يصلي التي ذكر، ثم يصلي التي صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين. وذكر الخرقى عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاة وهو في أخرى فإنه يتمها ويقضي المذكورة، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت واسعاً، فإن خشي خروج الوقت وهو فيها اعتقد ألا يعيدها، وقد أجزأته ويقضي التي عليه. وقال مالك: من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلى منها ركعتين سَلَّمَ من ركعتين، فإن كان إماماً أهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلّم. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسَلَّمَ، وصارت نافلة غير فاسدة ولو أهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضيف إليها أخرى.

السابعة: روى مسلم عن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر حديث الميضأة بطوله، وقال فيه ثم قال: «أما لكم في أسوة» ثم قال: «أما إنه ليس في النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها».

فظاهر الكلام يقتضي إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتي؛

ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين، وذكر القصة وقال في آخرها: « فمن أدرك منكم صلاة الغداة من غدٍ صالحاً فليقضِ معها مثلها » .

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة؛ لما رواه الدارقطني عن عمران ابن حصين قال: سرينا مع رسول الله ﷺ في غزاة - أو قال في سرية - فلما كان وقت السحر عرّسنا، ثم استيقظنا حتى أيقظنا حرُّ الشمس، فجعل الرجل منا يثب فرعاً دهباً، فلما استيقظ رسول الله ﷺ أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس، ففرض القوم حوائجهم، ثم أمر بلالاً فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة؛ فقلنا: يا نبي الله ألا نقضيهما لوقتتهما من الغد؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: « أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم » .

وقال الخطابي: لا أعلم أحداً قال بهذا وجوباً، ويشبه أن يكون الأمر به استحباباً ليحرز فضيلة الوقت في القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام: « أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم » .

هذا ما تيسر على عجلة فيما يختص بمسألة الصلاة ما يتعلق ببعض أمورها والله أعلم.



ونعود إلى تكليم الله موسى عليه السلام؛ فقد أخبره الله عز وجل أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، وإنما الدار الباقية يوم القيامة، التي لا بد من كونها ووجودها ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ إن الساعة التي يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية أكاد أخفيها، لئلا يطلع عليها أحد، ولا أظهر عليها أحدا غيري. فلا تأتكم إلا بغتة. ولتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ولتثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، وبما تعمل من خير وشر، وطاعة ومعصية.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أي فلا يردّك يا موسى عن التأهب للساعة، من لا يؤمن بها، ومن لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ واتبع هوى نفسه، وخالف أمر الله ونهى فتردى وتهلك إن أنت أنصددت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن الله باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد موتها.

ثم يتحدث الله بعد ذلك مع موسى حديثاً شيقاً، حديث الأنس واللفظ؛ ليزيل الدهشة عنه، وليطرد الرعب عن نفسه، لأنه موقف صعب، لا يتحمّله أي إنسان، تصور أنك تكلم الله تعالى، وتستمع إلى خطاب ملك الملوك، ﴿وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يُمُوسَى﴾ ، موسى كاد يطير قلبه من بين جوانحه، فألقى الله عليه خطاب المؤانسة والملاطفة، حتى لا يستوحش، وحتى لا تسيطر عليه الأوهام، والعرب كانت تعرف ذلك، فهذا الأزدي يقول في قصيدته:

أحادث ضيفي قبل إنزال رحله وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ويخصب عندي والمكان جديب ولكنما وجه الكريم خصيب

ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى: هي عصاي؛ لتثبت الحجّة عليه بعدما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هي في الأزل.

وفي بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن؛ ف قيل له: ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك

وأسهب موسى في الإجابة، فلم يقل: هي عصا وسكت، وإنما لما لدّه الخطاب زاد في الجواب؛ ليستمر الحوار بينه وبين رب العزة ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨] .

قال ابن عباس: رحم الله موسى، إنما كان يكفيه أن يقول عصا، ولكن ارتاح لخطاب

ربه فزاد في الكلام. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّزُا عَلَيْهَا وَأُهَشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

وفي هذه الآية دليل على أن جواب السؤال قد يكون بأكثر مما سئل؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ﴾ ذكر معاني أربعة: وهي: إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا؛ والتوكؤ؛ والهش، والمآرب المطلقة. فذكر موسى من منافع عصاه عظمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك.

وفي الحديث سئل النبي ﷺ عن ماء البحر فقال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحَلَالُ مَيْتَتُهُ». وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر». ومثله في الحديث كثير.



ذكر بعض منافع العصي

ورد أن من منافع العصا مارواه ابن عباس، قال: إذا انتهيت إلى رأس بئر فقصر الرّشا وصلته بالعصا، وإذا أصابني حر الشمس غرزتها في الأرض وألقيت عليها ما يظلني، وإذا خفت شيئاً من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقي وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم.

وروى عنه ميمون بن مهران قال: إمساك العصا سنة للأنبياء، وعلامة للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها ست خصال؛ سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغمّ للمنافقين، وزيادة في الطاعات.

ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعيأ.

ولقى الحجاج أعرابياً فقال: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعدّها لعدائي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي لتتسع خطوتي، وأتبّ بها النهر، وتؤمنني من العثر، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرّ، ويدفني من القرّ، وتدني إليّ ما بعد مني، وهي محمّل سُفرتي، وعلاقة إداوتي؛ أعصي بها عند الضّرّاب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح في الطعان، وعن السيف عند منازل الأقران؛ ورثتها عن أبي، وأورثتها بعدي ابني؛ وأهشّ بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى!!.

وقد كان للنبي عليه الصلاة والسلام عنزة تُركز له فيصلّي إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة فتوضع بين يديه فيصلّي إليها؛ وذلك ثابت في الصحيح.

وفي الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مخضرة. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعنزته؛ وكان عليه الصلاة والسلام يخطب بالقضيب، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخضرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب.

قال مالك: كان عطاء بن السائب يمسك المخصرة يستعين بها. وقال: والرجل إذا كبير لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه.

وكان كثير من السلف، - وثلة من الخلف - إذا وقف أحدهم خطيباً توكأ على سيف أو عصا، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل. وقد جمع الله لموسى في عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون.

هذا وقد كنا عند سني الزغب تفرع أذننا بأن: العصا لمن عصى؛ فالحمد لله الذي جعلها في أيدينا منحة ولم يجعلها على أبداننا محنة والله الفضل والمنة !!.

مرة أخرى مع عصا موسى؛ أو إن شئت فقل: العصا الحية؛ فقد أمر الله كلمه موسى عليه السلام أن يرمي أمامه بتلك العصا ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴾ ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ [طه: ١٩ - ٢٠].

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وأنه الفعال بالاختيار.

فإنه لما أراد الله تعالى أن يُدرب موسى عليه السلام على تلقي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها.

وكانت عصا ذات شعبتين فصارت الشعبتان لها فمًا، وصارت حية تسعى أي تنتقل، وتمشي وتلتقم الحجارة؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبدة ف ﴿ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل: ١٠] فقال الله له: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾ وذلك أنه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ [طه: ٦٧] أي لحقه ما يلحق البشر من الخوف.

وروي أن موسى تناولها بكمي جَبَّتْهُ فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهي سيرتها الأولى، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفرغ منها إذا ألقاها عند فرعون.

ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه ويعلق عليها أحماله، وتضيء له الشعبتان بالليل كالشمع؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشعبتان كالدلو، وإذا انتهى ثمره ركزها في الأرض فأثمرت تلك الثمرة. وقيل: إنها كانت من آس الجنة. وقيل: أتاه جبريل بها.

وقيل: مَلَكٌ. وقيل قال له شعيب: خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة. والله أعلم.

وعند أهل الكتاب: أنه سأل برهاناً صادقاً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عز وجل: ما هذه التي في يدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ فهرب موسى من قدامها، فأمره الرب عز وجل أن ييسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده.

وقال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك، هي مع ذلك في سرعة حركة الجان، وهو ضرب من الحيات يقال له الجان والجنان، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة.

فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ أي هارباً منها، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يتفلس، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يُمُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] فيقال إنه هابها شديداً، فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها. وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم، رب المشرقين والمغربين.

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أي من غير برص ولا بهق، ولهذا قال: ﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قيل معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك. وهذا وإن كان خاصاً به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

فإن الله أمر أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية.

وعن مجاهد وغيره عن ابن عباس؛ قال: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب.

ويحكى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن كاتباً كان يكتب بين يديه، فانفلتت منه فلتة ريح فحجل وانكسر، فقام وضرب بقلمه الأرض. فقال له عمر: خذ قلمك واضمم إليك جناحك، وليفرخ روعك فأبى ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي.

وقيل: المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف. وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان. فضم جناحه ليسكن.

وقال في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ؛ ف قيل أن التسع آيات أي آيتين من تسع آيات. والآيات هي: « أَلْقِ عَصَاكَ » « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ » فهما آيتان من تسع آيات.

وقال القشيري معناه: كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم. أي خرجت عاشر عشرة. ف « في » بمعنى « من » لقربها منها كما تقول خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها.

وقيل: في بمعنى مع؛ فالآيات عشرة منها: اليد، والفلق والعصا والجراد والقمل والطوفان والدم والضفادع والسنين والطمس.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانِنِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَ بِنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَاتِرٌ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُونَ مُتَّبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٢].

عن محمد بن كعب القرظي، قال: سألتني عمر بن عبد العزيز، عن قوله: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فقلت له: هي الطوفان والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والبحر، وعصاه، والطمسة، والحجر، فقال: وما الطمسة؟ فقلت: دعا موسى وأمن هارون، فقال: قد أجيبت دعوتكما، وقال عمر: كيف يكون الفقه إلا هكذا.

فدعا عمر بن عبد العزيز بخريطة كانت لعبد العزيز بن مروان أصيبت بمصر، فإذا فيها الجوزة والبيضة والعدسة ما تنكر، مسخت حجارة كانت من أموال فرعون أصيبت بمصر..

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ * فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا

بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَافُوا فِيهِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَكُنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٠﴾

[الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣].

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات؛ فإن التسع من كلمات الله القدريّة، والعشر من كلماته الشّرعيّة، وإِنَّمَا نبهنا على هذا لأنّه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هي هذه.

وروى الترمذي والنسائي عن صفوان بن عسّال المرادي: أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله؛ فقال: لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبيّ ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا بيريء إلى لا سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف - شك شعبة - وعليكم (يا معشر) اليهود خاصة ألا تعدوا في السبت» فقبلا يديه ورجليه وقالوا: نشهد أنك نبيّ. قال:

«فما يمنعكما أن تسلما» قالوا: إن داود دعا الله ألا يزال في ذريته نبيّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

وقد مضى في البقرة. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم؛ آيات مفصّلات. وقال الحسن والشعبيّ: الخمس المذكورة في «الأعراف»؛ يعينان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. وروي نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يافكون.

وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس

على أموالهم.

وقوله تعالى ﴿فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي سلمهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ.

فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً أي ساحراً بغرائب أفعالك؛ كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل مخدوعاً. وقيل مغلوباً. وقيل غير هذا.

وعن ابن عباس أنه قرأ « فسأل بني إسرائيل » على الخبر؛ أي سأل موسى فرعون أن يخلي بني إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾

[القصص: ٣٣ - ٣٥].

أمر الله عز وجل عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام، بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ - ٣٤]؛ فقال موسى: رب إني قتل من قوم فرعون نفساً، فأخاف إن أتيتهم فلم أبن عن نفسي بحجة أن يقتلون، لأن في لساني عقدة، ولا أبن معها ما أريد من الكلام وأخي هارون هو أفصح مني لساناً، وأحسن بيانا عما يريد أن يبينه فأرسله معي رِدْءًا وعونا يصدقني ويبين لهم عني ما أحاط بهم به؛ فإنه يفهم ما لا يفهمون.

وقيل: إنما سأل موسى ربه يؤيده بأخيه، لأن الاثنين إذا اجتمعا على الخير، كانت النفس إلى تصديقهما، أسكن منها إلى تصديق خير الواحد؛ فاجعله معي معيناً وردءاً ووزيراً يساعدي، ويعيني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً.

قال الله تعالى مجيئاً له إلى سؤاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا﴾؛ أي نقويك ونعينك بأخيك. تقول العرب إذا أعز رجل رجلاً، وأعانه ومنعه ممن أراده بظلم: قد شد فلان على عضد فلان، وهو من عاضده على أمره: إذا أعانه.

ثم زاده الله بأن جعل لهما سلطانا وحجة؛ فلا يصلون إليهما ولا يصل إليهما فرعون وقومه بسوء. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿فَأَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا غَالِبُونَ﴾ فرعون وملاه بآياتنا أي بمجنتنا وسلطاننا الذي نجعله لكما. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل ببركة آياتنا.

وقال في سورة طه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ﴿وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٤ - ٢٨].
 قيل إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاخبره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه. فهمم بأخذ الثمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية.
 ولهذا قال فرعون، قبحه الله، فيما زعم أنه يعيب به الكلم: ﴿وَلَا يَكَاذُ بُيِّنٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده.
 وقد تكرر طلب موسى ربه أن يجعل من هارو وزيرا ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هُرُونَ أَخِي﴾ ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦].
 فأجابه الله إلى جميع ما سألته، وأعطاه الذي طلب.

وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه فأوحى إليه. وهذا جاه عظيم، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِمَّن رَّحِمْنَاهُ أَخَاهُ هُرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣].

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هو دجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغَلَامُ الْظَلَمِينَ * قَوْمَ
 فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي
 فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيْتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ
 مُسْتَمْعُونَ * فَاتَيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ
 أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ ﴿ [الشعراء: ١٠ - ١٩].

تقدير الكلام: فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أرسلنا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى
 وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم
 يعبدون ربهم حيث شاءوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه.

وقيل: معناه إن كل واحد منا رسول رب العالمين. ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾
 أي أطلقهم وخلّ سبيلهم حتى يسيروا معنا إلى فلسطين ولا تستعبدهم؛ وكان فرعون
 استعبدهم أربعمئة سنة، وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً.



المناظر الكبرى بين كليم الله وعدو الله

انطلق موسى وهارون إلى فرعون فلم يؤذن لهما سنة في الدخول عليه، فدخل البواب على فرعون فقال: ها هنا إنسان يزعم أنه رسول رب العالمين.

فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه؛ فدخلوا عليه وأديا الرسالة.

وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد وغور وفهود يتفرج عليها، فخاف سواسها أن تبطش بموسى وهارون، فأسرعوا إليها، وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما، وتبصص إليهما بأذناهما، وتلصق خلدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟

قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فعرف موسى لأنه نشأ في بيته؛

فـ ﴿قَالَ أَلَمْ نُزَكِّكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ على جهة المنّ عليه والاحتقار. أي ربيناك صغيراً ولم نقتلك من جملة من قتلنا ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه. ثم قرره بقتل القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ والفعل بفتح الفاء المرة من الفعل. وقرأ الشعبي: «فعلتك» بكسر الفاء والفتح أولى؛ لأنها المرة الواحدة، والكسر بمعنى الهيئة والحال، أي فعلتك التي تعرف فكيف تدعي مع علمنا أحوالك بأن الله أرسلك.

فتكبر فرعون في نفسه وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص.

وهذا يدل على أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرّ منه، خلافاً لما عند أهل الكتاب: من أن فرعون الذي فرّ منه مات في مدة مقامه بمدّين، وأن الذي بُعث إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا وجحدت نعمتنا.

﴿قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؛ أي قبل أن يوحى إلي وينزل علي، ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

[الشعراء: ٢١].

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾

أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿ [الشعراء: ٢٢] وهذه النعمة التي ذكرت؛ من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدَى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٨].

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقابلة والحاجة والمناظرة، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم؛ من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية.

وذلك أن فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى، وزعم أنه الإله ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤] ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْيُهَا أَلَمَلَا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]. ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته، والإظهار أنه ما ثم ربُّ أرسله: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] لأنهما قالاه: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦].

فكانه يقول لهما: ومن رب العالمين؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما؟.

فأجابه موسى قائلاً: ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾

[الشعراء: ٢٤].

يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم، من الآباء والأجداد، والقرون السالفة في الآباد؛ فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمه، ولا يحدث من غير محدث، وإنما أوجده وخلقته ربُّ العالمين. وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي

أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ [فصلت: ٥٣] .

وهنا نقف وقفة مع المناظرة التي قامت بين موسى عليه السلام، وبين فرعون عليه لعائن الله.

فإنه لما غلب موسى فرعون بالحجة؛ رجع فرعون إلى الاستفهام؛ فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى؛ لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها.

فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراغة قبله كذلك. فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه؛ لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكوّن.

فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ليس يجيبي عما أسأل؛ فأجاب موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه كملكك؛ لأنك إنما تملك بلدًا واحدًا لا يجوز أمرك في غيره، ويموت من لا تحب أن يموت، والذي أرسلني بملك المشرق والمغرب؛ ﴿وَمَا يَنْبَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون لعنه الله في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك؛ لأن فيه الاعتراف بأن ثم إلها غيره. وفي توعده بالسجن ضعف.

وكان فيما يروى أنه يفرع منه فرعًا شديدًا حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل. وكان إذا سجن أحدًا لم يخرجه من سجنه حتى يموت، فكان مخوفًا.

ثم لما كان عند موسى عليه السلام من أمر الله تعالى ما لا يريعه توعد فرعون

﴿ قَالَ لَهُ عَلَىٰ جَهَةِ اللُّطْفِ بِهِ وَالطَّمَعِ فِي إِيمَانِهِ : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ فَيَتَضَحَّ لَكَ بِهِ صَدَقِي، فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ طَمَعَ فِي أَنْ يَجِدَ أَثْنَاءَهُ مَوْضِعَ مَعَارَضَةٍ ﴾ قَالَ لَهُ ﴿ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .
ولم يحتج الشرط إلى جواب؛ لأن ما تقدّم يكفي منه.

هذا وقد جاء موسى فرعون بجميع مآلديه من دلائل الربوبية والألوهية الخالصة لرب العالمين؛ فكذب وعصى، وكان من الكافرين؛ وأحال القضية بكاملها إلى السحر؛ فما كان من موسى إلا أن قبل التحدي معتصماً بالله واثقاً بنصره.

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَحَىٰ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ آلِهَةً كَذِبًا فَيَسْحَتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ﴾ .



يوم الزينة

ضرب موسى الموعد الذي كان يوم الزينة، واختلف في يوم الزينة، فقليل هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجتمعون فيه؟..

قال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء.

وقال سعيد بن المسيب: يوم سوق كان لهم يتزينون فيها.

وقال الضحاك: يوم السبت.

وقيل: يوم النيروز؛ ذكره الثعلبي.

وقيل: يوم يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل النيل.

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسلمي وهبيرة عن حفص «يَوْمَ الزَّيْنَةِ» بالنصب. ورويت عن أبي عمرو؛ أي في يوم الزينة إنجاز موعدنا.

وحدد الساعة أيضًا إمعانًا في التحدي ﴿وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي في ضحوة النهار بعد طلوع الشمس.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ فرجع فرعون إلى قصره ليجمع السحرة.

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا، مع كل ساحر منهم حبال وعصي.

وقيل: كانوا أربعمئة. وقيل: كانوا اثني عشر ألفًا. وقيل: أربعة عشر ألفًا. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفًا.

وقيل: كانوا مجتمعين على رئيس يقال له شمعون.

وقيل: كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبًا، مع كل نقيب عشرون عريفًا، مع كل عريف ألف ساحر.

وقيل: كانوا ثلاثمئة ألف ساحر من الفيوم، وثلاثمئة ألف ساحر من الصعيد، وثلاثمئة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمئة ألف، وكان رئيسهم أعمى.

وهنا قام موسى في سحرة فرعون ناصحًا مبلغًا عن رب العالمين ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ

وَيَلْكُم لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿١٠﴾ ؛ فلا تختلقوا على الله الكذب، ولا تشرکوا به، ولا تقولوا للمعجزات التي يهبها الله لمن شاء من عباده إنها سحر. ﴿١١﴾ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴿١٢﴾ مِن عِنْدِهِ أَيِ يَسْتَأْصِلُكُمْ بِالْإِهْلَاكِ. أَيِ خَسِرَ وَهْلَكَ، ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿١٤﴾ وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به. ﴿١٥﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿١٦﴾ .

تساور السحرة قبل أن يبدأ التحدي بينهم وبين موسى وهارون؛ خاصة وأن فرعون ينتظر منهم الغلبة؛ فقد توعدهم، وأوعدهم.

فقالوا : إن غرضهما - أي غرض موسى وهارون - إفساد دينكم الذي أنتم عليه؛ فأتوا بحيلكم وسحركم الذي تعلمتموه من قبل؛ فاليوم هو الفصل عند فرعون والناس، وسيفلح الغالب، ولا شك.

﴿١٧﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿١٨﴾ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿١٩﴾ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٢٠﴾ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٢١﴾ * وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٢٢﴾ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٢٣﴾ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَسَدَّ عَذَابًا وَابْقَى السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ أَسَدَّ عَذَابًا وَابْقَى ﴿٢٤﴾ .

اجتمع الناس وبدأ التحدي، وبادر السحرة موسى بتخيره بالبدء هو أم هم؛ فطلب منهم موسى أن يبدأوا هم؛ قالوا يا موسى، ﴿١٧﴾ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿١٨﴾ فآلقوا عصيهم؛ فخيّل للناس أن تسير وتسعى، وذلك أنهم لطخوا العصي بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت. قال الكلبي: خيّل إلى موسى أن الأرض حيات وأنها تسعى على بطنها. وقرئ « تَخِيلُ » بمعنى تتخيل. وقرئ « نُخِيلُ » بالنون على أن الله هو المخيّل للمحنة والابتلاء. وقيل: الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَى » ف « أَنْ » في موضع رفع؛ أي يخيّل إليه سعيها؛ قاله الزجاج.

وقيل: أن أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد.
وقيل: أن السحرة ألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ .

وقيل: أحسن. أي من الحيات وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدم.

وقيل: خاف أن يفتن الناس قبل أن يلقي عصاه.

وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتنوا فالتفت فإذا جبريل على يمينه فقال له يا موسى تَرَفَّقْ بأولياء الله.

فقال موسى: يا جبريل هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردوا دين الله، تقول: تَرَفَّقْ بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة.

فلما قال له ذلك، أوجس في نفس موسى، وخطر أن ما يُدريني ما علم الله فيّ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعلم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء. فلما علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة؛ للنبوّة والاصطفاء الذي آتاك الله به. وأصل « خيفة » خوفاً فأنقلبت الواو ياء لانكسار الخاء.

وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهما لموسى.

وهنا أمر الله موسى بأن يبدأ في البيان العملي للمعجزة الربانية على يد موسى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العويد الصغير الذي في يمينك، فإنه بقدره الله يتلقفها على وحدته وكثرتها، وصغره وعظمتها. وجائز أن يكون تعظيماً لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها؛ فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها؛ فتأخذ وتبتلع.

واللقف الأخذ بسرعة. يقال: لقفت الشيء (بالكسر) ألقفه لقفًا، وتلقفته أيضاً أي

تناولته بسرعة.

فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ فَاغْرَبْهُ فَاهُ، فَابْتَلَعَ حَبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ، ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا﴾ عند ذلك، لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا؛ فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي؛ وكانت حمل ثلاثمائة بعير ثم عادت عصا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله تعالى.

وقيل لما ألقاها صارت ثعبانًا عظيمة فاغرة فاهها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزرًا إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقّت عصا ولا حبالًا إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرًا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله، وتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون

قيل: فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها، فعند ذلك قالوا ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ .

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ .

هنا آمن السحرة؛ ففجع فرعون، وتحجج بكبيرهم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ . أي رئيسكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم. وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كيما هم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته.

وأخذ فرعون في التخطيط؛ فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومَةٌ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي جرت بينكم وبينه مؤاطاة في هذا لتستولوا على مصر، وكان هذا منكم في مدينة مصر قبل أن تبرزوا إلى هذه الصحراء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لهم.

﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ .

قال ابن عباس: كان فرعون أول من صلب، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف، الرجل اليمنى واليد اليسرى، واليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا

تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِيٌّ ﴿١٠٠﴾

قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به: لَنْ نُؤْثِرَكَ فَتَتَّبِعَكَ وَنَكْذِبُ مِنْ أَجْلِكَ مُوسَى عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ يَعْنِي مِنَ الْحُجَجِ وَالْأَدْلَةِ عَلَى حَقِيقَةِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مُوسَى. وَعَلَى الَّذِي فَطَرْنَا.

فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ وَاصْنَعْ مَا أَنتَ صَانِعٌ، وَاعْمَلْ بِنَا مَا بَدَا لَكَ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا تَقْدِرُ أَنْ تَعَذِّبَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي تَفْنَى.

وَقَالَ السَّحَرَةُ لَمَّا تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بَقِطْعِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ لَا ضَيْرَ أَيُّ لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِيمَا يَلْحَقُنَا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا؛ أَيُّ إِنَّمَا عَذَابُكَ سَاعَةً فَنَصِيرُ لَهَا وَقَدْ لَقِينَا اللَّهَ مُؤْمِنِينَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ اسْتِبْصَارِهِمْ وَقُوَّةِ إِيْمَانِهِمْ.

قَالَ مَالِكٌ: دَعَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِرْعَوْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ السَّحَرَةَ آمَنُوا بِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؛ فَسَبَّحَانَ مَنْ بِيَدِهِ قُلُوبُ عِبَادِهِ؛ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ؛ فَمَنْ يَهْدِي اللَّهُ؛ فَلَا مَضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَانْظُرْ لِقُوَّةَ إِيْمَانِ السَّحَرَةِ، وَصَبْرِهِمْ عَلَى عَذَابِ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ وَإِنَّا أَقْرَرْنَا بِتَوْحِيدِهِ، وَصَدَقْنَا بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ. وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَلِيَعْفُو لَنَا عَنْ ذُنُوبِنَا فَيَسْتَرْهَا عَلَيْنَا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وَتَعَلَّمْنَا مَا تَعَلَّمْنَاهُ مِنْهُ، وَعَمَلْنَا بِهِ الَّذِي أَكْرَهْتَنَا عَلَى تَعْلُمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَذَكَرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ أَخَذَهُمْ بِتَعْلِيمِ السِّحْرِ.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٠١﴾ .

فَكَسَّرَ اللَّهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ، وَظَهَرَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.
(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

بَعْدَ أَنْ غَلَبَ مُوسَى فِرْعَوْنَ، وَأَسْلَمَ السَّحَرَةُ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُمْ فِرْعَوْنَ عَلَى مُوسَى وَانْحَاذُوا إِلَى مَعْسَكَرِ الْإِيْمَانِ؛ انْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى مَعْسَكَرَيْنِ، أَوْ فَرِيقَيْنِ: مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ.

فَالَّذِينَ آمَنُوا زَادُوا إِيمَانًا. وَالَّذِينَ كَفَرُوا زَادُوا كُفْرًا وَعِنَادًا، وَصَدًّا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، واجتمع بطانة فرعون يحثونه على قتل موسى، ومن معه ﴿وَقَالَ أَلَمْلَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

فَقَالَتْ جَمَاعَةٌ رِجَالٍ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لِفِرْعَوْنَ: أَتَدْعُ مُوسَى وَقَوْمَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَيُفْسِدُوا خَدَمَكَ وَعِبِيدَكَ عَلَيْكَ فِي أَرْضِكَ مِنْ مِصْرَ، ﴿وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلَكَ﴾ ويدع موسى خدمتك، وعبادتك وعبادة آلهتك.

هذا وقد ورد عن ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها. فأجابه فرعون فيما سألوا بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرًا من وجوده فكان خلاف ما رآه وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضًا إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده. ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل .

فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحق من عنده، وذلك بجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن الله ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ مَعَهُ﴾ من بني إسرائيل واستحيوا نساءهم واستبقوهن للخدمة.

فكان رد فرعون ردًا عاجزًا، وإن بدا قاهرًا؛ فحيلة العاجز يده، وحيلة المؤمن عقله كل بحسب؛ ﴿قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فنسقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل. ونستحيي نساءهم ونستقيي إناثهم.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وعالون عليهم بالقهر، يعني بقهر الملك والسلطان.

ولم يدر فرعون أنه يسعى بقدمه إلى إهلاك نفسه وأتباعه، ورغم أن الله قد أقام الحجة عليه بموسى إلا أن الله أراد أن يرسل له ناصحًا، ومذكرًا قبل أن يقضي عليه؛ هذا الناصح هو: ابن عمه - على أصح الأقوال - ، وهو فيما عرف بمؤمن آل فرعون.

وقيل: أن نهرح المكان يجدر بنا أن نقف على معنى السحر وحكمه في الإسلام:

السحر، وكيفية تعلمه، وحكمه في شريعة محمد

عليه الصلاة والسلام؟

اختلف أهل العلم في معنى السحر، فقال بعضهم: هو خدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر، حتى يخيل إلى المسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به نظير الذي يرى السراب من بعيد، فيخيل إليه أنه ماء، ويرى الشيء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته. وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثا يخيل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه.

قالوا: فكذلك المسحور ذلك صفته، يحسب بعد الذي وصل إليه من سحر الساحر أن الذي يراه أو يفعله بخلاف الذي هو به على حقيقته.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ لما سحر كان يُخِيلُ إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله.

وعنها رضي الله عنها، قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زُرَيْق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله.

وكان عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب يحدثان: أن يهود بني زريق عقدوا عَقْدَ سحر لرسول الله ﷺ، فجعلوها في بئر حزم حتى كان رسول الله ﷺ ينكر بصره ودله الله على ما صنعوا. فأرسل رسول الله ﷺ إلى بئر حزم التي فيها العقد فانتزعها، فكان رسول الله ﷺ يقول: «سَحَرْتَنِي يَهُودُ بَنِي زُرَيْقٍ».

وأنكر قائل هذه المقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته، واستسخر شيء من خلق الله إلا نظير الذي يقدر عليه من ذلك سائر بني آدم، أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها التي وصفنا.

وقالوا: لو كان في وسع السحرة إنشاء الأجسام وقلب لحقائق الأعيان عما هي به من الهيئات، لم يكن بين الحق والباطل فصل، ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة فقلبت أعيانها.

قالوا: وفي وصف الله جل وعزّ سحرة فرعون بقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخِيلُ

إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

وفي خبر عائشة عن رسول الله ﷺ أنه كان إذ سحر يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، أوضح الدلالة على بطول دعوى المدعين: أن الساحر ينشئ أعيان الأشياء بسحره، ويستسخر ما يتعذر استسخاره على غيره من بني آدم. كالموات والجماد والحيوان.

وقال آخرون: قد يقدر الساحر بسحره أن يحول الإنسان حمارا، وأن يسحر الإنسان والحمار وينشئ أعيانا وأجساما. واعتلوا في ذلك بما يلي:

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: قدمت عليّ امرأة من أهل دومة الجندل، جاءت تبغي رسول الله ﷺ بعد موته حَدَاثَةً ذَلِكَ، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به. قالت عائشة لعروة: يا ابن أخي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفئها، كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج فغاب عني، فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتني بكليين أسودين، فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، فإذا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر؟ فقالا: إنا نحن فتنة فلا تكفري وارجعي، فأبيت وقلت: لا، فقالا: اذهبي إلى ذلك التّور فبُولِي فيه فذهبت ففرغت فلم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم، فقالا: فهل رأيت شيئا؟ قلت: لم أر شيئا، فقالا لي: لم تفعل، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التّور فبُولِي فيه فذهبت، فاقشعررت وخفت. ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئا، فقالا: كذبت لم تفعل، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التّور فبُولِي فيه فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسا متقنعا بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه، فجنّتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ فقلت: فارسا متقنعا خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئا وما قال لي شيئا، فقالت: بلى، لن تريدي شيئا إلا كان، خذي هذا القمح فابذري فبذرت، فقلت: أطلعي فأطلعت، وقلت: أحقلي فأحقلت، ثم قلت: أفركي فأفركت، ثم قلت: أيسسي فأيسست، ثم قلت: أطحني فأطحنت، ثم قلت: أخبزني فأخبزت. فلما رأيت أني لا أريد شيئا إلا كان سقط في يدي وندمت والله يا أمّ المؤمنين، والله ما فعلت

شيئا قط ولا أفعله أبدا.

قالوا: لولا أن الساحر يقدر على فعل ما ادّعى أنه يقدر على فعله ما قدر أن يفرّق بين المرء وزوجه .

وقالوا: قد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يتعلمون من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، وذلك لو كان على غير الحقيقة وكان على وجه التخييل والحسبان، لم يكن تفريقا على صحة، وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يفرّقون على صحة. وقال آخرون: بل السحر أخذ بالعين.

وقالوا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ . وتأويل ذلك: وما يعلم الملكان أحدا من الناس الذي أنزل عليهما من التفريق بين المرء وزوجه حتى يقولأ له: إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم فلا تكفر بربك. كما قال: إذا أتاهما يعني هاروت وماروت إنسان يريد السحر وعظاه وقالأ له: لا تكفر إنما نحن فتنة. فإن أبى قالأ له: ائت هذا الرماد فبُلى عليه.

فإذا بال عليه خرج منه نور يسطع حتى يدخل السماء، وذلك الإيمان وقيل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء منه، فلذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر. فذلك قول الله: ﴿وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية.

وأقول كما قال أهل العلم: لا يجترىء على السحر إلا كافر. نسأل الله العافية.

فإن قال قائل: وكيف يفرّق الساحر بين المرء وزوجه؟

قيل: قد دللنا فيما مضى على أن معنى السحر تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته. فإن كان ذلك صحيحا بالذي استشهدنا عليه، فتفريقه بين المرء وزوجه تخيله بسحره إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به في حقيقته من حُسن وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لامرأته فراقا، فيكون الساحر مفرقا بينهما بإحداثه السبب الذين كان منه فرقة ما بينهما. وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا على أن العرب تضيف الشيء إلى مسببه من أجل تسببه وإن لم يكن باشر فعل ما حدث عن السبب، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه.

فَيُؤْخَذُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، وَيَبْغُضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ.
 وَبَقِيَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ بِقَدْرِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .
 فَالَّذِي يَفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، إِلَّا مَنْ قَدْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ أَنْ ذَلِكَ
 يَضُرُّهُ فَأَمَّا مَنْ دَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ ضَرَّهُ وَحَفَظَهُ مِنْ مَكْرُوهِ السَّحَرِ وَالنَّفَثِ وَالرُّقَى، فَإِنْ ذَلِكَ غَيْرُ
 ضَارِّهِ وَلَا نَائِلِهِ أَذَاهُ.

نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ مِنَ السَّحَرِ، وَالسَّحَرَةِ، وَأَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
 وَهَامَةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَةٍ.

لَمْ تَنْتَهِ قِصَّةُ مُوسَى؛ وَلَكِنَّ السِّيَاقَ يَسْتَلْزِمُ مِنَّا أَنْ نُعَرِّجَ عَلَى قِصَّةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ؛
 سَائِلًا رَبِّي الْعَوْنَ، وَالسَّدَادَ.



قصة مؤمن آل فرعون

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

بعد أن استجار موسى بربه، من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بالوحيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء، وإنما خصّ موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقاً، لم يكن للثواب على الإحسان راجياً، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفاً، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة. ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

جاء دور مؤمن آل فرعون؛ وقد اختلف أهل العلم في هذا كان من قوم فرعون، غير أنه كان قد آمن بموسى، وكان يُسرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفاً على نفسه. ويقال: وهو ابن عمّ فرعون الذي نجا مع موسى، وذكر أن اسم هذا الرجل المؤمن من آل فرعون: جبريل.

وذكر بعض المفسرين: أن اسم هذا الرجل حبيب. واختلف هل كان إسرائيلياً أو قبطياً فقال الحسن وغيره: كان قبطياً.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: « الصّدّيقون حبيب النجار مؤمن آل يس ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله والثالث أبو بكر الصّدّيق وهو أفضلهم » وفي هذا تسليّة للنبي ﷺ أي لا تعجب من مشركي قومك.

وكان هذا الرجل له وجاهة عند فرعون؛ فلهذا لم يتعرض له بسوء.

فحذرهم أنواعاً من العذاب كل نوع منها مهلك؛ فكأنه حذرهم أن يصيبهم العذاب الذي يقوله موسى في الدنيا وهو بعض الوعيد، ثم يترادف العذاب في الآخرة أيضاً. وقيل: وعدهم العذاب إن كفروا والثواب إن آمنوا، فإذا كفروا يصيبهم بعض ما وعدوا.

وتعجب هذا الرجل المؤمن من فعل فرعون وقومه؛ فسألهم سؤال استنكار: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ❖؟ تلك الكلمة قالها الصديق رضي الله عنه فيما رواه البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنعه المشركون برسول الله ﷺ؛ قال: بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ❖ لفظ البخاري.

وقال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث فأرادوا قتل رسول الله ﷺ، فأقبل هذا بجؤه وهذا يتلته، فاستغاث النبي ﷺ يومئذ فلم يغثه أحد إلا أبو بكر وله صغيرتان، فأقبل بجأ ذا ويتلثل ذا ويقول بأعلى صوته: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ❖ والله إنه لرسول الله؛ فقطعت إحدى صغيرتي أبي بكر يومئذ.

﴿يَقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ❖.

قال مؤمن آل فرعون؛ لفرعون وملئه: يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، ولكم السلطان على بني إسرائيل فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَيُدْفَعُ عَنَّا بَأْسَ اللَّهِ وَسُطُوتَهُ إِنْ حَلَّ بِنَا، وعقوبته إِنْ جَاءَنَا، فلا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بَأْسِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنَا بِسُوءٍ.

فقال فرعون لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ ❖ وما رأيكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحاً وصواباً، وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إِنْ لَمْ تَقْتُلُوهُ بِذَلِكَ دِينَكُمْ، وأظهر في أرضكم الفساد.

وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من لرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ ❖ وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعِغْلًا﴾ ❖ فقولهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ ❖ كذب فيه وافتري وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا

أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٥٥﴾ أي وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٥٦﴾ وقال جلت عظمتة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٥٧﴾ وفي الحديث « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » .

فرد مؤمن آل فرعون ﴿يَقُومُ لَكُمْ أَلْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴿٥٨﴾ ، وفي قوله: « يَا قَوْمِ » دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه فقال: « يَا قَوْمِ » ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه لكم أَلْمُلْكُ فاشكروا الله على ذلك. وأنتم ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿٥٩﴾ وغالبين إن أنتم آمنتم. والمراد بالأرض أرض مصر؛ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴿٦٠﴾ [يوسف: ٥٦] أي في أرض مصر.

وحذرهم من عقاب الله لهم في حال تمسكهم بالكفر، والعناد والصد عن دين الله الذي جاء به موسى ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴿٦١﴾ أي من عذاب الله تحذيراً لهم من نقمه إن كان موسى صادقاً، فذكر وحذر فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ﴿٦٢﴾ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسي ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٣﴾ في تكذيب موسى والإيمان بي.

فزادهم مؤمن آل فرعون في الوعظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٦٤﴾ يعني أيام العذاب التي عذب فيها المتحزبون على الأنبياء المذكورين فيما بعد.

﴿وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٦٥﴾ زاد في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل، أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم بقوله الحق ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا ﴿٦٦﴾ . و « التناد » بتخفيف الدال وهو يوم القيامة .

فائدة في معنى (التناد)

سمي يوم القيامة بيوم التناد: لأنه يوم مناداة الناس بعضهم بعضاً؛ فينادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ ، وتنادي الملائكة أصحاب الجنة ﴿تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُ﴾ ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ ، وينادي المنادي أيضاً بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. - نسأل الله سعادة الدنيا والآخرة -.

وينادي حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت. وينادي كل قوم بإمامهم إلى غير ذلك من النداء.

فيستجيب الناس على أحوال فمنهم من يستجيب بأعينهم بالدمع فيكون حتى ينفد الدمع، ثم تستجيب لهم أعينهم بالدم فينفد الدم، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح - نسأل الله العافية -.

فيرسل عليهم من الله أمر فيولون مدبرين، ثم تستجيب لهم أعينهم بالقيح، فيكون حتى ينفد القيح فتغور أعينهم كالخرق في الطين.

وقيل: إن هذا يكون عند نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور نفخة الفزع.

وقد روى والطبري وغيره من حديث أبي هريرة، وفيه: « فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل ما في بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُكَلِّمُ مَذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ » .

ونعود إلى مؤمن آل فرعون فلما لم يجد لما حذر به فرعون وقومه تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صِدْقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه

فلا تؤذوه فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يكن صادقاً وقد آذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهَامَانُ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِّفِرْعَوْنَ سَوَاءَ عَمَلِهِ وَصَدُّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝ ﴾ .

قال فرعون لما وعظه المؤمن من آله بما وعظه به وزجره عن قتل موسى نبي الله وحذره من بأس الله عليه؛ قال فرعون لوزيره، وزير السوء هامان: يا هامان ابني لي صرحاً لعلني أبْلُغُ الأسبابَ يعني بناءً عالياً.

لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ اختلف أهل التأويل في معنى الأسباب في هذا الموضع، فقال بعضهم: أسباب السموات: أي طُرُق السموات. وقيل أي أبواب السموات.

وقيل هو كل ما تُسَبَّبُ به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك. وأخذ يخاطب حاشيته فيقول لهم إني سأرقى في السماء لانظر كيف كذب علينا موسى - بزعمه - وإني لأظنّ موسى كاذباً فيما يقول ويدّعي من أن له في السماء ربا أرسله إلينا ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۝ ﴾ .

هذا وقد روى الطبري بسنده؛ عن ابن عباس رضي الله عنه: هو أوّل - أي فرعون - من صنع الآجرّ وبنى به. ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال - قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء - وأمر بطبخ الآجرّ والجص، ونشر الخشب، وضرب المسامير، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوا بحيث لم يبلغه بنیان منذ خلق الله السموات والأرض، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه.

حكى السدّي: أن فرعون صعد السطح ورمى بُشْبَابة نحو السماء، فرجعت متلطححة بدماء، فقال قد قتلت إله موسى. فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف، وقطعة في البحر، وقطعة في الغرب، وهلك كل من عمل فيه شيئاً. والله أعلم بصحة ذلك.

وهكذا زين الله لفرعون حين عتا عليه وتمردّ، قبيح عمله، حتى سوّلت له نفسه بلوغ أسباب السموات، ليطلع إلى إله موسى.

وصدّ فرعون عن سبيل الله التي ابتعث بها موسى استكباراً وعلواً.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وما احتيال فرعون الذي يحتال للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسار وذهاب مال وغبن، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرح باطلاً، ولم ينل بما أنفق شيئاً مما أراد، فذلك هو الخسار والتباب.

فلما وجد موسى من فرعون العناد والاستكبار؛ أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه المواجهة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِلَىٰ عُذَّتْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَيَّ فَأَعْتَزَلُونَ﴾.

وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش: أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس، وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فإن كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيئاً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سيديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

وكرر ذلك المؤمن نصحه وتذكيره ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

فإن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. يقول: إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ يقول لقومه: ما هذه الحياة الدنيا العاجلة التي عجلت لكم في هذه الدار إلا متاع تستمتعون بها إلى أجل أنتم بالغوه، ثم تموتون وتزول عنكم وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دار القرار التي تستقرون فيها فلا تموتون ولا تزول عنكم، فلها

فاعملوا، وإياها فاطلبوا. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي استقرت الجنة بأهلها، واستقرت النار بأهلها.

فإن من يتمتع بالدنيا فقد تمتع بما قليلاً ثم تنقطع وتزول. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ الاستقرار والخلود. ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأتهما لا يفنيان. بين ذلك بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أي إلى طريق الإيمان الموصل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وهو يعني ما قاله فرعون حين قال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فهو سبيل الغي عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه؛ ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي إنه لأمر حق. ﴿أَلَمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وما معنى الذي أي الذي تدعونني إليه ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ وليس له استحابة عند الله؛ وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾.

وقال الكلبي: ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة. وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ثم دعاهم إلى عبادة البقر، فكانت تُعبد ما كانت شابة، فإذا هَرِمَت أمر بذبحها، ثم دعا بأخرى لتعبد، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلى.

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ويعني بالمُسرفين: المشركون.

وقال مجاهد والشعبي: هم السفهاء والسفاكون للدماء بغير حقها.

وقال عكرمة: الجبارون والمتكبرون.

وقيل: هم الذين تعدوا حدود الله.

ثم هددهم وتوعدهم؛ فقال: ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ إذا حلّ بكم العذاب. ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي أتوكل عليه وأسلم أمري إليه. فإنه الكافي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فالله عالم بأمور عباده، ومن المطيع منهم، والعاصي له، والمستحق جميل الثواب، والمستوجب سيئ العقاب.

فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء، فنجاه منه ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ .

ثم حل بآل فرعون ووجب عليهم هم وكل من تبعهم وأهل طاعة فرعون أشد العذاب، ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو ما ساءهم من عذاب الله، ونار جهنم. ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ .

فبين تعالى ذكره؛ سوء العذاب الذي حلَّ هؤلاء الأَشقياء من قوم فرعون وحق بهم من سوء عذاب الله ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ .
فإنهم لما هلكوا وغرقهم الله، جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كل يوم مرتين غُدُوًّا وَعَشِيًّا إلى أن تقوم الساعة.
فعن السدي، قال: بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا، حتى تقوم الساعة.

وعن حماد بن محمد الفزاري البلخي، قال: سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال: رحمك الله، رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضا، فوجا فوجا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودا، قال: وقطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها، وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل ريش بيض، وتتناثر السود، ثم تغدو، ويُعرضون على النار غُدُوًّا وَعَشِيًّا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة، قال الله: أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ قالوا: وكانوا يقولون: إنهم ستمائة ألف مقاتل. والله أعلم.

وليس في الآخرة ليل ولا نصف نهار، وإنما هو بُكرة وعشي، وذلك في القرآن في آل فرعون ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وكذلك قال لأهل الجنة لهم رزقهم فيها بُكرة وَعَشِيًّا.

وقيل: عني بذلك: أنهم يعرضون على منازلهم في النار تعذيبا لهم غُدُوًّا وَعَشِيًّا.

فعن قتادة ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قال: يُعرضون عليها صباحاً ومساءً، يقال لهم: يا آل فرعون هذه منازل لكم، تويخا ونقمة وصغاراً لهم.

وهذا ما كانت الدنيا، وبقيت إلى يوم القيامة.

فإذا قامت ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ - نسأل الله العافية -.

وعن ميمون بن مهران؛ أنه قال: كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعُرض آل فرعون على النار. فإذا أمسى نادى: أمسينا والحمد لله وعُرض آل فرعون على النار؛ فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار.

وفي حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرض على النار بالغداة والعشي»؛ ثم تلا ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، «وإن المؤمن إذا مات عُرض روحه على الجنة بالغداة والعشي».

وخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» - .

اللهم نسألك مقاعد الجنة ومجاورة نبيك محمد ﷺ؛ بغير سابقة حساب ولا سؤال.

روى ابن مسعود عن النبي ﷺ «إن العبد يولد مؤمناً ويحياً مؤمناً ويموت مؤمناً منهم يحيى بن زكريا ولد مؤمناً وحيى مؤمناً ومات مؤمناً وإن العبد يولد كافراً ويحياً كافراً ويموت كافراً منهم فرعون ولد كافراً وحيى كافراً ومات كافراً» ذكره النحاس.

فالحمد لله الذي جعلنا من أصلاب أهل الإسلام، وأبناء أرحامهم، وإلى تنمة قصة النبي موسى كليم الله، والله المستعان.



تتمة قصة موسى عليه السلام

بعد أن ذكرنا قصة النصيحة الأخيرة لفرعون وأتباعه ، والتي قام بها مؤمن آل فرعون؛ نشرع هنا في ذكر نهاية فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، وهي التي كانت ولا بد من حصولها؛ نصراً لأولياء الله، وخذلاناً لأعداءه.

فقد بدأت نذر العذاب الدنيوي تظهر في الأفق وتدنوا من فرعون وقومه؛ نقص في الثمرات، قحط، طوفان، آيات وجنود ربانية؛ وما ذاك إلا يسير من عذاب الآخرة، وكانت تذكيراً لفرعون وقومه لعلهم....!!

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾.

فاختبر الله فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالسنين، والقحط. ونقص من الثمرات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ عظة لهم وتذكيراً لهم، لينزجروا عن ضلالتهم ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

وعن قتادة، أخذهم الله بالسنين والجوع عاما فعاما. ونقص من الثمرات فأما السنين فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم، وأما بنقص من الثمرات فكان ذلك في أمصارهم وقراهم.

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم قَالُوا لَنَا هَذِهِ نحن أولى بها. ﴿ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ من جذب وقحط وبلاء، ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ ﴾ ويتشاءموا بهم ويقولوا: ذهبت حظوظنا وأنصابنا من الرخاء والخصب والعافية، منذ جاءنا موسى، وقالوا: ما أصابنا هذا إلا بك يا موسى وبمن معك، ما رأينا شراً ولا أصابنا حتى رأيناك. وقد قال مثلها قوم صالح: ﴿ أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ ﴾ فقال الله: ﴿ إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

وهنا في نفس الآية يقول الله جل ذكره ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٢٧٥﴾ . أي ألا إن طائر آل فرعون وغيرهم، وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب إلا عند الله. ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك كذلك، فلجهلهم بذلك كانوا يطِّرون بموسى ومن معه.



فائدة في معنى الطيرة والتطير، والنهي عن ذلك

الأصل في الطَّيْرَةِ: هو ما كان يفعله العرب من زَجَر الطَّيْرِ، فكانوا يتفائلون بالطير السانح وهو الذي يأتي من ناحية اليمين. ويتشاءمون بالبارح؛ وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. ثم كثر استعمالهم حتى قيل لكل من تشاءم: تَطَيَّر. وكانوا يتطيرون أيضاً بصوت الغراب؛ ويتأولونه البَيْن. وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضاً على أمور، وبأصواتها في غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك.

وهكذا الظباء إذا مضت سائحة أو بارحة، ويقولون إذا برحت: مَنْ لِي بالسَّانِح بعد البارح. إلا أن أقوى ما عندهم كان يقع في جميع الطير؛ فسموا الجميع تَطَيِّراً من هذا الوجه. وتطير الأعاجم إذا رأوا صبيّاً يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتمنون برؤية صبي يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون برؤية السقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتمنون برؤية فارغ السقاء مفتوحة «قربته»؛ ويتشاءمون بالحمال المثقل بالحمل، والدابة الموقرة، ويتمنون بالحمال الذي وضع حملة، والدابة يحطّ عنها ثقلها.

فجاء الإسلام بالنهي عن التطير والتشاؤم بما يسمع من صوت طائر ما كان، وعلى أي حال كان؛ فقال عليه السلام: «أَقْرِؤُوا الطير على مكاناتها».

وذلك إن كثيراً من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة أتى الطير في وكرها فنفرها؛ فإذا أخذت ذات اليمين مضى لحاجته، وهذا هو السانح عندهم. وإن أخذت ذات الشمال رجع، وهذا هو البارح عندهم. فنهى النبي ﷺ عن هذا بقوله: «أَقْرِؤُوا الطير على مكاناتها».

والوَكْنَةُ: أسم لكل وكر وعش. والوكن: موضع الطائر الذي يبيض فيه ويُفْرَخ، وهو الخرق في الحيطان والشجر. ويقال: وَكَنَ الطائر يَكُنْ وَكُونًا إذا حضن بيضه. وكان أيضاً من العرب من لا يرى التطير شيئاً، ويمدحون من كذب به. قال المرقش:

ولقد غَدَوْتُ وَكَنْتُ لَا أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَامٍ
فَإِذَا الْأَشَائِمُ كَالْأَيَا مِنْ وَالْأَيَامِنْ كَالْأَشَائِمِ

وقال عكرمة: كنت عند ابن عباس فمرّ طائر يصيح؛ فقال رجل من القوم: خير، خير.

فقال ابن عباس: ما عند هذا لا خير ولا شر.

قال علماؤنا: وأما أقوال الطير فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن فضلاً عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير؛ إلا ما كان الله تعالى خص به سليمان عليه السلام من ذلك، فالتحق التطير بجملة الباطل. والله أعلم.

ومن الأحاديث الصريحة أيضاً في النهي عن التطير؛ قوله عليه السلام: «ليس منا من تحلم أو تكهن أو رده عن سفره تطير».

وروى أبو داود عن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه السلام قال: «الطيرة شرك - ثلاثاً - وما منا إلا - ولكن الله يذهب بالتوكل». وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله عليه السلام قال: «من رجعت الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قيل: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: «أن يقول أحدهم اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك ثم يمضي لحاجته».

وفي خبر آخر: إذا وجد ذلك أحدكم فليقل «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لا حول ولا قوة إلا بك؛ ثم يذهب متوكلاً على الله؛ فإن الله يكفيه ما وجد في نفسه من ذلك، وكفاه الله تعالى ما يُهمّه».

ونرجع إلى آل فرعون؛ ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتُتَسَحَّرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. أمعن آل فرعون في العناد لموسى فمهما يأتيهم من علامة ودلالة ليلفتهم عما هم عليه من دين فرعون، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي فما نحن لك في ذلك بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مَقْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

عن ابن عباس، قال: لما جاء موسى بالآيات، كان أول الآيات الطوفان، فأرسل الله عليهم السماء.

أي أن الله أرسل عليهم سيول الماء؛ التي تغرق الحرث والنسل.

وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله عليه السلام سبع غزوات نأكل

الجراد وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال » فقال : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه.

والقمل تعيش فيهم وتدخل في فراشهم فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم من النوم أو الراحة، والصفاد يجدونه في طعامهم؛ فلا يستطيعون معها طعاما، والدم في شراهم؛ فلا يستطيعون معه سقيا.

فعن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل.

فأنبت لهم في تلك السنة شيئا لم ينبت قبل ذلك من الزرع والثمار والكأ فقالوا: هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكأ، فلما رأوا أثره في الكأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا لموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا.

فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل.

فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الصفاد ويهم أن يتكلم فتشب الضفدع في فيه، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الصفاد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا.

وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد

سحركم، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطاً فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل .

فأبى عدو الله فرعون إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه مرة أخرى الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركذ لا يقدرّون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً فلما بلغهم ذلك ﴿ قَالَُوا يَمُوسَى أَذْغَ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل؛ فأمر الله موسى عليه السلام أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فانتال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرارة، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطاً.

هذا؛ والله سبحانه يمهلهم بحلمه ويتوعددهم بآياته، ولا يعجل عليهم فيقضي عليهم من أولها، ولكن الله عزيز ذو انتقام، أخذه شديد، وبأسه عتيد، وقد قدم الوعيد، ولكن كانوا في ضلال بعيد، فالحمد لله الذي ذل الجبابرة، وأرغم أنوف الفراعنة والقياصرة، فالحمد له في الأولى والآخرة.

هلاك فرعون وجنوده وغرقهم

لما تهادى فرعون وقومه في العناد، وصدوا موسى عن الدعوة لدين الله؛ فما آمن به إلا ذرية من قوم موسى على خوف من بطش فرعون وعذابه؛ كما قال جل ذكره ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِلَهُ لَّمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ .

فلم يؤمن لموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا ذرية من قومه خائفين من فرعون وملئهم.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى الذرية في هذا الموضع، فقال بعضهم: الذرية في هذا الموضع: القليل. قاله: ابن عباس .

وقال آخرون: معنى ذلك: فما آمن لموسى إلا ذرية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل لطول الزمان لأن الآباء ماتوا وبقي الأبناء، فقليل لهم ذرية، لأنهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل إليهم موسى عليه السلام.

وقيل: كانت الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

فإن فرعون كان جبار مستكبر على الله في أرضه. وإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ والمتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به وجحوده وحدانية الله وأدعائه لنفسه الألوهية وسفكه الدماء بغير حلها.

فجمع موسى عليه السلام كل من آمن به وصدق رسالته، ووعظهم ونصحهم ليثبتهم على الدين الحق، وقال لهم ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُومِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

فاشترط عليهم إن كنتم صدقتم؛ فعليكم بالتوكل على الله، وبيّن أن كمال الإيمان بتفويض الأمر إلى الله. فأجابوا: أسلمنا أمورنا إليه، ورضينا بقضائه وقدره، وأنهينا إلى أمره. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فلا تنصرهم علينا، فيكون ذلك فتنة لنا عن الدين، ولا

تتحنا بأن تعذبنا على أيديهم. ولا هلكنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذبنا بعذاب من عندك، فيقول أعداؤنا: لو كانوا على حق لم نسلط عليهم؛ فيفتنوا. أو يقال: أنهم خير منا فيزدادوا طغياناً.

فأوحى الله لموسى ﴿ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا بَمِصْرَ بِيوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلون إلا في مساجدهم وكنائسهم وكانت ظاهرة، فلما أرسل موسى أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها ومنعوا من الصلاة؛ فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذوا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، أي مساجد، ولم يرد المنازل المسكونة. وأجعلوا مساجدكم إلى القبلة؛ قيل قبلتهم كانت: بيت المقدس، وهي قبلة اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر. وقيل الكعبة.

عن ابن عباس قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه، وهذا يدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام، ولم تخل الصلاة عن شرط الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة.

وقيل: المراد صلوا في بيوتكم سرّاً لتأمنوا؛ وذلك حين أخافهم فرعون فأمرؤا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاء إلى أن ينجز الله وعده، وهو المراد بقوله: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴾ [الأعراف: ١٢٨] الآية.

وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم.



صلاة البيوت في شريعة محمد ﷺ

خصت أمة الإسلام بالصلاة في جميع الأرض؛ كما في الصحيح قوله عليه السلام: « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » ، وهذا مما خُصَّ به دون الأنبياء؛ فنحن بحمد الله نصلي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة؛ إلا أن النافلة في المنازل أفضل منها في المساجد، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها. وقبل الصلوات المفروضة وبعدها؛ إذ النوافل يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلص العمل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى.

روى مسلم عن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ تطوَّعها قالت: « كان يصلي في بيته قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلِّي بالناس، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء، ويدخل بيته فيصلِّي ركعتين... » الحديث.

وعن ابن عمر قال: صليت مع النبي ﷺ قبل الظهر سجدةً وبعدها سجدةً وبعدها المغرب سجدةً؛ فأما المغرب والعشاء والجمعة فصليت مع النبي ﷺ في بيته. وروى أبو داود عن كعب بن عُجرة. أن النبي ﷺ أتى مسجد بني الأشهل فصلَّى فيه المغرب؛ فلما قضوا صلاتهم رأهم يسبحون بعدها فقال: « هذه صلاة البيوت » .

وآختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان، هل إيقاعه في البيت أفضل أو في المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضل لمن قوَّى عليه، وبه قال أبو يوسف وبعض أصحاب الشافعي. وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعض أصحاب الشافعي إلى أن حضورها في الجماعة أفضل. وقال الليث: لو قام الناس في بيوتهم ولم يقيم أحد في المسجد لا ينبغي أن يخرجوا إليه. والحجة لمالك ومن قال بقوله قوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت: « فعليكم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » خرَّجه البخاري. احتج المخالف بأن النبي ﷺ قد صلاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منع منه على الدوام على ذلك، وهو خشية أن تفرض عليهم فلذلك قال لهم: « فعليكم بالصلاة في بيوتكم » . ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزاعاً متفرقين، إلى أن جمعهم عمر على قارىء واحد

فاستقر الأمر على ذلك وثبت سنة. والله أعلم.

ونرجع إلى موسى فقد دعا ربه أن يطمس عل أفئدة فرعون وقومه، وأن يذهب بأموالهم؛ فقال عليه السلام فيما أخبر عنه ربه جل وعلا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ .

قيل : أن كان لهم مال من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن الذهب والفضة والزبرجد والزمرد والياقوت؛ فلأنه لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليضلوا، ويضطروا ويتكبروا. فعاقبهم الله - في الدنيا - على كفرهم بإهلاك أموالهم. وطمس عليها؛ وطمس الشيء إذهابه عن صورته.

قال ابن عباس: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد.

وقال محمد بن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين؛ قال: وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإها لحجارة. وقال السدي: وكانت إحدى الآيات التسع.

ومنعهم الله من الإيمان. بأن جعل قلوبهم قاسية، وطبع عليها حتى لا تنشرح لذكر الله. وقد استشكل بعض الناس هذه الآية فقال: كيف دعا موسى عليهم والرسول تصير على قومهم .

فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعو نبي على قومه إلا بإذن من الله، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلاتهم من يؤمن؛ والدليل قول الله عز وجل لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَن يُوْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ۝﴾ [هود: ٣٦] وعند ذلك قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝﴾ [نوح: ٢٦] . والله أعلم.

فاستجاب الله لموسى وهارون دعواتهما فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾ .

وهذا خبر من الله عن إجابته لموسى ﷺ وهارون دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم..

وأمرهما اله الله بالاستقامة « فاستقيما » فإنه أمر من الله تعالى لموسى وهارون بالاستقامة والثبات على أمرهما من دعاء فرعون وقومه إلى الإجابة إلى توحيد الله وطاعته، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذي أخبرهما أنه أجهما فيه.

﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ فلا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وعد الله، فتستعجلان قضائه، فإن وعده لا خالف له، وإن وعيده نازل بفرعون وعذابه واقع به وبقومه.



الغرق. الغرق. الغرق

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِيَّكُمْ مَّتَّبِعُونَ ﴾ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشُرُومَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ * فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَىٰ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُّوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * .

لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه، أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى. ومعنى: ﴿ إِيَّكُمْ مَّتَّبِعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم. وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم؛

فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحْرًا، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسرّ موسى ببني إسرائيل، خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان.

قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل.

وأخذ فرعون يهون من شأن موسى ومن معه ووصفهم بالشُرُومَة؛ والشُرُومَة الجمع القليل المحتقر والجمع الشُّرَازِم. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا. ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أي نحن ممتلئون غيظًا عليهم.

فأخرجهم الله من أرضهم؛ لمصرهم ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعني من أرض مصر.

وعن عبد الله بن عمرو قال: كانت الجنات بحافتي النيل في الشَّقَّتَيْنِ جميعاً من أسوان إلى رشيد، وبين الجنات زروع. والنيل سبعة خلجان: خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج سرْدُوس، وخليج مَنَف، وخليج الفيوم، وخليج المنهَى متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء، والزروع ما بين الخلجان كلها.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ؛ فجميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بني إسرائيل.

قال الحسن وغيره: رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، وورثوا ذلك كله.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ﴾ .

ولحق فرعون بجمعه، وجمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُذْرَكُونَ﴾ فردّ عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلني على طريق النجاة .

فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أي الجبل العظيم .

فصار لموسى وأصحابه طريقاً في البحر يَسّاً؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون؛ انصب عليهم وغرق فرعون؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون؛ فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه.

روايات غرق فرعون

الأولى: روى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجالان من التجار إلى البحر فلما أتوا إليه قالوا له: أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاي هذه فينقلب؛ فقالوا له: افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما في البحر تصديقاً له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان.

وأوحى الله إلى البحر فيما ذكر إذا ضربك موسى بعصاه فانقلب له، قال: فبات البحر يضرب بعضه بعضاً فرّقاً من الله وانتظار أمره، فأوحى الله جل وعزّ إلى موسى: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه، ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي كالجبل على ييس من الأرض.

يقول الله لموسى: ﴿اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى﴾ ؛ فلما استقرّ له البحر على طريق قائمة يَبَسٍ سلك فيه موسى ببني إسرائيل، وأتبعه فرعون بجنوده.

فلما دخل بنو إسرائيل البحر، فلم يبق منهم أحد، أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذه فعرض له جبريل على فرس أنثى ودقيق، فقرّبها منه فشمها الفحل، فلما شمها تبعها، فتقدم معها الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون قد دخل دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتبعون فرعون وميكائيل على فرس من خلف القوم يسوقهم، يقول: الحقوا بصاحبكم.

حتى إذا فصل جبريل من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى وليس خلفه أحد، طبق عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله عزّ وجلّ وقدرته ما رأى وعرف ذلته وخذلته نفسه: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، وهيئات هيئات ثم هيئات!!.

الرواية الثانية: أنه لما خرج موسى ببني إسرائيل بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى يصيح الديك. قال: فوالله ما صاح ليلتذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه

ستمائة ألف من القبط. ثم سار، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمرك ربك يا موسى؟ قال: أما ملك يشير إلى البحر. فأقحم يوشع فرسه في البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به ثم رجع، فقال: أين أمرك ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم أوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يقول: مثل جبل. قال: ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ قال معمر: قال قتادة: كان مع موسى ستمائة ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومائة ألف حصان. فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر وأوحى إلى البحر: أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك. قال: فثاب البحر له أفكل يعني له رعدة لا يدري من أيّ جوانبه يضربه، قال: فقال يوشع لموسى: بماذا أمرت؟ قال: أمرت أن أضرب البحر. قال: فاضربه قال: فضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق، فكان فيه اثنا عشر طريقاً، كل طريق كالطود العظيم، فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه. فلما أخذوا في الطريق، قال بعضهم لبعض: ما لنا لا نرى أصحابنا؟ قالوا لموسى: أين أصحابنا لا نراهم؟ قال: سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم. قالوا: لا نرضى حتى نراهم.

قال سفيان، قال عمار الدهني: قال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة. قال: فأوحى الله إليه: أن قل بعصاك هكذا وأوماً إبراهيم بيده يديرها على البحر قال موسى بعصاه على الحيطان هكذا، فصار فيها كُؤى ينظر بعضهم إلى بعض، فساروا حتى خرجوا من البحر، فلما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون على البحر هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذئوب حصان. فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وديق. فلما رآها الحصان تقهّم خلفها، وقيل لموسى: اترك البحر رهوا قال: طرقا على حاله قال: ودخل فرعون وقومه في البحر، فلما دخل آخر قوم فرعون وجاز آخر قوم موسى أطبق البحر على فرعون وقومه فأغرقوا.

الرواية الثالثة: عن السدي: أن الله أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل، فقال: ﴿أَسْرِ بَعَادِي لَيْلًا إِنْكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ فخرج موسى وهارون في قومهما، وألقي على القبط الموت فمات كل بكر رجل. فأصبحوا يدفنونهم، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس، فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فكان موسى على ساقه بني إسرائيل،

وكان هارون أمامهم يقدمهم. فقال المؤمن لموسى: يا نبي الله، أين أمرت؟ قال: البحر. فأراد أن يقتحم، فمنعه موسى. وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل، لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره، وإنما عدوا ما بين ذلك سوى الذرية. وتبعهم فرعون وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ليس فيها ماذبانه، يعني الأنثى وذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿فَارْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يعني بني إسرائيل.

فتقدم هارون، فضرب البحر، فأبى البحر أن يفتح، وقال: من هذا الجبار الذي يضربني؟ حتى أتاه موسى، فكناه أبا خالد وضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم يقول: كالجبل العظيم. فدخلت بنو إسرائيل. وكان في البحر اثنا عشر طريقا، في كل طريق سبط، وكانت الطرق انفلقت بجدران، فقال كل سبط: قد قتل أصحابنا: فلما رأى ذلك موسى، دعا الله، فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيِّقان. فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعا. ثم دنا فرعون وأصحابه، فلما نظر فرعون إلى البحر منفلقا، قال: ألا ترون البحر فرق مني قد انفتح لي حتى أدرك أعدائي فأقتلهم؟ فذلك حين يقول الله جل ثناؤه: ﴿وَأَرْزَلْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ﴾ أي قربنا ثم الآخرين يعني آل فرعون.

فلما قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذبانه، فشام الحصان ريح الماذبانه، فاقتحم في أثرها، حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم، فالتطم عليهم.

الرواية الرابعة: عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: لما أخذ عليهم فرعون الأرض إلى البحر قال لهم فرعون: قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين.

فلما رآهم أصحاب موسى، قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فقال موسى للبحر: أأست تعلم أي رسول الله؟ قال: بلى. قال: وتعلم أن هؤلاء عباد من عباد الله أمري أن آتي بهم؟ قال: بلى. قال: أتعلم أن هذا عدو الله؟ قال: بلى. قال: فانفرق لي طريقا ولمن معي. قال: يا موسى، إنما أنا عبد مملوك ليس لي أمر إلا أن يأمرني الله تعالى.

فأوحى الله عز وجل إلى البحر: إذا ضربك موسى بعصاه فانفرق، وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسَا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ وقرأ قوله: ﴿وَأَثَرُكَ الْبَحْرِ رَهْوَ﴾ سهلا ليس فيه تعد. فانفرق اثني عشرة

فرقة، فسلك كل سبط في طريق. قال: فقالوا لفرعون: إنهم قد دخلوا البحر. قال: ادخلوا عليهم، قال: وجبريل في آخر بني إسرائيل يقول لهم: ليلحق آخركم أولكم. وفي أول آل فرعون، يقول لهم: رويدا يلحق آخركم أولكم. فجعل كل سبط في البحر يقولون للسبط الذين دخلوا قبلهم: قد هلكوا.

فلما دخل ذلك قلوبهم، أوحى الله جلّ وعزّ إلى البحر، فجعل لهم قناطر ينظر هؤلاء إلى هؤلاء، حتى إذا خرج آخر هؤلاء ودخل آخر هؤلاء أمر الله البحر فأطبق على هؤلاء.

وهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي تنظرون إلى فرق الله لكم البحر وإهلاكه آل فرعون في الموضع الذي نجاكم فيه، وإلى عظيم سلطانه في الذي أراكم من طاعة البحر إياه من مصيره رُكاما فرقا كهيئة الأطواد الشاخخة غير زائل عن حدّه، انقيادا لأمر الله وإذعانا لطااعته، وهو سائل ذائب قبل ذلك.

وهلك فرعون وجنوده وعلا الحق وزهق الباطل، وأقيمت التوراة التي أنزلت على موسى ورفع نوار الدين وحُمد الله ووحد. والحمد لله رب العالمين.

وبالجملة، فقد كانت تلك قصة موسى بعد أن اختصرت بعضها، ولكن بالجملة؛ فإن شريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة، وأتمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعُباد وزهاد وألّباء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء، لكنهم كانوا فبادوا، وتبدّلوا كما بُدّلت شريعتهم ومسّحوا قرده وخنازير، ثم نُسخت ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها. ففقتعت بذكر ماسبق.

(والحمد لله رب العالمين)



قصة صاحب يس

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ * إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ .

يضرب الله عز وجل مثلاً آخر من أمثلة الإيمان الذي يتجلى من بين ركام الكفر والشرك؛ فيصيب بنوره من يشاء له الله الهداية، ويعمي من كتب الله عليه الضلالة.

والمثل الذي معنا الآن هو: حبيب بن مري ، ذلك المؤمن الذي وقف متحدياً عناد الكفر، وصلفه.

اسمه حبيب النجار، وكان - في غالب الأقوال - يَنْتَحَتِ الأصنام.

قال وهب: وكان حبيب مجذوماً، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، وكان يَعْكِفُ على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما أَسْتَجَابُوا لَهُ، فلما أبصر الرسل الذين ورد ذكرهم في سورة يس ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿ [يس : ١٣-١٤] .

هؤلاء الرسل أرسلوا إلى القرية التي كان فيها حبيباً؛ وكانوا رسل عيسى بن مريم عليه السلام، فقبل أن عيسى بن مريم بعث رجلين من الحوارين إلى أنطاكية ، وهي مدينة بالروم فكذبوها ، فأعزَّهما بثالث ، ﴿ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ .

وعن وهب بن منبه، قال: كان بمدينة أنطاكية، فرعون من الفراعنة يقال له أبطيحس بن أبطيحس يعبد الأصنام، صاحب شرك، فبعث الله المرسلين، وهم ثلاثة: صادق، ومصدق، وسلوم، فقدم إليه وإلى أهل مدينته، منهم اثنان فكذبوها، ثم عزَّز الله بثالث فلما دعت الرسل

ونادته بأمر الله، وصدعت بالذي أُمِرت به، وعابت دينه، وما هم عليه، قال لهم ذاك الملك:

﴿ إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وذكر القرطبي أن نبي الله عيسى عليه السلام أرسل إليهم رسولين، فلقيا شيخاً يرعى غُنيّات له وهو حبيب النجار صاحب «يَس» فدعوه إلى الله وقالوا: نحن رسولاً عيسى ندعوك إلى عبادة الله. فطالِبهما بالمعجزة فقالا: نحن نشفي المرضى وكان له أبْن مجنون.

وَقِيلَ: مَرِيضٌ عَلَى الْفَرَاشِ فَمَسَحَاهُ، فَقَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ صَحِيحًا؛ فَأَمَّنَ الرَّجُلُ بِاللَّهِ.

وقيل: هو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ففشا أمرهما، وشفياً كثيراً من المرضى، فأرسل الملك إليهما - وكان يعبد الأصنام - يستخبرهما فقالا: نحن رسولا عيسى. فقال: وما آيتكما؟ قالا: نرى الأكمه والأبرص ونرى المريض بإذن الله، وندعوك إلى عبادة الله وحده. فهم الملك بضرهما.

وقال وهب: حبسهما الملك وجلدهما مائة جلدة؛ فأنتهى الخبر إلى عيسى فأرسل ثالثاً.

قيل: اسمه: شمعون الصفا رأس الحوارين أرسله لنصرهما؛ فعاشر حاشية الملك حتى تمكن منهم، وأستأنسوا به، ورفعوا حديثه إلى الملك فأنس به، وأظهر موافقته في دينه، فرضي الملك طريقته؛ ثم قال يوماً للملك: بلغني أنك حبست رجلين دعواك إلى الله، فلو سألت عنهما ما وراءهما.

فقال: إن الغضب حال بيني وبين سؤالهما.

قال: فلو أحضرتهما. فأمر بذلك؛

فَقَالَ لَهَا شَمْعُونِ: مَا بَرَّهَانُكُمْ عَلَى مَا تَدَّعِيَانِ؟

فقالا: نبرىء الأكمه والأبرص. فجيء بغلام ممسوح العينين؛ موضع عينيه كالجبهة، فدعوا ربهما فأنشق موضع البصر، فأحذا بندقتين طيناً فوضعهما في خديه، فصارتا مقلتين يبصر بهما.

فَعَجِبَ الْمَلِكُ وَقَالَ: إِنْ هَاهُنَا غُلَامًا مَاتَ مِنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَلَمْ أَدْفِنِهِ حَتَّى يَجِيءَ أَبُوهُ فَهَلْ يَجِيئُهُ رِبْكَمَا؟ فَدَعَا اللَّهَ عَلَانِيَةً، وَدَعَا شَمْعُونَ سِرًّا، فَقَامَ الْمَيِّتَ حَيًّا، فَقَالَ لِلنَّاسِ: إِنِّي مِتُّ مِنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَوُجِدْتُ مُشْرَكًا، فَأَدْخَلْتُ فِي سَبْعَةِ أَوْدِيَةِ مِنَ النَّارِ، فَأَحْذَرَكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ، ثُمَّ فَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَرَأَيْتُ شَابًّا حَسَنَ الْوَجْهِ يَشْفَعُ لَهُؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ شَمْعُونَ

وصاحبيه، حتى أحياني الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن عيسى روح الله وكلمته، وأن هؤلاء هم رسل الله.

فقالوا له: وهذا شمعون أيضاً معهم؟ فقال: نعم وهو أفضلهم. فأعلمهم شمعون أنه رسول المسيح إليهم، فأثر قوله في الملك، فدعاه إلى الله، فأمن الملك في قوم كثير وكفر آخرون.

وحكى القشيري أن الملك آمن ولم يؤمن قومه، وصاح جبريل صيحة مات كل من بقي منهم من الكفار.

وروي أن عيسى لما أمرهم أن يذهبوا إلى تلك القرية قالوا: يا نبي الله إنا لا نعرف أن نتكلم بالسنتهم ولغاتهم. فدعا الله لهم فناموا بمكانهم، فهبوا من نومتهم وقد حملتهم الملائكة فألقتهم بأرض أنطاكية، فكلم كل واحد صاحبه بلغة القوم؛ فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾.

فدعا الرسل حبيباً إلى عبادة الله فقال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القادر فيفرج عنك ما بك. فقال: إن هذا لعجب! أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عني فلم تستطع، فكيف يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر.

فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به، كأن لم يكن به بأس؛ فحينئذ أقبل على التكسب، فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف، فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم ﴿فَقَالَ يَوْمَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية.

وقال قتادة: كان يعبد الله في غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعي، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجراً؟ قالوا: لا؛ ما أجرنا إلا على الله. قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وآمن بهم وأقبل على قومه ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾ فلو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فاهتدوا بهم. ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

قال قتادة: قال له قومه أنت على دينهم؟! فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقتني. ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا احتجاج منه عليهم. وأضاف الفطرة إلى نفسه؛ لأن

ذلك نعمة عليه توجب الشكر، والبعث إليهم؛ لأن ذلك وعيد يقتضي الزجر؛ فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرًا، وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثرًا.

﴿ اأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ يعني أصنامًا. ﴿ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ﴾ ﴿ يَخْلُصُونِي مِمَّا أَنَا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ إِنَّي إِذَا ﴾ يعني إن فعلت ذلك ﴿ لَنُفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي خسران ظاهر. ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُون ﴾ .

قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله رهم. ومعنى « فاسمعون » أي فأشهدوا، أي كونوا شهودي بالإيمان. وقال كعب وهب: إنما قال ذلك لقومه إنني آمنت بربكم الذي كفرتم به.

وقيل: إنه لما قال لقومه ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ فوثبوا عليه فقتلوه.

قال ابن مسعود: وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ من دبره، وأُلْقِيَ في بئر وهي الرِّسُّ وهم أصحاب الرِّسِّ. وفي رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة.

وقال السدي: رموه بالحجارة وهو يقول: اللهم أهدي قومي حتى قتلوه.

وقال الكلبي: حفروا حفرة وجعلوه فيها، وردموا فوقه التراب فمات ردما.

وقال الحسن: حرقوه حرقًا، وعلَّقوه من سور المدينة وقبره في سور أنطاكية؛ حكاة الثعلبي.

وقال القشيري: وقال الحسن لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة لا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة، فإذا أعاد الله الجنة أدخلها.

وقيل: نشره بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، فوالله ما خرجت روحه إلا إلى الجنة فدخلها؛ فذلك قوله: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ فلما شاهدها ﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ أي بغفران ربي لي؛ وقيل كأنه قال: ليت قومي يعلمون بأي شيء غفر لي ربي.

فقيل ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾. قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. والله أعلم.

﴿ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند

ذلك الفوز العظيم الذي هو ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ وقرىء « مِنْ الْمُكْرَمِينَ » ، وفي معنى تثنيه قولان:

أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته.

الثاني: تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله.

قال ابن عباس: نصح قومه حياً وميتاً.

وقال ابن أبي ليلي: سَبَّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب يس، فهم الصديقون؛ ذكره الزمخشري مرفوعاً عن رسول الله ﷺ. والحديث فيه نظر لتشيع روايه.

وفي هذه القصة تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في أفتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام.

فلما قتل حبيب؛ غضب الله له وعجل النقمة على قومه، فأمر جبريل فصاح بهم بصيحة فماتوا عن آخرهم؛ فذلك قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ أي ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله؛ قال الحسن: الجند الملائكة النازلون بالوحي على الأنبياء. وقيل: الجند العساكر؛ أي لم أحتج في هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر؛ بل أهلكهم بصيحة واحدة. ففي قوله ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم؛ أي أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل، أو من بعد رفعه إلى السماء.

وقيل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] ، فالله سبحانه لا يعجزه شيء؛ والله أعلم بعدد جنوده الذين أنزلهم؛ فقد أهلكك مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً؛ ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فوقعت عليهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون وهامدون؛ تشبيهاً بالرماد الخامد. قال المفسرون بعث الله إليهم

جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون. أي قد أحمدت أصواتهم، وسكنت حر كآتهم ولم يبق منهم عين تطرف.

ونرجع إلى صاحب يس؛ الذي جهر بالدعوة لدين الله أمام الطغاة الجبارين، المعاندين؛ وذلك من أفضل أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الذي أصبح في زماننا هذا من الأمور الخطيرة، ومن الخطوب المدهمة التي لا يقربها إلا (المشاكسون!) أو (المتنطعون!)، وقليل من علماء الأمة وطلبة العلم الشرعي؛ لما لتلك المسألة من تبعات لا يقوى عليها إلا من قيده الله لحفظ تلك الشعيرة، وما دما قد تطرقنا لهذا الباب؛ فلا بأس أن نقف على شيء من فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١) :

(١) وقد استقيت جلها من كتاب الشيخ ذياب الغامدي (أحكام المجاهرين بالكبائر) بعد استئذانه.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ شروط وأحكام

لا شك أنَّ شعيرة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من شعائر الإسلام العظام، ومن أوجب واجبات الدين؛ بل هو من أكد أصول قواعد الملة، فهو بحق القطب الأعظم في الدين، والأمر الذي بعث الله له الأنبياء والمرسلين، في حين أنه عنوان الإسلام والإيمان، وما ذلك إلاَّ أنه من أشق ما يحمله المكلف؛ لأنه مقام الرُّسل، الذين ابتلوا في طريقه، وجاهدوا من أجله، حتى ضَحَّوْا بالغالي والرخيص، والنفس والتَّفيس.

فمَن تهاوَنَ به أهلُه المسلمون، أو تَخَاذَلَ عنه أربابُه العالمون؛ فعندها يعمُّ العذاب، ويحلُّ الهوان، ويتسلطُّ الأعداء، وتتغيَّر رسومُ الدين، وعندها تنتشر البدع وتُهجَرُ السُّننُ، وتُظهِرُ المعاصي ويستعلي أهلُها، وتختفي الطَّاعة ويضعفُ أهلُها... إلى غير ذلك من الفتن والضَّلالات التي يكفي بعضها لهدمِ معالم الإسلام العظام.

فلذا وجب على كل مسلم أن يقوم بما وجب عليه من الدَّعوة إلى الإسلام، (و) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الناس، ووعظهم، وتذكيرهم بما فيه صلاحهم واستقامتهم، قال تعالى: ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

لذا كان « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من أعظم أسباب إحياء السُّنن، وإماتة البدع، وعزِّ الطَّاعة وأهلها، وذُلِّ المعصية وأهلها، وحِصْنِ الدين، وسياجه المتين.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - إذ يصف لنا حال أكثر المسلمين بقوله: (وقد غرَّ إبليسُ أكثرَ الخلق بأنَّ حسنَ لهم القيامَ بنوع من الذِّكر، والقراءة، والصَّلَاة، والصَّيَام، والزُّهْد في الدُّنيا والانقطاع، وعطلُّوا هذه العبوديَّات، فلم يُحدِّثُوا قلوبَهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقلِّ الناس دينًا؛ فإنَّ الدين هو القيامُ لله بما أمر به؛ فتاركُ حقوق الله التي تجبُّ عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مُرتكبِ المعاصي؛ فإنَّ تركَ الأمرِ أعظم من ارتكابِ النَّهي من أكثر من ثلاثين وجهًا ذكرها شيخنا رحمه الله « أي: ابن تيمية » في بعض تصانيفه.

وَمَنْ لَهُ خَيْرَةٌ بِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ ، وبما كان عليه هو وأصحابه ؛ رأى أن أكثر مَنْ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالذِّينِ هُمْ أَقَلُّ النَّاسِ دِينًا ، والله المستعان .

وأيُّ دين ، وأيُّ خَيْرٍ فِيمَنْ يَرَى : مُحَارِمَ اللَّهِ تَنْتَهَكَ ، وَحُدُودَهُ تُضَاعُ ، وَدِينَهُ يُتْرَكُ ، وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فَيُرْغَبُ عَنْهَا ؛ وَهُوَ بَارِدُ الْقَلْبِ ، سَاكِتُ اللِّسَانِ ، شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ ؛ كَمَا أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِالْبَاطِلِ شَيْطَانٌ نَاطِقٌ ١٩ .

وهل بَلِيَّةُ الدِّينِ إِلَّا مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِذَا سَلِمَتْ لَهُمْ مَا كُلُّهُمْ وَرِيَّاسَاتُهُمْ ؛ فَلَا مُبَالَاةَ بِمَا جَرَى عَلَى الدِّينِ ٢٠ .

وخيارُهُمُ الْمُتَحَزُّنُ الْمُتَلَمِّظُ ، وَلَوْ نُوزِعَ فِي بَعْضٍ مَا فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَيْهِ فِي جَاهِهِ أَوْ مَالِهِ ؛ بَذَلَ وَتَبَدَّلَ ، وَجَدَّ وَاجْتَهَدَ ، وَاسْتَعْمَلَ مَرَاتِبَ الْإِنْكَارِ الثَّلَاثَةَ حَسَبَ وَسُئِهِ .

وهؤلاء - مع سُقُوطِهِمْ مِنْ عَيْنِ اللَّهِ وَمَقْتِ اللَّهِ لَهُمْ - قَدْ بُلُوا فِي الدُّنْيَا بِأَعْظَمِ بَلِيَّةٍ تَكُونُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَهُوَ مَوْتُ الْقُلُوبِ ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ كُلَّمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ أَتَمَّ ؛ كَانَ غَضَبُهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أَقْوَى ، وَانْتِصَارُهُ لِلدِّينِ أَكْمَلَ (١) .

وَالَّذِينَ يُؤْثِرُونَ السَّلَامَةَ فِي أَدْيَانِهِمْ - فِيمَا زَعَمُوا - وَفِي أَبْدَانِهِمْ ، وَيَتْرُكُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ - مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ - لِهَذَا السَّبَبِ : هُمْ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ (٢) ؛ إِذْ صُورَةُ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ يَهْرُبُونَ مِنْ ضَرَرٍ مُتَوَقَّعٍ إِلَى ضَرَرٍ وَاقِعٍ ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] .

وَفِي هَذَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : « وَلَمَّا كَانَ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْإِبْتِلَاءِ وَالْمَحَنِّ مَا يَتَعَرَّضُ بِهِ الْمَرْءُ لِلْفِتْنَةِ ؛ صَارَ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَعَلَّلُ لترك ما وَجِبَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَطْلُبَ السَّلَامَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا » [التوبة : ٤٩] .

وَيَقُولُ أَيْضًا - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ

(١) انظر (إعلام الموقعين) لابن القيم (١٧٦-١٧٧) .

(٢) انظر (جوهرة الأمثال) (١٦٠/٢) ، (وجمع الأمثال) للميداني (١٤٩/٢) ، (و موسوعة أمثال العرب)

لأميل يعقوب (٦٤٠/٤) .

المنكر ، وإيمانه ، والجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به ... وإذا كان هو أعظم الواجبات والمستحبات ، فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة ؛ إذ بهذا بُعِثَ الرُّسُلُ ، وأنزلتِ الكُتُبُ والله لا يُحِبُّ الفساد» ^(١).

ومن هنا كان « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » من الأهمية بمكان ، وأنه من شعائر الإسلام العظام التي أولته الشريعة الإسلامية اهتماماً بالغاً ، كل هذا قياماً بواجب النصيحة ، وإبراء للذمة ، وحفاظاً على حياض الإسلام ، وأخذاً على أيدي العابثين بأحكام الدين .

لقد جاءت النصوص الشرعية من الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وأقوال السلف بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي كثيرة جداً لا يحيط بها مثل هذا المقام ؛ لذا سنقتصر هنا على ما فيه مقنع وغنية .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية : « المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ... » ^(٢) ، ثم ساق الحديث .

وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [آل عمران : ١١٠] ، ولذا نجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول بعد أن قرأ الآية السابقة : (يا أيها الناس من أراد أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها) ^(٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

وفي حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

(١) انظر (الحسبة) لابن تيمية ص (٣) .

(٢) انظر (تفسير ابن كثير) (١ / ٢٩٠) .

(٣) انظر (الدر المنثور) للسيوطي (٦٣ / ٢) .

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ^(١) مسلم .

فقد أوجب النبي ﷺ على كل من رأى منكراً تغييره ؛ وذلك بحسب مراتبه الثلاث؛ التي من آخرها : تغييره بالقلب وهو أضعف الإيمان .

وهذه بعض أقوال أهل العلم في شرح ومعنى هذا الحديث ، يقول أبو الفضل عياض - رحمه الله - : « هذا الحديث أصل في صفة التغيير فحقُّ المغير أن يُغيره بكل وجه أمكن زواله به ، قولاً كان أو فعلاً ، فيكسر آلات الباطل ، أو يُريق المسكر بنفسه ، أو يأمر من يفعله ، وينزعُ المغضوب ويردها إلى أصحابها بنفسه أو بأمره إذا أمكنه » ^(٢) .

وقال ابن رجب - رحمه الله - : فتبين بهذا أن الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال ، وأما الإنكار باليد واللسان فبحسب القدرة ، كما في حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ، ثم يُقدرون على أن يُغيروا ، فلا يُغيروا ، إلا يوشك أن يعذبهم الله بعقاب » خرجه أبو داود بهذا اللفظ ، وقال : قال شعبة فيه : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمل » ^(٣) .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » ^(٤) أحمد والترمذي .

أما ما أثر عن بعض السلف - رضي الله عنهم - فقد روي عن أبي بكر - رضي الله عنه - قوله : « يا أيها الناس ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، تعيشوا بخير » ^(٥) .

وقال علي - رضي الله عنه - : « من أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر رَغِمَ أنف المنافقين » ^(٦) .

وقال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - حين سُئل عن ميت الأحياء ؟ فقال : « الذي

(١) أخرجه مسلم (٦٩/١) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) ، وابن ماجه (٤٠٠٩) ، وصححه ابن حبان (٣٠٠ ، ٣٠٢) .

(٤) أخرجه أحمد (٣٨٨/٥) ، والترمذي (٢١٦٩) وغيرهما ، وقد حسَّنه الألباني (صحيح الترمذي) (١٧٦٢) .

(٥) انظر (تفسير الرازي) (١٧٩/٨) .

(٦) انظر (نصاب الاحتساب) لعمر السنامي (٩٧) .

لَا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ بِيَدِهِ وَلَا بِلِسَانِهِ وَلَا بِقَلْبِهِ» ^(١).

والتَّصَوُّصُ فِي وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ ، وَحَسَبْنَا مِنْهَا مَا ذَكَرَ .

كَمَا دَلَّ عَلَى وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إجماعُ الْأُمَّةِ ، كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ حَيْثُ قَالَ : « وَقَدْ تَطَابَقَ عَلَى وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ : الْكِتَابُ ، وَالسُّنَّةُ ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِي هِيَ الدِّينُ ، وَلَمْ يَخْلَفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَعْضُ الرَّافِضَةِ وَلَا يُعْتَدُ بِخِلَافِهِمْ » ^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ تَغْيِيرَ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ ... » ^(٣).

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرْنَا الْأَدْلَةَ الْقَاطِعَةَ عَلَى وَجُوبِ « الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ » ؛ كَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ نَذْكُرَ شُرُوطَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ بِالْمُنْكَرِ عَلَى وَجْهِ الْإِخْتِصَارِ ، وَهِيَ كَمَا يَلِي : (شُرُوطٌ مُتَّفَقَةٌ عَلَيْهَا ، وَشُرُوطٌ مُخْتَلِفَةٌ فِيهَا) .

❖ فَأَمَّا الشُّرُوطُ الْمُتَّفَقَةُ عَلَيْهَا ؛ فَهِيَ : الْإِسْلَامُ ، وَالتَّكْلِيفُ ، وَالِاسْتِطَاعَةُ .

❖ أَمَّا الشُّرُوطُ الْمُخْتَلِفَةُ فِيهَا ؛ فَهِيَ : الْعَدَالَةُ ، وَإِذْنُ الْوَالِي .

وَهَذَا مَا قَالَهُ ابْنُ التَّحَّاسِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « يُشْتَرَطُ لِإِجْبَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ ثَلَاثَةٌ شُرُوطٌ : الْإِسْلَامُ ، وَالتَّكْلِيفُ ، وَالِاسْتِطَاعَةُ . وَاخْتَلَفَ فِي الْعَدَالَةِ ، وَالِإِذْنِ مِنَ الْإِمَامِ » ^(٤).

أَمَّا السُّنَّةُ : فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ : أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ الْخُطْبَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرَوَانُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ . فَقَالَ : قَدْ تَرَكْتُ مَا هُنَاكَ ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ

(١) انظر (إحياء علوم الدين) للغزالي (٣١١/٢) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢٢/١) .

(٣) انظر (الكنز الأكبر) لعبد الرحمن الحنبلي ص (١١٣) .

(٤) انظر (تنبيه الغافلين) للنحاس ص (٣٣) .

الإيمان» ^(١) مسلم .

وهناك شروح كثيرة لهذا الحديث في كتب الشروح كشرح النووي وغيرهما؛ لمن أراد التفصيل، ويأتي بيان بعض بعض منها في فعل الصحابة، المذكور لاحقاً.

أما الإجماع : وقد دلَّ على وجوب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) إجماع الأمة ، كما نقل ذلك الإمام النووي كما مرَّ معنا ، حيث قال : « وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : الكتاب ، والسنة ، وإجماع الأمة ... » ^(٢) .

وكذا ابن عبد البر - رحمه الله - : « وأجمع المسلمون على أن تغيير المنكر واجب على من قدر عليه ، وإنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه ، فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ، ليس عليه أكثر من ذلك ، وإذا أنكر بقلبه فقد أذى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك » ^(٣) .

أما فعل الصحابة : فعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى ، فأول شيء يبدأ به الصلاة ، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس - والناس جلوس على صفوفهم - فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم ، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه ، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف .

قال أبو سعيد : فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان - وهو أمير المدينة - في أضحى أو فطر ، فلما أتينا المصلى إذا منبرٌ بناه كثير بن الصلت ، فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فحبذت بثوبه فجذبني ، فارتفع فخطب قبل الصلاة ، فقلت له : غير ثم والله ! ، قال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم ، فقلت : ما أعلم والله خير مما لا أعلم ، فقال : إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة ^(٤) .

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث : « وفيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن كان المنكر عليه والياً ، وفيه أن الإنكار عليه يكون باليد لمن أمكنه ، ولا يجزئ عن اليد

(١) أخرجه مسلم (٦٩/١) .

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢٢/١) .

(٣) انظر (الكنز الأكبر) لعبد الرحمن الحنبلي ص (١١٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٩٥٦) واللفظ له ، ومسلم (٨٨٩) .

اللِّسَانُ مع إمكان اليدِّ» ^(١). وهناك الكثيرُ من صَنِيعِ الصحابةِ - رضي الله عنهم - ممَّا فيه دلالةٌ واضحةٌ على الإنكارِ باليدِّ.

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله - : « كلُّ مسلمٍ يجب عليه إذا رأى منكراً أن يُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، كما صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ ، وظهورُ كون الشيء منكراً يحصلُ بكونه مخالفاً لكتاب الله سبحانه أو لسنة رسوله ﷺ أو لإجماع المسلمين ، ثم إذا كان قادراً على تغييره بيده كان ذلك فرضاً عليه ولو بالمقاتلة ، وهو إن قُتل فهو شهيدٌ ، وإن قُتلَ فاعلُ المنكر فهو بالحقِّ والشرع قَتَلَه ، ولكنه يُقدَّمُ الموعظةُ بالقول اللين ، فإن لم يُؤثِّر ذلك جاء بالقول الحشِن ، فإن لم يُؤثِّر ذلك انتقل إلى التغيير باليدِّ ، ثم المقاتلة إن لم يمكن التغيير إلا بها ، فإذا كان غير قادرٍ على الإنكار باليدِّ أنكرَ باللسان فقط وذلك فرضٌ ، فإن لم يستطع الإنكارَ باللسان أنكرَ بالقلب ، وهذا يقدرُ عليه كلُّ أحدٍ ، وهو أضعفُ الإيمان ، كما أخبر الصادقُ المصدوقُ ﷺ » ^(٢).



(١) انظر (شرح مسلم) للنووي (١٧٨/٦) .

(٢) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٥٨٦/٤) .

ضوابط وتنبيهات

هناك بعض الضوابط التي ينبغي مراعاتها في القيام بواجب الإنكار باليد ، وهي كثيرة نأخذ منها ما هو مهم :

الأول : الالتزام بدرجات الإنكار الشرعية كما ذكرها أهل العلم ، ومن ذلك : التعريف باللسان أولاً ثم باليد ، قال ابن العربي : « وإنما يبدأ باللسان والبيان ، فإن لم يكن فباليد » ^(١) .

وكذا ما ذكره الشوكاني آنفاً : « . . . ولكنه يُقدّم الموعظة بالقول اللين ، فإن لم يُؤثر ذلك جاء بالقول الحشن ، فإن لم يُؤثر ذلك انتقل إلى التغيير باليد ، ثم المقاتلة إن لم يمكن التغيير إلا بها . . . » ^(٢) .

الثاني : أن لا يؤدي تغيير المنكر إلى منكر أكبر منه .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : « فإن الأمر والتبهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة ، فينظر في المعارض له ، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفسد أكثر ، لم يكن مأموراً به ؛ بل يكون مُحَرَّمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته » ^(٣) .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - : « إنكار المنكر أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزَلْ بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه ، فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة مُحَرَّمَةٌ » ^(٤) .

(١) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٥٨٦/٤) .

(٢) انظر (السيل الجرار) للشوكاني (٥٨٦/٤) .

(٣) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (١٢٩/٢٨) .

(٤) انظر (إعلام الموقعين) لابن القيم (٧/٣) .

وقصة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مع التتار مشهورة؛ إذ يقول فيها: «مررتُ أنا وبعضُ أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر، فأنكرَ عليهم من كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلتُ له: إنما حَرَّمَ اللهُ الخمرَ لأنها تصدُّ عن ذكرِ الله والصَّلَاةِ، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتلِ النَّفُوسِ، وسبِّ الذرِّيَّةِ، وأخذِ الأموالِ فدعهم»^(١).

الثالث: أن لا يُنكرَ العاميُّ إلَّا في الأمورِ الجَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ التي لا تحتاجُ إلى اجتهاد.

وقد أوضح النَّووي - رحمه الله - هذا بقوله: «إنما يأمرُ وينهى من كان عالمًا بما يأمرُ به وينهى عنه، وذلك يختلفُ باختلافِ الشيء، فإن كان من الواجباتِ الظَّاهِرَةِ والمَحْرَمَاتِ المشهورة؛ كالصَّلَاةِ والصَّيَامِ والزَّكَاةِ والخمرِ ونحوها، فكلُّ المسلمين علماءُ بها، وإن كان من دقائقِ الأفعالِ والأقوالِ، ومما يتعلَّقُ بالاجتهادِ لم يكن للعوامِ مدخلٌ فيه، ولا لهم إنكاره؛ بل ذلك للعلماء»^(٢).

وإنما اشترطَ ذلك في العاميِّ؛ لأنَّه قد يُوقِعُه جهله في الأمرِ بالنكر، والنهي عن المعروف وهو لا يدري، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فمن أين له البصيرةُ في دقائق العلم وهو عاميٌّ جاهلٌ؟!^(٣).

الرابع: أن لا يؤدِّي إنكاره إلى ضررٍ مُتعدٍّ على غيره؛ كالأهلِ أو عمومِ المسلمين.

تنبيهات:-

وقبل الخروج من هذا البحث المهم؛ كان من المناسب أن نقفَ مع بعضِ الأخطاء التي لم يفتأ يتناقلها أهلها بين الحين والآخر دون علمٍ أو حُجَّةٍ، لذا نجدهم يستدلُّون ببعضِ الآياتِ في غير محلِّها، مثل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ويقصدون بهذه الآية: أن الإنسان عليه أن يستقيم في نفسه، فإذا فعل ذلك فلا شأن له بالآخرين.

وهذا فهمٌ خاطئٌ ولا شك؛ وقد كفانا مؤونة الردِّ على هؤلاء أبو بكرٍ الصديق

(١) انظر السابق (٧/٣-٨).

(٢) انظر (شرح مسلم) للنووي (٢٣/٢).

(٣) انظر (حكم تغيير المنكر...) لعبد الآخر (٤٥-٥٠).

- رضي الله عنه - حيث قال : « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ، وتضعونها على غير مواضعها : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وإنما سمعنا النبي ﷺ يقول : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ ، فلم يأخذوا على يده ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ » » (١) أحمد ، وأبو داود .

والمقصود من ذلك ؛ أن المؤمنين إذا قاموا بواجبهم في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فإنهم يكونون قد اهتدوا ، وبعد ذلك لا يضرهم ضلال من ضل ، قال ابن تيمية : « وَإِنَّمَا يَتِمُّ الْإِهْتِدَاءُ إِذَا أَطِيعَ اللَّهُ ، وَأُذِيَ الْوَاجِبُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَغَيْرِهِمَا » (٢) .

الثانية : إن المنكرات التي يُتَعَرَّضُ لها بالإنكار هي المنكرات الظاهرة المعلنة ، أما المنكرات الباطنة فإن أمرها موكولٌ إلى صاحبها ، وإذا ظهرت المنكرات التي أنكرتها الشريعة وجب إنكارها بقطع النظر عن سريرة صاحبها أو نيته فيها ، فعند ذلك لا يجوز إعلان البدع والمنكرات ، أو ما هو مخالف للشرع ؛ فإذا أعلنت وجب إنكارها علانية ، وعقوبة معلنها علانية أيًا كان ، كل هذا حفاظاً على شرائع الإسلام .

وحاصل ما هنالك : أن المنكر إذا كان مستوراً فمصيبته على صاحبه خاصة ، فإذا أظهره صاحبه كان ضرره عاماً ، فمن ابتلي بفعل المعاصي سراً فعلم شخص من أمره ما علم ، فنصح سراً وستر عليه فلم ينته ، وجب على الناهي أن يفعل ما ينكف به المنكر من الهجر ، أو غيره إذا كان ذلك أنفع في الدين ، أما إذا أظهر المنكر فإنه يجب الإنكار عليه علانية (٣) .

نسأل الله أن يجعلنا ممن يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ؛ آمين بالمعروف ، ناهين عن المنكر .



(١) أخرجه أحمد (٢/١ ، ٥ ، ٧ ، ٩) ، وأبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨ ، ٣٠٥٧) ، وهو صحيح ،

انظر (صحيح أبي داود) للألباني (٣٦٤٤) .

(٢) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (٤٨٠/١٤) .

(٣) انظر (مجموع الفتاوى) لابن تيمية (١٠٥/٢٨ ، ٢١٧-٢١٨) ، (١٧٥/٢٣) .

قصة أصحاب الأخدود

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ .

مع قصة جديدة من قصص القرآن والتي تشير إلى معنى من معاني التضحية من أجل الزود عن حرمة الدين، والموت على الحق؛ وأنه خير من حياة الهون والكفر.

فسورة أصحاب الأخدود؛ سورة مكية بدأت بقسم يقسمه الله تعالى ببعض مخلوقاته، والله يقسم بما يشاء؛ فأقسم حلّ ثناؤه ب ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ .

واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُني بذلك: والسماء ذات القصور. قالوا: والبروج: القصور، وعن ابن عباس: قصور في السماء، وقال غيره: بل هي الكواكب. وقيل: البروج: النجوم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج: جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ ، وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجاً، فمسير القمر في كل برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً، ثم يستسرّ ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر.

ثم يقسم سبحانه ب (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) وهو اليوم الذي وعد الله عباده، لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة.

فقد ورد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ» .

وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله تعالى ﴿وَشَهِدِ مَشْهُودٍ﴾ ، فقال بعضهم: هو يوم الجمعة، وقالوا: وهو يوم عرفة. وقيل: الشاهد: الإنسان، والمشهود: يوم القيامة.



وتبدأ القصة

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ . فمن هم أصحاب الأخدود ؟ .

في صحيح مسلم عن صُهَيْب :

أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ؛ فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فأبعث إليّ غلاماً أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه ؛ فكان في طريقه إذا سَلَكَ ، راهب ، فقعده إليه وسمع كلامه ، فأعجبه ؛ فكان إذا أتى الساحر مرّاً بالراهب وقعد إليه ؛ فإذا أتى الساحر ضربه ؛ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي . وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر . فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فأقتل هذه الدابة ، حتى يمضي الناس ؛ فرماها فقتلها ومضى الناس . فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني ؛ أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلي ؛ فإن أبتليت فلا تدلّ عليّ .

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويداوي الناس من سائر الأدواء . فسمع جليس للملك كان قد عمي ، فأثاه بهدايا كثيرة فقال : ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني . فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله ؛ فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ؛ فآمن بالله فشفاه الله . فأتى الملك فيجلس إليه كما كان يجلس ؛ فقال له الملك : مَنْ رَدَّ عليك بصرك ؟ قال ربي . قال : ولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ؛ فجاءه بالغلام فقال له الملك : أي بني ! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ قال : إنا لا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب ؛ فجاءه بالراهب ، فقيل له : أرجع عن دينك . فأبى فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار في مَفْرِقِ رأسه فشقه حتى وقع شقاه . ثم جيء بجِليس الملك فقيل له : أرجع عن دينك ؛ فأبى فوضع المنشار في مَفْرِقِ رأسه ، فشقه به حتى وقع شقاه .

ثم جيء بالغلام فقيل له : أرجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : أذهبوا به إلى جبل كذا وكذا ، فأصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فأطرحوه ؛

فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فأجملوه في قُرُقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فأقذفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت؛ فأنكفأت بهم السفينة، فغرقوا.

وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بأسم الله رب الغلام، ثم أرمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: بأسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك فقيل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخذت، وأضرمت النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأجملوه فيها - أو قيل له أقتحم - ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمة أصبري فإنك على الحق.

وروى الترمذي أنه: «وكان على طريق الغلام راهب في صومعة» قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين. وفيه: «أن الدابة التي حبست الناس كانت أسدًا، وأن الغلام ذفن - قال - فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل». وقال: حديث حسن غريب. ورواه الضحاك عن ابن عباس قال: كان ملك بنجران، وفي رعيته رجل له فتى، فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل؛ فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب، فدخل في دين الراهب؛ فأقبل يومًا فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم، فأخذ حجرًا فقال بأسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها. وذكر نحو ما تقدم. وأن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا إله عبد الله بن ثامر؛ وكان أسم الغلام، فغضب الملك، وأمر فخذت أخايد، وجمع فيها حطب ونار، وعرض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه،

ومن ثبت على دينه قذفه في النار.

وجيء بامرأة مُرضع فقيل لها أرجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدتك - قال - فأشفقت وهمت بالرجوع، فقال لها الصبي المُرَضع: يا أمي، أثبتّي على ما أنت عليه، فإنما هي غميضة؛ فآلقوها وآبنها.

وروي عن ابن عباس أن النار أرتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعاً فأحرقتهم. إلى هنا

وقال الضحّاك: هم قوم من النصارى كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحبيل بن ثُبّع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه.

وحكى الماوردي، والثعلبيّ عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجلاً ونساء، فخذوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها. وقيل لهم: تكفرون أو تُقذّفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه.

وروي نحو هذا عن ابن عباس. وقال عليّ رضي الله عنه: إن ملكاً سُكر فوقع على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعاً في رعيته فلم يقبلوا، فأشارت إليه أن يخطب بأن الله - عز وجل - أحل نكاح الأخوات، فلم يُسمع منه. فأشارت إليه أن يخذلهم الأخدود، ويلقي فيه كل من عصاه. ففعل. قال: وبقاياهم ينكحون الأخوات وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب.

وروي عن عليّ أيضاً أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبياً بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فأتبعه ناس، فخذلهم قومهم أخدوداً، فمن أتبع النبيّ رمي فيها، فجيء بامرأة لها بُنيّ رضيع فجزعت، فقال لها: يا أمّاه، أمضي ولا تجزعي.

وقال أيوب عن عكرمة قال: الأخدود ثلاثة؛ واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أمّا الذي بالشام فأنطينانوس الرومي، وأمّا الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس.

فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآنًا، وأنزل قرآنًا في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهامة، والآخر بنجران، آجر أحدهما نفسه، فجعل

يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فأتت ابنة المستاجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباهما فأسلم. وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وامرأة، بعد ما رفع عيسى، فخذ لهم يوسف بن ذي ثؤاس بن ثبّع الحميريّ أخدموا، وأوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجع عن دين عيسى لم يقذف. وإن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها أبنها: يا أمّاه، إني أرى أمامك ناراً لا تُطفأ، فقفّاً جميعاً أنفسهما في النار، فجعلها الله وآبها في الجنة. فقفّ في يوم واحد سبعة وسبعون إنساناً.

وقال ابن إسحاق عن وهب بن منبه: كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له قيمون، وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا محاب الدعوة، وكان سائحاً في القرى، لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بناء يعمل الطين. قال محمد بن كعب القرظي: وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريباً من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيمون، بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم، فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن أسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه، فكتمه إياه وقال: يا ابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبو الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان. فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بتعليم أسم الله الأعظم، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله تعالى اسماً يعلمه إلا كتبه في قدح، لكل اسم قدح؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها ناراً، ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدره، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضره شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم أسم الله الأعظم الذي كتمه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخي، قد أصبت، فأمسك على نفسك، وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضرّاً إلا قال: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل في ديني، فأدعو الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أتاه فأتبعه على دينه ودعا له فعوفي؛ حتى رُفِع شأنه إلى ملكهم، فدعاه فقال له: أفسدت عليّ أهل

قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل، فيطرح عن رأسه، فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقي فيها شي إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبدالله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمن بما آمنتم به؛ فإنك إن فعلت ذلك سلّطت عليّ وقتلتني.

فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعضا فشجه شجرة صغيرة ليست بكبيرة، فقتله، وهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحُكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بين ذلك أو القتل، فأختاروا القتل، فخذّ لهم الأخدود؛ فحرّق بالنار وقتل بالسيف، ومثّل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً. وقال وهب بن منبه: أتني عشر ألفاً. وقال الكلبي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً. قال وهب: ثم لما غلب أرباط على اليمن خرج ذو نواس هارباً، فاقتحم البحر بفرسه فغرق.

قال ابن إسحاق: وذو نواس هذا اسمه زُرعة بن ثُبّان أسعد الحميري، وكان أيضاً يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعر ثنوس، أي تضطرب، فسمى ذا نواس؛ وكان فعل هذا بأهل نجران، فأفلت منهم رجل اسمه دُوسٌ ذو ثعلبان، فساق الحبشة لينتصر بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر؛ ألقى نفسه فيه.

قال الإمام القرطبي: قال علماؤنا: أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية - أي آية الأخدود - ، ما كان يلقاه من وَحْد قبلهم من الشدائد، يُؤنّسهم بذلك. وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسّوا بمثل هذا الغلام، في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره. وكذلك الراهب صير على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار. وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم.

فالصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى، قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ

الْأُمُورِ ﴿١٠﴾ ، وروى أبو سعيد الخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةً عَدِلَ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » .

وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَنَجَرٍ عَنْ أُمَيْمَةَ مَوْلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كُنْتُ أَوْضِئُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ ، قَالَ: أَوْصِنِي: فَقَالَ: « لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعَتْ أَوْ حُرِّقَتْ بِالنَّارِ... » الْحَدِيثُ .

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصَّلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك. فيعلم من ذلك أن المؤمن يتلى، فمن صبر ورضي فله الرضى، ومن سخط؛ فله السخط!.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه القصة: وقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود، وفيها: « أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين » ؛ ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه؛ إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

فإذا كان الرجل يفعل ما يعتقد أنه يقتل به لأجل مصلحة الجهاد، مع أن قتله نفسه أعظم من قتله لغيره: كأن ما يفضى إلى قتل غيره لأجل مصلحة الدين التي لا تحصل إلا بذلك، ودفع ضرر العدو المفسد للدين والدنيا الذي لا يندفع إلا بذلك أولى. وإذا كانت السنة والإجماع متفقة على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل: قتل، وإن كان المال الذي يأخذه قيراطاً من دينار. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون حرمه فهو شهيد » فكيف بقتال هؤلاء الخارجين عن شرائع الإسلام، المحاربين لله ورسوله، الذين صولهم وبغيهم أقل ما فيهم.

فإن قتال المعتدين الصائلين ثابت بالسنة والإجماع، وهؤلاء معتدون صائلون على المسلمين في أنفسهم، وأموالهم، وحرمهم، ودينهم. وكل من هذه يبيع قتال الصائل عليها. ومن قتل دونها فهو شهيد، فكيف بمن قاتل عليها كلها، وهم من شر البغاة المتأولين الظالمين. لكن من زعم أنهم يقاتلون كما تقاتل البغاة المتأولون فقد أخطأ خطأ قبيحاً، وضل ضلالاً بعيداً؛ فإن أقل ما في البغاة المتأولين أن يكون لهم تأويل سائغ خرجوا به؛ ولهذا قالوا:

إن الإمام يرأسهم، فإن ذكروا شبهة بينها، وإن ذكروا مظلمة أزالها. فأى شبهة لهؤلاء المحاربين لله ورسوله، الساعين في الأرض فساداً، الخارجين عن شرائع الدين. ولا ريب أنهم لا يقولون أنهم أقوم بدين الإسلام علماً وعملاً من هذه الطائفة؛ بل هم مع دعواهم الإسلام يعلمون أن هذه الطائفة أعلم بالإسلام منهم، وأتبع له منهم. وكل من تحت أدم السماء من مسلم وكافر يعلم ذلك، وهم مع ذلك يندرون المسلمين بالقتال، فامتنع أن تكون لهم شبهة بينة يستحلون بها قتال المسلمين، كيف وهم قد سبوا غالب حريم الرعية الذين لم يقاتلوهم؟! حتى إن الناس قد رأوهم يعظمون البقعة ويأخذون ما فيها من الأموال، ويعظمون الرجل ويتبركون به ويسلبونه ما عليه من الثياب، ويسبون حريمه، ويعاقبونه بأنواع العقوبات التي لا يعاقب بها إلا أظلم الناس وأفجرهم، والمتأول تأويلاً دينياً لا يعاقب إلا من يراه عاصياً للدين، وهم يعظمون من يعاقبونه في الدين ويقولون إنه أطوع لله منهم. فأى تأويل بقي لهم؟! ثم لو قدر أنهم متأولون لم يكن تأويلهم سائغاً؛ بل تأويل الخوارج ومانعي الزكاة أوجه من تأويلهم. والله أعلم.

قلت: وبهذا يعلم أن المرء قد يفتدي نفسه لمصلحة أعلى من نفسه وذاته، وهي مصلحة دينه الذي يموت من أجله؛ فإذا كانت الشهادة تُنال من أجل الزود عن بعض الدراهم؛ فكيف تكون الشهادة من أجل رفع كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فكم من حي وهو في نفسه ميت، وكم من ميت وهو عند الله حي عزيز.
(والحمد لله رب العالمين)

قصة لوط عليه الصلاة والسلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنَ الْعَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْعَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

كان قوم النبي لوط يأتون نوعًا من أنواع الفواحش لم يسبقهم بها أحد من الأمم، ألا وهي إثيان الذكور.

وقد ذكرها الله باسم الفاحشة ليبين أنها زنى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

فأرسل الله لهم لوطًا نبيًا؛ ينهاهم عن الفاحشة، ويأمرهم بالمعروف، فاستهانوا به، وكذبوه؛ قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ مِنْ أُرْسَلِهِ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّسْلِ حِينَ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ: أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ أَيُّهَا الْقَوْمُ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَمِينٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِكُمْ، أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ عِقَابُهُ عَلَى تَكْذِيبِكُمْ رَسُولَهُ وَأَطِيعُوا فِي مَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ أَهْدَكُمْ سَبِيلَ الرِّشَادِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فَلَا أُتَبَغَى مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا ثَوَابًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فشخص لهم النبي لوط مرضهم الذي يوردهم موارد التهلكة فقال : ﴿ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ
الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتَا
بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قول لوط لقومه أَتُنْكُمُ أَيُّهَا الْقَوْمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ فِي أَدْبَارِهِمْ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ فَتَقْطَعُونَ الْمَسَافِرِينَ عَلَيْكُمْ بِفَعْلِكُمُ الْخَبِيثِ، وذلك أَنَّهُمْ فِيمَا ذَكَرَ عَنْهُمْ
كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِمَنْ مَرَّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَسَافِرِينَ، مِنْ وَرْدِ بِلَادِهِمْ مِنَ الْغُرَبَاءِ.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ؛ فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَضَارَطُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ.
وقد ورد عن أُمِّ هَانِءٍ، قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ قَالَ:
« كَانُوا يَخْذِفُونَ أَهْلَ الطَّرِيقِ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ » فَهُوَ الْمُنْكَرُ الَّذِي كَانُوا يَأْتُونَ.

وورد أَنَّهُ كَانَ يَجَامِعُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فِي الْمَجَالِسِ؛ فَكَانَ يَأْتِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَهُمْ يَنْظُرُونَ،
وَكَانُوا يَعْتَرِضُونَ بِالرَّاكِبِ فَيَأْخُذُونَهُ وَيَرْكَبُونَهُ.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .
فلم يكن جواب قوم لوط إِذْ هَاهُمْ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ مِنْ إِيْتَانِ الْفَوَاحِشِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ
إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَأَنْتَا بِعَذَابِ اللَّهِ الَّذِي تَعْدُنَا، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا تَقُولُ، وَالْمُنْجِزِينَ لِمَا
تَعْدُ. اسْتِكْبَارًا مِنْهُمْ وَسُخْرِيَةً.

بل وازداد عنادهم؛ فَقَالُوا: ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أَي سَنُخْرِجُكَ
مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا وَبَلَدِنَا؛ فَرَدَّ عَلَيْهِمْ لُوطُ: إِنِّي لَعَمَلِكُمُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ مِنْ إِيْتَانِ الذِّكْرَانِ فِي
أَدْبَارِهِمْ مِنَ الْقَالِينَ، وَمِنْ الْمُبْغِضِينَ، الْمُنْكَرِينَ فَعَلَهُ. ﴿ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمُ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ .

فاستغاث لوط بربه حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إِنْ هُوَ لَمْ يَنْتَهِ عَنْ هَيْهَاتِهِ عَنْ
رُكُوبِ الْفَاحِشَةِ، فَقَالَ: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي ﴾ مِنْ عِقَابِكَ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا يَعْمَلُونَ مِنْ
إِيْتَانِ الذِّكْرَانِ ﴿ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ مِنْ عَوِيقَتِنَا الَّتِي عَاقَبْنَا بِهَا قَوْمَ لُوطِ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي
الْغَابِرِينَ يَعْنِي فِي الْبَاقِينَ، لَطُولَ مَرُورِ السِّنِينَ عَلَيْهَا، فَصَارَتْ هَرَمَةً، فَإِنَّمَا أَهْلَكَتَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ
لُوطِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَدُلُّ قَوْمَهَا عَلَى الْأَضْيَافِ.

وقد قيل: إنما قيل من الغابرين لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وإنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة . بما سيأتي ذكره إن شاء الله.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ من الله بأنه سولد له إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ﴿ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾؛ قالت رسل الله لإبراهيم: إنا مهلكو أهل هذه القرية، وهي قرية سدوم، وهي قرية قوم لوط فإن أهلها كانوا ظالمين بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسول الله ﷺ.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ فلوط - كما نقل القرطبي - هو ابن عم إبراهيم عليه السلام، وكانت قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه وضيافته، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافاً.

قال ابن عباس: أن الرسل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام؛ وقال السدي: كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسن الوجوه، ذوو وضاعة وجمال بارع.

﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ وهو العجل المشوي. وقيل: هو المشوي بحر الحجارة من غير أن تمسه النار. وهو معروف إلى الآن بأرض الجزيرة العربية.

فالسنة إذا قُدِّمَ للضييف الطعام أن يبادر المقدم إليه بالأكل؛ فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول .

فلما جاء النبي إبراهيم بالطعام؛ إذ الرسل قد قبضوا أيديهم؛ فنكرهم إبراهيم؛ لأنهم خرجوا عن العادة، وخالفوا السنة، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه. وروي أنهم كانوا يَنْكُتُونَ بِقِدَاحٍ كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ فِي اللَّحْمِ وَلَا تَصِلُ أَيْدِيهِمْ إِلَى اللَّحْمِ، فلما رأى ذلك منهم. ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرّاً؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ .

﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ أي قائمة بحيث ترى الملائكة. قيل: كانت من وراء الستر. وقيل: كانت تخدم الملائكة وهو جالس.

وإبراهيم عليه السلام في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل. فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم رسل الله، وفرح بذلك، فضحكت أمراؤه سرورا بفرحه، وقيل: إنما كانت قالت له: أحسب أن هؤلاء القوم سينزل بهم عذاب فضم لوطاً إليك، فلما جاءت الرسل بما قالته سرّت به فضحكت.

وذكر الطبري أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاماً إلا بضمن؛ فقال لهم: « ثمنه أن تذكروا الله في أوله وتحمده في آخره » فقال جبريل لأصحابه: بحق آخذ الله هذا خليلاً.

قال علماؤنا: ولم يأكلوا لأن الملائكة لا تأكل. وقد كان من الجائز كما يسّر الله للملائكة أن يتشكّلوا في صفة الآدمي جسداً وهيئة أن ييسر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه في قول العلماء أرسلهم في صفة الآدمي وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشري فجأة، وكذلك امرأته. ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ فإنه لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر؛ تمت سارة أن يكون لها ابن، وأيسّت لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبياً ويلد نبياً، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها، ونيي ابن نبي.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

لما بُشّر إبراهيم عليه السلام بإسحق ويعقوب. وقيل: بشروه بأنهم إنما أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، جادل إبراهيم رسل الله، وأضافه إلى نفسه.

وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدُب عن حُذَيْفَةَ؛ وذلك أنهم لما قالوا ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أهلكوهم؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا. قال: فعشرون؟ قالوا: لا. قال: فإن كان فيها عشرة - أو خمسة شك حميد

- قالوا: لا. قال قتادة: نحواً منه؛ قال فقال يعني إبراهيم: قوم ليس فيهم عشرة من المسلمين لا خير فيهم.

وقيل إن إبراهيم قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أهلكوها؟ قالوا: لا. فقال إبراهيم عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَغْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

وقال عبد الرحمن بن سُمرة: كانوا أربعمئة ألف.

وقيل وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف. أي أربعة ملايين كافر!!

فقال الملائكة: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ إِنَّهُ مُصِيفُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَلٍ مَّنْضُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ *.

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط - وهما تستقيان - بالملائكة ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم، وساءه مجيئهم؛ ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

فلما رأت امرأة لوط الكافرة، الأضياف وجمالهم وهيئتهم، خرجت حتى أتت مجالس قومها، فقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً؛ وكذا وكذا؛ فحينئذ جاؤوا يهرعون إليه.

ويروى أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطاً في حرث له. وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته؛ فخرج إليهم؛ فقالوا: نريد أن تضيفنا الليلة؛ فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض - وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات - فلما قال لوط هذه المقالة، قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات، ثم دخل بهم المدينة.

فلما جاؤوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعاً، وقال: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾. وقد اختلف في قوله: « هَؤُلَاءِ بَنَاتِي » فقيل: كان له ثلاث بنات من صلبه. وقيل: بنتان؛ زينا وزعوراء؛ فقيل: كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما أبنتيه. وقيل: ندهم في هذه الحالة إلى النكاح، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة؛ وقد كان هذا في أول الإسلام جائزاً ثم نسخ؛ فزوج رسول الله ﷺ بنتاً له من عتبة بن أبي لهب، والأخرى من أبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين.

وقالت فرقة - منهم مجاهد وسعيد بن جبّير - أشار بقوله: « بَنَاتِي » إلى النساء جملة؛ إذ نبي القوم أب لهم؛ ويقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود: « أَلَتْنِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ ». وقالت طائفة: إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضاءه؛ روي هذا القول عن أبي عبيدة؛ كما يقال لمن يُنهى عن أكل مال الغير: الخنزير أحل لك من هذا.

وقال عكرمة: لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته، وإنما قال لهم هذا لينصرفوا. وقال ابن عباس: كان رؤسائهم خطبوا بناته فلم يجبهن، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي لا تهينوني ولا تذلوني. ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ ، روي أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من ردّ في خطبة امرأة لم تحل له أبداً؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ

حَقٌّ ﴿ وَبَعْدَ أَلَّا تَكُونَ هَذِهِ الْخَاصِيَّةَ . فَوَجَّهَ الْكَلَامَ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِلَى بَنَاتِكَ تَعْلُقُ ، وَلَا هُنَّ قَصْدُنَا ، وَلَا لَنَا عَادَةٌ نَطْلُبُ ذَلِكَ . ﴾ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿ إشارَةً إِلَى الْأَضْيَافِ .

فلما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونًا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي أنصارًا وأعوانًا. وقال ابن عباس: أراد الولد.

ويروى أن لوطًا عليه السلام لما غلبه قومه، وهُمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قالت له الرسل: تنحّ عن الباب؛ فتنحّى وانفتح الباب؛ فضرّهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعمّوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النجاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر: ٣٧] .

وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابَه والملائكة معه في الدار، وهو ينظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وأنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم؛ ففتح الباب فضرّهم جبريل بجناحه على ما تقدّم. وقيل: أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، فأوصل الله إلى عين من بُعد ومن قُرب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقًا، ولا آهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط قومًا هو أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا. وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى نصبح فسترى؛ يتوعدونه.

فلما رأت الملائكة حزن لوط وأضطرابه ومدافعته أمروه أن يترك القرية؛ فقالوا: ﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ .

فخرج لوط بابتنيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر، وأن الملائكة قالت له: إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد، وخطف برق، وصواعق عظيمة، وقد ذكرنا لهم أن لوطًا سيخرج فلا تؤذوه؛ وأمارته أنه لا يلتفت، ولا تلتفت أبنتاه فلا يهولنك ما ترى. فخرج لوط وطوى الله له الأرض في وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم. وجاءهم العذاب؛ وإذا بجبريل عليه السلام قد أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط، وهي خمس سدوم - وهي القرية

العظمى - وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها؛ حتى سمع أهل السماء هيق حمهم وصياح ديكتهم، لم تنكفىء لهم جرّة، ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهم الله بالحجارة. نسال الله العافية في الدنيا والآخرة. وهكذا كانت نهاية قوم لوط أصحاب الفواحش الشاذة والتي يبقى وزر من عمل بمثلها على عاتق هؤلاء القوم . فهم أول من ابتدعها لا ينقص من وزر أحدهم شيء .
 فله الفضل والمنّة على يسره لأمة محمد ﷺ من فضائل النكاح بما شرّع الله على فطرة الله .

(والحمد لله رب العالمين)



حكم من عمل بعمل قوم لوط

للعلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه؛ عدة أقوال؛ منها ما ذهب إليه الإمام مالك: يُرْجَم؛ أَحْصَنَ أو لم يُحْصَن. وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتملاً. وروي عنه أيضاً: يرجم إن كان مُحْصَنًا، ويجبس ويؤدّب إن كان غير محصن. وهو مذهب عطاء والنخعي وأبن المسيب وغيرهم.

وقال الشافعي: يحدّ حدّ الزّنى قياساً عليه.

واحتج مالك بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]. فكان ذلك عقوبة لهم وجزاءً على فعلهم. فإن قيل: لا حجة فيها لوجهين؛

أحدهما: أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم.

الثاني: أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها؛ فدلّ على خروجها من باب الحدود.

قيل: أمّا الأوّل فغلط؛ فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها؛ منها هذه. وأمّا الثاني فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه. وهي حكمة الله وسنته في عباده. وبقي أمر العقوبة على الفاعلين مستمراً. والله أعلم.

وقد روى أبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فأقتلوا الفاعل والمفعول به». لفظ أبي داود وابن ماجه.

وعند الترمذي «أحصنا أو لم يحصنا».

وروى أبو داود والدارقطني عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية قال: يرجم. وقد روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرّق رجلاً يُسمّى الفُجاءة حين عمل قوم لوط بالنار. وهو رأي عليّ بن أبي طالب؛ فإنه لما كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر في ذلك جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه؛ فقال عليّ: إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة صنع الله بها ما علمتم، أرى أن يُحرق بالنار.

فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار. فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار فأحرقه. ثم أحرقهم ابن الزبير في زمانه. ثم أحرقهم هشام بن الوليد. ثم

أحرقهم خالد القسري بالعراق. ورُوي أن سبعة أخذوا في زمن ابن الزبير في لواط؛ فسأل عنهم فوجد أربعة قد أُحصِنوا فأمر بهم فخرجوا (هم) من الحرم فرُجموا بالحجارة حتى ماتوا، وحدّ الثلاثة؛ وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه.

فإن أتى بهيمة فقد قيل: يقتل هو و البهيمة.

وفي الباب حديث رواه أبو داود والدارقطني عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: « من وقع على بهيمة فأقتلوه وأقتلوا البهيمة معه ». فقلنا لابن عباس: ما شأن البهيمة؟ قال: ما أراه قال ذلك، إلا أنه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل.

قال ابن المنذر: إن يك الحديث ثابتاً فالقول به يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيراً، وإن عزّره الحاكم كان حسناً. والله أعلم.

وقد قيل: إن قتل البهيمة لثلاثي خلقاً مُشَوَّهاً؛ فيكون قتلها مصلحة لهذا المعنى مع ما جاء من السنة. والله أعلم.

وقال محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار.

نعوذ بالله من الفطرة المسوخة التي تردي صاحبها فيركب ذكراً، أو حماراً، أو خنزيراً؛ نسأل الله فطرة سوية، وعيشة رضية،

(والحمد لله رب العالمين)



قصة ذا النون عليه الصلاة والسلام

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

مع قصة جديدة من قصص القرآن الكريم؛ قصة (ذا النون) .

قال أهل التفسير، والتاريخ: ذا النون هو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه. والنون الحوت. واسم النبي: يونس بن متى.

وعن ابن عباس: بعثه الله يونس إلى أهل قريته، فردّوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه. فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فخرج من بين أظهرهم فأعلم قومه الذين وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم. فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبحها أدلج وراه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عرجوا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مرّ به مرّاً، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها. وعرجوا إلى الله وتابوا إليه. فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب.

قال: فقال يونس عند ذلك وغضب: والله لا أرجع إليهم كذاباً أبداً، وعدتهم العذاب في يوم ثم ردّ عنهم ومضى على وجهه مغاضباً.

وقيل أن يونس قال: جرّبوا عليّ كذباً فذهب مغاضباً لربه حتى أتى البحر.

وفي رواية؛ إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً، وكان في خلقه ضيق. فلما حملت عليه أثقال النبوة، ولها أثقال لا يحملها إلا قليل، تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل، فقذفها بين يديه، وخرج هارباً منها.

وقيل: إنما فعل ما فعل من ذلك كراهة أن يكون بين قوم قد جرّبوا عليه الخلف فيما وعدهم، واستحقوا منهم، ولم يعلم السبب الذي دفع به عنهم البلاء. وقال بعض من قال هذا

القول: كان من أخلاق قومه الذين فارقهم قتل من جرّبوا عليه الكذب، عسى أن يقتلوه من أجل أنه وعدهم العذاب، فلم ينزل بهم ما وعدهم من ذلك.

وقال آخرون: بل إنما غاضب ربه من أجل أنه أمر بالمسير إلى قوم لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه، فسأل ربه أن يُنظره ليتأهب للشخص إلىهم، فقبل له: الأمر أسرع من ذلك ولم يُنظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلًا ليلبسها، فقبل له نحو القول الأول. وكان رجلاً في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعلًا فذهب مغاضباً.

وقيل: ذهب مغاضباً لقومه لأن ذهابه عن قومه مغاضباً لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، ليلغهم رسالته ويحذرهم بأسه وعقوبته على تركهم الإيمان به والعمل بطاعته لا شك أن فيه ما فيه. ولولا أنه قد كان ﷺ أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه ويصفه بالصفة التي وصفه بها، فيقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

وظنّ يونس عليه السلام أن الله لن يعاقبه على تركه قومه؛ فذهب إلى البحر، وهناك كان جند من جنود الله ينتظر تنفيذ الأمر الرباني.

﴿فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أنه كان من المسبحين لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾. فمكث في بطن الحوت أربعين من بين ليلة ويوم، فأمسك الله نفسه، فلم يقتله هناك. فتاب إلى ربه في بطن الحوت، وراجع نفسه.

ونادى يونس ربه معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته: ﴿إِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته بما كان سلف من العبادة والتسبيح، فجعله من الصالحين.

فكان يونس يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ مَا صَنَعْتُ مِنْ شَيْءٍ فَلَمْ أَعْبُدْ غَيْرَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ حين عصيتك.

وقيل: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات. ثم حرّك رجله، فلما تحرك سجد مكانه، ثم نادى: يَا رَبِّ اتَّخَذْتُ لَكَ مَسْجِدًا فِي مَوْضِعٍ مَا اتَّخَذَهُ أَحَدٌ.

وعن عبد الله بن رافع، مولى أم سلمة زوج النبي ﷺ، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ حَبْسَ يُؤُسَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحُوتِ: أَنْ خُذْهُ»

وَلَا تَخْذَشْ لَهُ لَحْمًا وَلَا تَكْسُرْ عَظْمًا فَأَخَذَهُ، ثُمَّ هَوَىٰ بِهِ إِلَىٰ مَسْكَنِهِ مِنَ الْبَحْرِ فَلَمَّا انْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ اسْفَلِ الْبَحْرِ، سَمِعَ يُونُسُ حَسًّا، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ قَالَ: فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ اللَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: إِنَّ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ الْبَحْرِ، قَالَ: فَسَبَّحَ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، فَسَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِيحَهُ، فَقَالُوا: يَا رَبَّنَا إِنَّا نَسْمَعُ صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضِ غَرِيبَةٍ؟ قَالَ: ذَاكَ عَبْدِي يُونُسُ، عَصَانِي فَحَبَسْتُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ. قَالُوا: الْعَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ إِلَيْكَ مِنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَمَلٌ صَالِحٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَشَفَعُوا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الْحُوتَ فَقَدَفَهُ فِي السَّاحِلِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَهُوَ سَقِيمٌ» .

وفي الخبر في وصف يونس عليه السلام: إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوة تَفَسَّخَ تحتها تَفَسَّخَ الرَّبْعَ تحت الحمل الثقيل، فمضى على وجهه مضى الآبق الناد. وهذه المغاضبة كانت صغيرة. ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم.

وقال ابن مسعود: أبق من ربه أي من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان يتوعد قومه نزول العذاب في وقت معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلمهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضباً وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد.

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلًا ليلبسها فلم يُنظر، وقيل له: الأمر أعجل من ذلك - وكان في خلقه ضيق - فخرج مغاضباً لربه؛ أي خرج مغاضباً من أجل ربه، فغضب على قومه من أجل كفرهم بربه. وقيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعتتهم فذهب فاراً بنفسه، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله.

وفي رواية أخرى: أن يونس كان شاباً ولم يحمل أثقال النبوة؛ ولهذا قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] . فإن يونس خرج مغاضباً لقومه؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل.

وقالت فرقة منهم الأخفش: إنما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه. قال ابن عباس: أراد شعيبا النبي والملك الذي كان في وقته اسمه حزقيا أن يعثوا يونس إلى ملك نينوى،

وكان غزا بني إسرائيل وسيى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحى إليهم، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه، فيعمل على وحي ذلك النبي، وكان أوحى الله لشعيا: أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبياً قوياً أميناً من بني إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل فأني ملق في قلوب ملوكهم وجبابرهم التخلية عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا. قال: فها هنا أنبياء أمناء أقوياء. فألخوا عليه فخرج مغاضباً للنبي والملك وقومه، فأتى بحر الروم؛ فابتلي ببطن الحوت لتركه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢] والمليم من فعل ما يلام عليه. وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى.

وقيل: خرج ولم يكن نبياً في ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نينوى؛ ليدعو أهلها بأمر شعياً فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله، فخرج مغاضباً للملك؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به.

وقال القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم. قلت: هذا أحسن ما قيل فيه.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشي أن يقتل فغضب، وخرج فاراً على وجهه حتى ركب في سفينة فسكنت ولم تبحر. فقال أهلها: أفيكم آبق؟ فقال: أنا هو. وكان من قصته ما كان، وابتلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أحد: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] إلى قوله: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١]؛ فمعاصي الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجري تمحيص ويتضمن ذلك زجراً عن المعادة. وقيل: إنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقاً.

وذكر ابن أبي الدنيا حدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال: حدثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى في الظلمات، وكانت ظلمات ثلاث: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر؛ فقال: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ كههيئة

الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش.

وروي: أن الله تعالى أوحى إلى الحوت: « لا تؤذ منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » ؛ فسبحان الله الذي عطلَّ عمل أسنان الحوت وأمعاه، وجعل يونس أمانة لدى الحوت!!.

روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: « دعاء ذي النون في بطن الحوت لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، لم يدع به رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له » .

وقد قيل في: « لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ » إنه اسم الله الأعظم. رواه سعد عن النبي ﷺ. وفي هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجاب يونس، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، نسأل الله قبول الدعاء.



فضل الدعاء، وكيفية التداوي به

أخرج البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» .

وفي «جامع الترمذي» عن أنس، أن رسول الله ﷺ، كان إذا حَزَبَهُ أمر، قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» .

وفيه: عن أبي هريرة، أن النبي، كان إذا أَمَّهُ الأَمْرُ، رفع طرفه إلى السماء فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ» .

وفي «سنن أبي داود» عن أبي بكر الصديق، أن رسول الله ﷺ قال: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكْلَنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» .

وفيه أيضاً عن أسماء بنت عُميس قالت: قال لي رسول الله: أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِيهِنَّ عِنْدَ الْكَرْبِ، أَوْ فِي الْكَرْبِ: اللَّهُ رَبِّي لَا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً. وفي رواية أنها تقول سبع مرات.

وفي «مسند» الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «مَا أَصَابَ عَبْدًا هَمٌّ وَلَا حُزْنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمْتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدِلَ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رِبْعَ قَلْبِي، وَتُورَ صَدْرِي، وَجَلًّا حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حُزْنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا» .

وفي «الترمذي» عن سعد بن أبي وقاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي الثُّونِ إِذْ دَعَا رَبَّهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ» .

وفي رواية: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ أَحْيِ يُونُسَ» .

وفي « سنن أبي داود » عن أبي سعيد الخدري، قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: « يا أبا أمامة ما لي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة » فقال: همومٌ لَزَمَتَنِي، وديونٌ يا رسول الله، فقال: « أَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ وَقَضَىٰ دَيْنَكَ » قال: قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: « قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدِّينِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » ، قال: ففعلتُ ذلك، فأذهبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وقضى عني ديني.

وفي « سنن أبي داود » عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ لَزِمَ الْاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » .
وفي « المسند » أن النبي كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ، فَرَعَ إِلَى الصلاة، وقد قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

وفي « السنن » : « عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ، فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنِ النَّفْسِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ » .

ويذكر عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: « مَنْ كَثُرَتْ هُمُومُهُ وَغُمُومُهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » .

وثبت في « الصحيحين » أنها كنز من كنوز الجنة.

وفي الترمذي: « أنها بابٌ من أبواب الجنة » .

فإن أنت جرب العبد ذلك - بيقين - ولم يذهب عنه همه؛ فعليه ترسيخ توحيد الله في قلبه قولاً وعملًا؛ ثم عليه بالآتي:

أولاً: اعتراف العبد بأنه هو الظالم.

ثانياً: التوسُّل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء، وهو أسمائه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات: الحيُّ القيوم.

ثالثاً: الاستعانة به وحده.

رابعاً: إقرار العبد له بالرجاء.

خامساً: تحقيق التوكل عليه، والتفويض إليه، والاعتراف له بأن ناصيته في يده، يصرفه

كيف يشاء، وأنه ماض فيه حُكمه، عدلٌ فيه قضاؤه.

سادساً: أن يرتع قلبه في رياض القرآن، ويجعله لقلبه كالربيع، والنور في الظلمات، وأن يستضيء به في ظلمات الشبهات والشهوات، وأن يتسلى به عن كل فائت، ويتعزى به عن كل مصيبة، ويستشفى به من أدواء صدره، فيكون جلاء حزنه، وشفاء همه وغمه.

سابعاً: الاستغفار.

ثامناً: التوبة.

تاسعاً: جهاد النفس، وصدها عن هواها.

عاشراً: لزوم الصلاة على وقتها، وإكثار النوافل.

حادي عشر: البراءة من الحول والقوة وتفويضهما إلى من هما بيده سبحانه.

هذا وليعلم أن في الدعاء أسرار تتفاوت بحسب القرب والتقوى ودرجة الإيمان .

فاللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

(والحمد لله رب العالمين)



قصة نوح عليه الصلاة والسلام

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ .

أرسل الله تعالى نوحا إلى قومه داعيهم إلى طاعته وتوحيده والبراءة من كل معبود سواه. فما لهم من معبود يجوز لهم أن يتعبدوه غيره.

ونوح: هو أبو البشر الثاني، ومن أولى العزم. وأبنائه: سام، وحام، ويافث، هذا وقد مكث نوح في قومه تسعمائة وخمسين عاماً؛ كما ورد ذلك في كتاب الله العزيز ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .

روى الإمام الطبري: أن نوحاً أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدتهم ذلك من دعائه إياهم إلى الله من الإقبال إليه، وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله إلا فراراً.

وذكر أنه أرسل إلى قومه وهو ابن ثلاث مئة وخمسين سنة.

فألله تعالى أرسل رسوله نوحاً لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب فالنذارة أولاً وهي عامة في جميع الأمم والرسل.

كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ، وذلك لإقامة الحجة أولاً، كما في قوله تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

وقد بين تعالى أن طاعة النبي هي طاعة الله، فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن الله كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا مِّنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

فالنذارة قد حصلت لقوم نوح قبل أن يعمهم العذاب، فلا حجة للكافرين بعد ذلك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ۝﴾ .

وقد وردت الآيات في محاجة نوح قومه بصورة متعددة في كتاب الله، فما كان منهم إلا أن هموا بقتله، والبطش به، وشوشوا على دعوته بشبه باطلة قاصدين رفض الحق، وصادين عن سبيل الله؛ فلذلك استحقت عليهم كلمة الله بأن يكونوا أصحاب النار وأهلها.

عن عبيد بن عمير الليثي: كان قوم نوح يبطشون به؛ فيخنقونه حتى يغشي عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا كان أحيث من القرن الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوننا لا يقبلون منه شيئاً. حتى شكاً ذلك من أمرهم نوح إلى الله تعالى، كما قص الله علينا في كتابه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝﴾ ، حتى ﴿قَالَ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝﴾ .

فلما شكاً ذلك منهم نوح إلى الله واستنصره عليهم، أوحى الله إليه ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝﴾ .

فأقبل نوح على عمل الفلك، ولهي عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلا هو. وجعل قومه يمرّون به وهو في ذلك من عمله، فيسخرون منه ويستهزئون به، فيقول: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝﴾ .

ويقولون له: يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة قال: وأعقم الله أرحام النساء، فلا يولد لهم ولد؛ ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً، وأن يجعله ثلاثة أطباق: سفلاً ووسطاً وعلواً، وأن يجعل فيه كوى. ففعل نوح كما أمره الله، حتى إذا فرغ منه وقد عهد الله إليه إذا جاء أمرنا وفار التنور فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق

عليه القول ومن آمن، وما آمن معه إلا قليل، وقد جعل التنور آية فيما بينه وبينه فقال ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ . وقوله: وَفَارَ التَّنُّورُ معناه: انبجس الماء من وجه الأرض، وفار التنور، وهو وجه الأرض.

وقيل: إذا طلع الفجر.

فلما فار التنور حمل نوح في الفلك من أمره الله، وكانوا قليلاً كما قال الله، وحمل فيها من كل زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر ذكر وأنثى، فحمل فيه بنيه الثلاثة: سام وحام ويافث ونساءهم، وستة أناس ممن كان آمن به، فكانوا عشرة نفر: نوح وبنوه وأزواجهم، ثم أدخل ما أمره به من الدوابّ وتخلّف عنه ابنه يام، وكان كافراً.

وعن ابن عباس، قال: لما كان نوح في السفينة، قرض الفأر حبال السفينة، فشكا نوح، فأوحى الله إليه فمسح ذنب الأسد فخرج ستوران. وكان في السفينة عذرة، فشكا ذلك إلى ربه، فأوحى الله إليه، فمسح ذنب الفيل، فخرج خنزيران.

وورد أنه لما كان آخر زمان نوح ذهب فغرس شجرة، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعل يعمل سفينة، ويمرون فيسألونه، فيقول: أعملها سفينة، فيسخرّون منه ويقولون: نعمل سفينة في البرّ فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون. فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبته رفعت يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي.

وذكر أن طول السفينة ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وبأها في عرضها.

وقيل: كان طول سفينة نوح ألف ذراع ومئتي ذراع، وعرضها ست مئة ذراع.

وعن ابن عباس، قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال: فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضرب الكثيب بعصاه، قال: قم ياذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب. قال

له عيسى: هكذا هلكت؟ قال: لا، ولكن متّ وأنا شاب، ولكنني ظننت أنّها الساعة، فمن ثمّ شُبِّت.

قال: حدّثنا عن سفينة نوح قال: كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع، وعرضها ستّ مئة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدوابّ والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدوابّ، أوحى الله إلى نوح أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوقه منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث.

فلما وقع الفأر بجبل السفينة يقرضه، أوحى الله إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقه عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت، قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت، قال: فطوّفها الخضرّة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثمّ تألف البيوت.

قال: فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا، فيجلس معنا، ويحدّثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد يا ذن الله، قال: فعاد تراباً!! والله أعلم بصحة تلك الرواية التي رواها الطبري والقرطبي وغيرهما.

وقيل أن نوحاً عمل السفينة في أربع مئة سنة، وأنبت الساج أربعين سنة حتى كان طوله أربع مئة ذراع، والذراع إلى المنكب.

وهكذا حقت كلمة الله على الذين كفروا، ونحي نوح والذين آمنوا معه، وأغرق الذين ظلموا أنفسهم.

(والحمد لله رب العالمين)



بعض الآيات ذات الدلالات في قصة نوح

الآية الأولى: ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَآئِنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح: أنه قال لقومه: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي على يقين ونبوة صادقة لا شك فيها، وأعطاني رحمة منه مما أوحى إلي من التوحيد والهدى، فخفي ذلك كله عليكم، ولم تعتقدوا أنه حق، أيمكنني أن ألزمكم به، وأجبر قلوبكم على الانقياد والإذعان لتلك البينة التي تفضل الله علي بها، ورحمني بإيتائها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ يعني ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى وإن كان واضحاً جلياً لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله جل وعلا إليه.

الآية الثانية: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال نوح لقومه بما معناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله التي لا يفنيها شيء، فأدعوكم إلى اتباعي عليها. وَلَا أَعْلَمُ أَيْضَا الْغَيْبَ وما خفي من سرائر العباد، فإن ذلك لا يعلمه إلا الله، فأدعي الربوبية وأدعوكم إلى عبادتي. وَلَا أَقُولُ أَيْضَا إِنِّي مَلَكٌ من الملائكة أرسلت إليكم، فأكون كاذباً في دعواي ذلك، بل أنا بشر مثلكم كما تقولون، أمرت بدعائكم إلى الله، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. ﴿ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾ فلا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله ووحده الذين تستحقهم أعينكم، وقتلتهم إهم أرادلكم: لن يؤتيكم الله خيراً، وذلك الإيمان بالله. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ وهو أعلم بضمائر صدورهم واعتقاد قلوبهم، وهو ولي أمرهم في ذلك، وإنما لي منهم ما ظهر وبدا، وقد أظهروا الإيمان بالله واتبعوني، فلا أطردهم ولا أستحل ذلك. ﴿ إِنِّي إِذَا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾؛ فإني إن قلت لهؤلاء الذين أظهروا الإيمان بالله: ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ﴾، وقضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته ألسنتهم لي على غير علم مني بما في نفوسهم وطردتهم بفعلي ذلك، أكون بذلك من الفاعلين ما ليس لهم فعله المعتدين ما أمرهم الله به وذلك هو الظلم.

الآية الثالثة: ﴿وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: أنه أخبر قومه أنه لا يسألهم مالا في مقابلة ما جاءهم به من الوحي والهدى، بل يبذل لهم ذلك الخير العظيم مجانا من غير أخذ أجره في مقابله.

وبين في آيات كثيرة: أن ذلك هو شأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، كقوله في سبأ عن نبينا ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾. وقوله في أيضا في آخر سورة ص: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. وقوله في الطور والقلم: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾.

وقوله في الفرقان: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. وقوله في الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. وقوله عن هود في سورة هود: ﴿يَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

وقوله في الشعراء عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في يس: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾.

ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة: أن الواجب على أتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجانا من غير أخذ عوض على ذلك، وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى، ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

(والحمد لله رب العالمين)

قصة هود عليه الصلاة والسلام

فأما عاد فإن الله عز وجل أرسل إليهم هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ومن أهل الأنساب من يزعم أن هودا هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها يقال لإحداها صداء وللآخر صمود وللثالث الهباء فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره وترك ظلم الناس فكذبوه وقالوا من أشد منا قوة فلم يؤمن بهود منهم إلا قليل فوعظهم هود إذ تمادوا في طغيانهم فقال لهم: ﴿ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تُعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ * وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فردوا عليه ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ وزادوا في عنادهم؛ فقالوا ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ .

وفي « صحيح » ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: « منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر » .
ويقال إن هوداً عليه السلام هو أول من تكلم بالعربية. وقيل: أول من تكلم بها نوح. وقيل: آدم وهو الأشبه، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود وجرهم، وطسم وجميس، وأميم، ومدين، وعملاق، وعبيل، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن، وغيرهم.

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أو من تكلم العربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، ولكن أنطقه الله بما في غاية الفصاحة والبيان. وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود ، أن عادًا - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكانت أصنامهم ثلاثة: صدا، وصمودا، وهرا .

فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ * قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ * أبلغكم رسلت ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ * أَوْ عَجِثُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * قَالُوا أَجئتنا لنُعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيئْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَنَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٥ - ٧٢] .

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ * يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ * وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ * قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ * إِن نُّقُولُ إِلَّا أَعْتَرَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُم مَّن بَرِئَ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ * مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴾ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ * فَوَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ * وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِن عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : ٥٠ - ٦٠] .

وعاد - الأولى - هم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين في قوله

لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] ، أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

﴿قَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] أي هذا الأمر الذي تدعوننا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك. ﴿قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ والبلاغ يستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجراً، ولا يطلب منهم جعلاً؛ بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه، والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أما لكم تميزون به وتفهمون أي أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتكم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وهلك من خالفه من الخلق. وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع.

فقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فما أنا بريء منها لاعتن لها ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فما أنا بريء منها لاعتن لها ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

فأنا متوكل على الله ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه،

فلست أبالي مخلوقاً سواه، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه. فأنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فيني لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم. وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهاً. فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخُسِرُونَ * أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً. وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً. ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكَرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ * هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ رَبُّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿

[المؤمنون: ٣٥-٣٩].

فاستبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد من بعد موتها وصيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم حذرهم بما قاله لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور ونحوها، تعبتون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلَتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْإِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]؛ فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن «إرم» مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام وقيل:

مَأْخِذَ الْمَاءِ (لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَلَدِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ وَجَنَّتٍ وَغَيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٠-١٣٥]

وقالوا له مما قالوا: ﴿أَجِئْنَا لِنُعْبِدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] أي أجئنا لنعبد الله وحده، ونخالف آبائنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ .

فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإننا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك. كما قالوا: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ﴾ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ [الشعراء: ١٣٨] . فالمراد به الدين أي إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به.

وجاءهم العذاب!! .

فقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار قال: فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بجرمة ومكان بيته. وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عماليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال إنه: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري. قال: فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً، يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان - أي مغنيتان - ، قيتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر. فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف - عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز، فأنشأ الله سحباباً ثلاثاً: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب، فقال: اخترت السحابة السوداء فإنها

أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: اخترت رماد رمدًا، لا تبقي من عاد أحدًا، لا والدًا يترك ولا ولدًا إلا جعلته همدا إلا بني اللوذية همدا.

قال: وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة، فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النعمة إلى عاد، حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا هذا عارض ممطرنا، فيقول تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]؛ أي تهلك كل شيء أمرت به.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها «مهد»، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا مهد؟ قالت: رأيت ريحًا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، والحسوم الدائمة؛ فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك.

واعترل هود عليه السلام في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ماتلين عليه الجلود، وتلد الأنفس، وأنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة.

وقد روى الإمام أحمد حديثًا في «مسنده» يشبه هذه القصة عن ابن زيد البكري، قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله إن لي إلى رسول الله حاجة، فهل أنت مبلغني إليه؟ قال: فحملتها فأنتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا.

قال: فجلست، قال: فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فسلمت فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟» فقلت: نعم. وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب.

فأذن لها فدخلت، فقلت يا رسول الله: إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء، فإنها كانت لنا، قال: فحميت العجوز واستوفزت وقالت: يا رسول الله، فيلى أين يضطر مضطرك؟ قال: فقلت: إن مثلي ما قال الأول: « معزى حملت حتفها » حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد، قال: هيه وما وافد عاد؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطيعه.

قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جارتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال تامة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم استق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودي: منها اختر. فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماً رمدداً، ولا تبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، كانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد.

فكانت الريح ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال: ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية. وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدبور » .

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في « صحيحه » حيث قال: حدثنا أبو بكر الطاهر، حدثنا ابن وهب قال: سمعت ابن جريج حدثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وشر ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قالت: وإذا غيبت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ﴾ .

وعن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتسمم وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله: إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا » .

وروي الطبري بسنده عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام. والله أعلم.

تلك كانت مقتطفات من خبر النبي هود وقومه، اشتملت على مواعظ وعبر؛ سائلاً ربي أن يمطرنا مطر رحمة؛ لا مطر غرق ولا هدم ولا عذاب،

(والحمد لله رب العالمين)



قصة داود عليه الصلاة والسلام وقومه

النبى دواود نبى من أنبياء الله الذين أتاهم الله من المعجزات الباهرات ما كان فيه من البيان الكافى، والجواب الشافى لقومه على ما لاقاه من صد وعناد، وقد جاء وصف لدواود فى القرآن فى قوله تعالى: (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) فقد أعطى داود قوة فى العبادة وفقهاً فى الإسلام وقد ذكر أن داود عليه السلام كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر وكان يحرسه فيما ذكر فى كل يوم وليلة أربعة آلاف.

وكان داود عليه السلام قصيراً أزرق قليل الشعر طاهر القلب نقيه. بارعاً فى بعض العلوم والصناعات؛ فقد ورد ذلك فى قوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لَتُخَصِّنَّكُمْ مِّنْ بِأَسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ .

وروي عن بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ... ﴾ الآية، قالوا: كانت قبل داود صفائح، قال: وكان أول من صنع هذا الخلق داود. وقيل: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ قال: كانت صفائح، فأول من سردها وحلّقها داود عليه السلام.



المعجزات الباهرات التي وهبها الله داود

لقد وهب الله الأنبياء معجزات بينات ودلائل واضحات باهرات تدل على صدق دعوتهم ، فلكل نبي معجزة خاصة به، ومن تلکم المعجزات التي وهبها الله داود عليه السلام مذكره الله في كتابه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يُجِبَالُ أَوَّي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

فقد كانت الجبال تسبَّح مع داود.

وأما الطَّيْرُ فقيل؛ الطير وجهان: أحدهما : أن الطير تُوديت كما نوديت الجبال، والآخر: فقلنا: سخرنا له الطير.

وألان الله له الحديد؛ فكان الحديد في يده كالطين المبلول يصرفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار، ولا ضرب بحديد. وكان يسويها بيده، ولا حتاج لأن يدخلها النار، ولا يضربها بحديدة.

وعهد الله إليه أن يصنع الدروع الحديد . وكان أوّل من صنعها داود، وكانت قبل ذلك صفائح.

وعهد الله إليه أن يصنع لتلك الدروع مسامير من حديد؛ وذلك في قوله تعالى ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ .

وقيل: إنما عني بقوله تعالى ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : أي وقدر المسامير في حلق الدروع حتى يكون بمقدار لا تغلظ المسمار، وتضيّق الحلقة، فتفصم الحلقة، ولا توسع الحلقة، وتصغر المسامير وتدقها، فتسلس في الحلقة.

ثم أمر الله داود وآله بطاعة الله فقال: ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فإن الله بما يعمل داود وأتباعه ذو بصر لا يخفى عليه منه شيء، وأن الله مجازيه وإياهم على جميع ذلك.



حادثة الخصم الذين دخلوا على داود عليه السلام

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ وَفَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُوا وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ *﴾

قال ابن عباس: إن داود قال: يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله، قال الله: إني ابتليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتليتك بمثل ما ابتليتهم به، وأعطيتك كما أعطيتهم، قال: نعم، قال له: فاعمل حتى أرى بلاءك فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلك عليه، فكاد أن ينساه فينساها هو في محرابه، إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن يأخذها، فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها، فطارت، فاطلع من الكوة، فرأى امرأة تغتسل، فنزل نبي الله ﷺ من المحراب، فأرسل إليها فجاءته، فسألها عن زوجها وعن شأنها، فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السرية أن يؤمره على السرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يُصاب أصحابه وينجو، وربما نُصروا، وإن الله عز وجل لما رأى الذي وقع فيه داود، أراد أن يستنقذه فبينما داود ذات يوم في محرابه، إذ تسوّر عليه الخصمان من قبل وجهه فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت، وقال: لقد استضعفت في ملكي حتى إن الناس يتسوّرون عليّ محرابي، قال له: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ولم يكن لنا بدّ من أن تأتيك، فاسمع منا قال أحدهما: إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أَتَى وَلِيَ نَعْجَةٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا يريد أن يتمم بها مئة، ويتركني ليس لي شيء وعزّني في الخطاب قال: إن دعوت ودعا كان أكثر، وإن بطشت وبطش كان أشدّ مني، فذلك قوله: وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قال له داود: أنت كنت أحوج إلى نعتك منه لقد ظلمك بسؤال نعتك إلى نعاجه... إلى قوله: وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ونسي نفسه ﷺ، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك، فتبسّم أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظنّ أنما فتّن فاستغفر ربّه وخرّ

رَاكِعًا وَأَنَابَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، حَتَّى نَبَتَ الْخُضْرَةَ مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ شَدَّدَ اللَّهُ لَهُ مَلَكَهُ. ١. هـ.

وَقَالَ السَّيِّدِيُّ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ قَالَ: كَانَ دَاوُدُ قَدْ قَسَمَ الدَّهْرَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ: يَوْمٌ يَقْضِي فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَوْمٌ يَخْلُو فِيهِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَيَوْمٌ يَخْلُو فِيهِ لِنِسَائِهِ وَكَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَكَانَ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْكُتُبِ أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ فِيهِ فَضْلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَلَمَّا وَجَدَ ذَلِكَ فِيمَا يَقْرَأُ مِنَ الْكُتُبِ قَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ قَدْ ذَهَبَ بِهِ آبَائِي الَّذِينَ كَانُوا قَبْلِي، فَأَعْطِنِي مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُمْ، وَافْعَلْ بِي مِثْلَ مَا فَعَلْتَ بِهِمْ، قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ آبَاءَكَ ابْتَلَوْا بِبِلَالِيَا لَمْ تَبْتَلْ بِهَا ابْتِلَى إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ ابْنِهِ، وَابْتِلَى إِسْحَاقَ بِذَهَابِ بَصَرِهِ، وَابْتِلَى يَعْقُوبَ بِحُزْنِهِ عَلَى يُوسُفَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَبْتَلْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ، قَالَ: يَا رَبِّ ابْتِلِنِي بِمِثْلِ مَا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ، وَأَعْطِنِي مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُمْ قَالَ: فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّكَ مَبْتَلَى فَاحْتَرَسْ.

قَالَ: فَمَكَثَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمَكَثَ، إِذْ جَاءَهُ الشَّيْطَانُ قَدْ تَمَثَّلَ فِي صُورَةِ حَمَامَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، حَتَّى وَقَعَ عِنْدَ رَجُلَيْهِ وَهُوَ قَائِمٌ يَصْلِي، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَهُ، فَتَنَحَّى فَنَبَعَهُ، فَتَبَاعَدَ حَتَّى وَقَعَ فِي كُوَّةٍ، فَذَهَبَ لِيَأْخُذَهُ، فَطَارَ مِنَ الْكُوَّةِ، فَنَظَرَ أَيْنَ يَقَعُ، فَبِيعَثَ فِي أَثَرِهِ. قَالَ: فَأَبْصَرَ امْرَأَةً تَغْتَسِلُ عَلَى سَطْحٍ لَهَا، فَرَأَى امْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ خَلْقًا، فَحَانَتْ مِنْهَا التَّفَاتَةُ فَأَبْصَرَتْهُ، فَالْقَتْ شَعْرَهَا فَاسْتَرَتْ بِهِ، قَالَ: فَرَادَهُ ذَلِكَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَسَأَلَ عَنْهَا، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهَا زَوْجًا، وَأَنَّ زَوْجَهَا غَائِبٌ بِمَسْلُحَةٍ كَذَا وَكَذَا قَالَ: فَبِيعَثَ إِلَى صَاحِبِ الْمَسْلُحَةِ أَنْ يَبْعَثَ أَهْرِيَا إِلَى عَدُوِّ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَبِعَثَهُ، فَفُتِحَ لَهُ. قَالَ: وَكُتِبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، قَالَ: فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَيْضًا: أَنْ أَبْعَثَهُ إِلَى عَدُوِّ كَذَا وَكَذَا، أَشَدَّ مِنْهُمْ بَأْسًا، قَالَ: فَبِعَثَهُ فَفُتِحَ لَهُ أَيْضًا. قَالَ: فَكُتِبَ إِلَى دَاوُدَ بِذَلِكَ، قَالَ: فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَنْ أَبْعَثَهُ إِلَى عَدُوِّ كَذَا وَكَذَا، فَبِعَثَهُ فَقُتِلَ الْمَرَّةَ الثَّلَاثَةَ، قَالَ: وَتَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ.

قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، قَالَ: لَمْ تَلْبَثْ عِنْدَهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مَلَكَينَ فِي صُورَةِ إِنْسِيَيْنِ، فَطَلَبَا أَنْ يَدْخُلَا عَلَيْهِ، فَوَجَدَاهُ فِي يَوْمِ عِبَادَتِهِ، فَمَنْعَهُمَا الْحَرَسُ أَنْ يَدْخُلَا، فَتَسَوَّرُوا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ، قَالَ: فَمَا شَعَرَ وَهُوَ يَصْلِي إِذْ هُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَالِسِينَ، قَالَ: فَفَزِعَ مِنْهُمَا، فَقَالَا: لَا تَخَفْ إِنَّمَا نَحْنُ خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ يَقُولُ: لَا تَخَفْ وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ: إِلَى عَدْلِ الْقَضَاءِ. قَالَ: فَقَالَ: قَصَا عَلَيَّ قَصَّتَكُمَا، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ نَعْجَتِي، فَيَكْمِلُ بِهَا نَعَاجَهُ مِئَةً. قَالَ: فَقَالَ لِلْآخَرِ: مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: إِنَّ لِي تِسْعًا وَتِسْعِينَ نَعْجَةً،

ولأخي هذا نعمة واحدة، فأنا أريد أن آخذها منه، فأكمل بها نعاجي مئة، قال: وهو كاره؟ قال: وهو كاره؟ قال: إذن لا ندعك وذاك، قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد، ضربنا منك هذا وهذا وهذا، وفسر: أسباط طرف الأنف، وأصل الأنف والجبهة قال: يا داود أنت أحق أن يُضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعمة امرأة، ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة، فلم تنزل به تعرضه للقتل حتى قتلتها، وتزوجت امرأته. قال: فنظر فلم ير شيئا، فعرف ما قد وقع فيه، وما قد ابتلي به. قال: فخرّ ساجدا، قال: فبكى. قال: فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا الحاجة منها، ثم يقع ساجدا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه.

قال: فأوحى الله إليه بعد أربعين يوما: يا داود ارفع رأسك، فقد غفرت لك، فقال: يا ربّ كيف أعلم أنك قد غفرت لي وأنت حكم عدل لا تحيف في القضاء، إذا جاءك أهريا يوم القيامة آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أو داجه دما في قبل عشك يقول: يا ربّ سل هذا فيم قتلي؟ قال: فأوحى إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا، فاستوهبك منه، فيهبك لي، فأثيبه بذلك الجنة، قال: ربّ الآن علمت أنك قد غفرت لي، قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من ربه حتى قبض ﷺ.

هذا وقد تكلم بعض أهل العلم في صحة تلك الرواية.

قال عطاء الخراساني، قال: نقش داود خطيئته في كفه لكيلا ينساها، قال: فكان إذا رآها خفقت يده واضطربت.

وقال آخرون: بل كان ذلك لعارض كان عرض في نفسه من ظنّ أنه يطيق أن يتم يوما لا يصيب فيه حوبة، فابتلي بالفتنة التي ابتلي بها في اليوم الذي طمع في نفسه بإتمامه بغير إصابة ذنب.

وفي رواية أخرى قال قتادة: بينما داود هو في المحراب، إذ تسوّر الملكان عليه، وكان الخصمان إذا أتوه يأتونه من باب المحراب، ففرع منهم حين تسوّروا المحراب، فقالوا: لا تخف خصمان بغي بعضنا على بعض... حتى بلغ ولا تُشطط: أي لا تمل وأهّدا إلى سوء الصراط: أي أعدله وخيره ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِعْمَةً﴾ ، وكان لداود تسع وتسعون امرأة

﴿وَلِي نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قال: وإنما كان للرجل امرأة واحدة فقال ﴿أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي

الخطاب ﴿ أي: ظلمني وقهرني، فقال: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ فعلم داود أننا صُمِدَ له: أي عني به ذلك ﴿ فَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

قال: وكان في حديث مطر، أنه سجد أربعين ليلة، حتى أوحى الله إليه: إني قد غفرت لك، قال: ربّ وكيف تغفر لي وأنت حكم عدل، لا تظلم أحدا؟ قال: إني أقضيك له، ثم أستوهبه أو ذنبك، ثم أثيبه حتى يرضى، قال: الآن طابت نفسي، وعلمت أنك قد غفرت لي . وعن أنس بن مالك سمعه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ نَظَرَ إِلَى الْمَرْأَةِ فَأَهَمَّ، قَطَعَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَوْصَى صَاحِبَ الْبُعْثِ، فَقَالَ: إِذَا حَضَرَ الْعَدُوُّ، فَقَرِّبْ فَلَانًا بَيْنَ يَدَيِ الثَّابُوتِ، وَكَانَ الثَّابُوتُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يُسْتَنْصَرُ بِهِ، مَنْ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ الثَّابُوتِ لَمْ يَرْجَعْ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَنْهَزَمَ عَنْهُ الْجَيْشُ، فَقَتَلَ زَوْجَ الْمَرْأَةِ وَنَزَلَ الْمَلِكَانَ عَلَى دَاوُدَ يَقْصَانِ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، فَفَظَنَ دَاوُدُ فَسَجَدَ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً سَاجِدًا حَتَّى نَبَتَ الزَّرْعُ مِنْ دُمُوعِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَآكَلَتِ الْأَرْضُ جَبِينَهُ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ .»

فلم أخص من الرقاشي إلا هؤلاء الكلمات: «رَبِّ زَلْ دَاوُدُ زَلَّةً أَبْعُدْ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، إِنْ لَمْ تَرْحَمْ ضَعْفَ دَاوُدَ وَتَغْفِرْ ذَنْبَهُ، جَعَلْتَ ذَنْبَهُ حَدِيثًا فِي الْخُلُوفِ مِنْ بَعْدِهِ، فَجَاءَهُ جِبْرَائِيلُ ﷺ مِنْ بَعْدِ الْأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ: يَا دَاوُدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ الْهَمَّ الَّذِي هَمَمْتَ بِهِ، فَقَالَ دَاوُدُ: عَلِمْتُ أَنَّ الرَّبَّ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ لِي الْهَمَّ الَّذِي هَمَمْتُ بِهِ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ اللَّهَ عَدْلٌ لَا يَمِيلُ فَكَيْفَ بَقْلَانِ إِذَا جَاءَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: يَا رَبِّ دَمِي الَّذِي عِنْدَ دَاوُدَ فَقَالَ جِبْرَائِيلُ ﷺ: مَا سَأَلْتَسَأَلْتُ رَبِّكَ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ شِئْتَ لِأَفْعَلَنَّ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَعَرَجَ جِبْرِيلُ وَسَجَدَ دَاوُدُ، فَمَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ: قَدْ سَأَلْتُ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ يَا دَاوُدُ عَنِ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي فِيهِ، فَقَالَ: قُلْ لِدَاوُدَ: إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: هَبْ لِي دَمَكَ الَّذِي عِنْدَ دَاوُدَ، فَيَقُولُ: هُوَ لَكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَإِنَّ لَكَ فِي الْجَنَّةِ مَا شِئْتَ وَمَا اسْتَهَيْتَ عَوْضًا .»

سليمان عليه الصلاة والسلام

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفَظِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

لا شك أن لقصة سليمان عليه السلام أبعاداً ذات دلالات معتبرة؛ فسليمان من الأنبياء الذي أوتوا الملك والنبوة معاً، وحصل له من المعجزات، وعُلم كلام الطير، وآتاه الله من فضله الكثير، والكثير.

روى الإمام الطبري رحمه الله: أن سليمان كان تاب إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عرض عليه بالعشي الصافن من الخيل، والأنثى: صافنة، والشافن منها عند بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طرف سنبك إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه. وذكر أنها كانت عشرين فرسا ذوات أجنحة.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ، فلهي عن الصلاة حتى فاتته، وكان سليمان يحب المال والخيل، والخير من المال. وعن أبي الصَّهْبَاء البكري يقول: سألت عليّ ابن أبي طالب، عن الصلاة الوسطى، فقال: هي العصر، وهي التي فتن بها سليمان بن داود. فشغلته حتى توارت الشمس بالحجاب، وتغييت في مغيبها .

قال قتادة: فوالله ما نازعته بنو إسرائيل ولا كابروه، ولكن ولوه من ذلك ما ولاه الله. فقال سليمان ردّوا عليّ الخيل التي عرضت عليّ، فشغلتنني عن الصلاة، فكروها عليّ، فجعل يمسح منها السوق، وهي جمع الساق، والأعناق.

واختلف أهل التأويل في معنى مسح سليمان بسوق هذه الخيل الجياد وأعناقها، فقال بعضهم: معنى ذلك أنه عقرها وضرب أعناقها، من قولهم: مَسَحَ علاوته: إذا ضرب عنقه. وعن قتادة ﴿فَفَظِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال: قال الحسن: قال سليمان لا والله

لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، فكسف عراقبيها، وضرب أعناقها.

وقال آخرون: بل جعل يمسح أعرافها وعراقيبيها بيده حباً لها.

وهذا القول؛ ذكره عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ كُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمَاوَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ .﴾

قيل: كان ذلك الحرث كرمًا قد أنبت عناقيده.

وقيل: إنما هو حرث الأرض. وجائز أن يكون ذلك كان زرعاً، وجائز أن يكون غرساً، وغير ضائر الجهل بأي ذلك كان.

وقوله: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلاً، فرعته أو أفسدته. ﴿وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث، شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ : أي ففهمنا القضية في ذلك سليمان دون داود. ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمَا﴾ .

وذلك أن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبق من حرثي شيئاً. فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك فقضى بذلك داود.

ومرّ صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضى به داود، فدخل سليمان على داود فقال: يا نبي الله إن القضاء سوى الذي قضيت. فقال: كيف؟ قال سليمان: إن الحرث لا يخفي على صاحبه ما يخرج منه في كل عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها

وأصوافها وأشعارها حتى يستوفي ثمن الحرث، فإن الغنم لها نسل في كل عام. فقال داود: قد أصبت، القضاء كما قضيت. ففهمها الله سليمان.

وعن ابن عباس قال: قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرعاة معهم الكلاب، فقال سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وافيت أمركم لقضيت بغير هذا. فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الحرث، فيكون لهم أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويذير أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه، أخذ أصحاب الحرث الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها.

وعن عامر، قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ قال: إن كان نهاراً فقد برىء صاحب الشياه، وإن كان ليلاً فقد ضمن. ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كان النفس ليلاً.

هذا وقد ورد أنه قد دخلت ناقة للبراء بن عازب حائطاً لبعض الأنصار فأفسدته، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ فَقَضَى عَلَى الْبِرَاءِ مَا أَفْسَدَتْهُ النَّاقَةُ، وقال: « عَلَى أَصْحَابِ الْمَاشِيَةِ حِفْظُ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ، وَعَلَى أَصْحَابِ الْحَوَائِطِ حِفْظُ حَيْطَانِهِمْ بِالنَّهَارِ » .

وقد سخر الله لسليمان الريح فقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ .

فكانت الريح تجري بأمر سليمان رخاء حيث أصاب سريعة طيبة، ليست بعاصفة ولا بطيئة. مطيعة له حيث أراد.

وكذلك سخر الله له الشياطين؛ فقال تعالى ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ فكان يستعملها فيما يشاء من أعماله من بناء وغواص؛ فالبناة منها يصنعون محاريب وتمائيل، والغاصّة يستخرجون له الحلي من البحار، وآخرون ينحتون له جفانا وقُدُورا، والمردة من

الشياطين في الأغلال مُقَرَّنُونَ، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ . فيسلسلون وتجمع اليدين إلى أعناقهم.

فكان الملك الذي أعطاه الله له ملكاً عظيماً فكان يعطي لمن يشاء ويمنع عما يشاء.
وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ *
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ
بَغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ .



سليمان ملكاً

إن قال قائل: وما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبي من الأنبياء، وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثرون لها على الآخرة؟ أم ما وجه مسألته إياه، إذ سأله ذلك مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وما كان يضره أن يكون كل من بعده يُؤتي مثل الذي أوتي من ذلك؟ وذلك في قول سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ .

قيل: أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من الملك، فلم تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه فيه، وقبوله توبته، وإجابته دعاءه.

وأما مسألته ربه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فإننا قد ذكر فيما مضى قبل قول من قال: إن معنى ذلك: هب لي مُلكاً لا أسلبه كما سلبته قبل. وإنما معناه عند هؤلاء: هب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي أن يسلبنيه. وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سواي من أهل زماني، فيكون حجة وعلماً لي على نبوتي وأني رسولك إليهم مبعوث، إذ كانت الرسل لا بد لها من أعلام تفارق بها سائر الناس سواهم. ويتجه أيضاً لأن يكون معناه: وهب لي مُلكاً تَخْصُصُنِي به، لا تعطيه أحداً غيري تشريفاً منك لي بذلك، وتكرمة، لتبين منزلتي منك به من منازل من سواي. والله أعلم.



الهدهد وسليمان

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .

في ذات يوم تفقد سليمان الطير فقال مالي لا أرى الهدهد. وكان سبب تفقده الطير وسؤاله عن الهدهد خاصة من بين الطير، مارواه الطيري بسنده عن أبي مجلز، قال: جلس ابن عباس إلى عبد الله بن سلام، فسأله عن الهدهد: لم تفقده سليمان من بين الطير. فقال عبد الله ابن سلام: إن سليمان نزل منزلة في مسير له، فلم يدر ما بعد الماء، فقال: من يعلم بعد الماء؟ قالوا: الهدهد، فذاك حين تفقده.

وعن ابن عباس أيضًا، قال: كان سليمان بن داود يوضع له ست مئة كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم تجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، قال: ثم يدعو الطير فتظلمهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، قال: فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، قال: فبينما هو في مسيره إذا احتاج إلى الماء وهو في فلاة من الأرض، قال: فدعا الهدهد، فجاءه فنقر الأرض، فيصيب موضع الماء، قال: ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب، قال: ثم يستخرجون الماء. فقال له نافع بن الأزرق: قف يا وقاف أرأيت قولك الهدهد يجيء فينقر الأرض، فيصيب الماء، كيف يبصر هذا، ولا يبصر الفخّ يجيء حتى يقع في عنقه؟ قال: فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر.

وعن وهب بن منبه، قال: كان سليمان بن داود إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سرير، حتى إذا كان ذات غداة في بعض زمانه غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه، فتفقد الطير. وكان فيما يزعمون يأتيه نوبا من كل صنف من الطير طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها قد حضره إلا الهدهد، فقال: مالي لا أرى الهدهد

وقال ابن زيد: أول ما فقد سليمان الهدهد نزل بواد فسأل الإنس عن مائه، فقالوا: ما نعلم له ماء، فإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالجن، فدعا الجن فسألهم، فقالوا: ما نعلم له ماء وإن يكن أحد من جنودك يعلم له ماء فالطير، فدعا الطير فسألهم، فقالوا: ما نعلم

له ماء، وإن يكن أحد من جنودك يعلمه فالهدهد، فلم يجده، قال: فلذلك أول ما فقد الهدهد. وقد اختلف عبد الله بن سلام والقائلون بقوله ووهب بن منبه، فقال عبد الله: كان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه ليستخبره عن بُعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره. وقال وهب بن منبه: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها والله أعلم بأي ذلك كان إذ لم يأتنا بأي ذلك كان تنزيل، ولا خير عن رسول الله ﷺ صحيح.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير، إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بُعد الماء. والله أعلم.

وقوله: ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: فلما أخبر سليمان عن الهدهد أنه لم يحضر وأنه غائب غير شاهد، أقسم ﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وكان تعذيبه الطير فيما ذكر عنه إذا عذبها أن ينتف ريشها.

﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ أي يريد قتله أو لأقتلنه.

قال: فتلقاه الطير، فأخبره، فقال: ألم يستثن: أي لم يقل: (أن شاء الله)؟

﴿أُولَئِكَ نَبِئِي بِسُلْطَانٍ مَّيْنٍ﴾ فأعطى سليمان للهدهد مهلة وفترة؛ وهي أن يأتيه بيينة يعذره بها عن تأخره وغيبابه.



سليمان عليه السلام مع بلقيس

غاب الهدهد قليلاً ليأتي لسليمان بما أمره به وهو - السلطان المبين - ؛ فما لبث أن عاد بالنبا؛ فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وجد الهدهد امرأة أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ قد يكون الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة، ومن كل أمور الدنيا.

وكان لها كرسي عظيم ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ . وعُني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره.

وعن ابن عباس، قال: سرير كريم، قال: حسن الصنعة، وعرشها: من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ.

ووجد هذه المرأة أي ملكة سبأ، وقومها من سبأ، يسجدون للشمس فيعبودونها من دون الله. ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وحسن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحَبَّبَ ذلك إليهم ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ؛ فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فصَدَّهُمْ عن سبيل الحق؛ فهم لما قد زين لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به لا يهتدون لسبيل الحق ولا يسلكونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يترددون.

﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

فكتب سليمان كتاباً للملكة سبأ يعوها للإسلام.

فأخذ الهدهد الكتاب برجله، فانطلق به حتى أتاها، وكانت لها كوة في بيتها إذا طلعت الشمس نظرت إليها، فسجدت لها، فأتى الهدهد الكوة فسدّها بجناحيه حتى ارتفعت الشمس ولم تعلم، ثم ألقى الكتاب من الكوة، فوقع عليها في مكانها الذي هي فيه، فأخذته.

قرأت الملكة الخطاب وذهبت إلى وزراءها؛ ف ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .
 عن قتادة، قال: بلغني أنها امرأة يقال لها بلقيس، أحسبه قال: ابنة شراحيل، أحد أبويها من الجن، مؤخر أحد قدميها كحافر الدابة، وكانت في بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلاث مئة واثنى عشر كل رجل منهم على عشرة آلاف، وكانت بأرض يقال لها مأرب، من صنعاء على ثلاثة أيام .

فلما جاء الهدهد بخبرها إلى سليمان بن داود، كتب سليمان الكتاب وبعث به مع الهدهد، فجاء الهدهد وقد غلقت الأبواب، وكانت تغلق أبوابها وتضع مفاتيحها تحت رأسها، فجاء الهدهد فدخل من كوة، فألقى الصحيفة عليها، فقرأتها، فإذا فيها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وكذلك كانت تكتب الأنبياء لا تطنب، إنما تكتب جملاً .

وكان خطاب سليمان: أن لا تتكبروا ولا تتعاضموا عما دعوتكم إليه . ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ ﴾ فلا تمنعوا من الذي دعوتكم إليه؛ فإن امتنعتم جاهدتكم، فمن الخير لكم أن أقبلوا إليّ مدعين لله بالوحدانية والطاعة ﴿وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

بعد أن قرأت ملكة سبأ الكتاب على أشرف قومها؛ طلبت مهم أن يسيروا عليها في الأمر الذي قد حضرها، وأمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقى إليها، فجعلت المشورة فتياً ؛ ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

فقال الملأ من قوم ملكة سبأ، إذ شاورهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذوو القوة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، وعرضوا لها القتال، يقاتلون لها، والأمر إليك بعد هذا فانظري من الرأي ما ترين، فمُرِّنا تأمري لأمرك . ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

وروي عن الأعمش، ومجاهد، قال: كان مع ملكة سبأ اثنا عشر ألف قبول، مع كل قبول مئة ألف، والقبول بلسانهم: الملك تحت يد كل ملك مئة ألف مقاتل .

فقالت: إني مرسله إلى سليمان، لتختبره بذلك وتعرفه به، أملك هو، أم نبي؟ وقالت: إن

يكن نبيا لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا، إلا أن تتبعه على دينه، وإن يكن ملكا قبل الهدية وانصرف.

﴿وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ .

فبعثت إليه بوصائف ووصفاء، وألبستهم لباسا واحدا حتى لا يعرف ذكر من أنثى، فقالت: إن زَيْلَ بينهم حتى يعرف الذكر من الأنثى، ثم ردّ الهدية فإنه نبي، ونبغي لنا أن نترك ملكنا، ونَتَّبِعَ دينه، ونلحق به.

وقيل: بعثت بجوارٍ لباسهم لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجواري.

وأهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج؛ فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآخر بالذهب، ثم أمر به فألقي في الطرق فلما جاءوا فرأوه ملقى ما يُلتفت إليه، صغر في أعينهم ما جاءوا به.

روى الطبري بسنده عن وهب بن منبه، قال: كانت بلقيس امرأة لبينة أدبية في بيت ملك، لم تملك إلا البقايا من مضى من أهلها، وكان دينها ودين قومها فيما ذكر الزنديقية فلما قرأت الكتاب سمعت كتابا ليس من كتب الملوك التي كانت قبلها، فبعثت إلى المَقَاوِلِ من أهل اليمن، فقالت لهم:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ إِلَى قَوْلِهِ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ ثم قالت: إنه قد جاءني كتاب لم يأتني مثله من ملك من الملوك قبله، فإن يكن الرجل نبيا مرسلًا فلا طاقة لنا به ولا قوة، وإن يكن الرجل ملكا يكثر، فليس بأعزّ منا، ولا أعدّ.

فهيات هدايا مما يُهدى للملوك، مما يُفتنون به، فقالت: إن يكن ملكا فسيقبل الهدية ويرغب في المال، وإن يكن نبيا فليس له في الدنيا حاجة، وليس إياها يريد، إنما يريد أن ندخل معه في دينه ونبتعه على أمره، أو كما قالت.

فما كان من أمر الهدايا التي بعث بها بلقيس وهي: وصائف ووصفاء يختلفون في ثيابهم، لتمييز الغلمان من الجواري؛

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ رَسُولٌ بَلْقِيسَ؛ قَالَ لَهُ أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ وَتَلْكَ الْهَدَايَا؛ ﴿أَتُمَدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ فَإِنَّهُ قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْمَالِ وَالْدُنْيَا

أكثر مما أعطاكم منها وأفضل؛ فما أفرح بهديتكم التي أهديتكم إليّ، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم، لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا، ومكاثرة بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ ، ولأن الله تعالى قد مكّني منها وملّكني فيها ما لم يُملّك أحدا.

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ وهذا قول سليمان لرسول المرأة ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ ولا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.
ولنخرجنّ من أرسلكم من أرضهم أذلة وهم صاغرون إن لم يأتوني مسلمين.
﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . أو لتأتيني مسلمة هي وقومها.



سليمان والعفريت !

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ * قَالَ عَفْرَيْتُ مَنْ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

اختلف أهل العلم في الحين الذي قال فيه سليمان يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها فقال بعضهم: قال ذلك حين أتاه الهدهد بنبأ صاحبة سبأ، وقال له: جئتُك من سبأ بنبأ يقين وأخبره أن لها عرشا عظيما، فقال له سليمان ﷺ: سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فكان اختباره صدقه من كذبه بأن قال لهؤلاء: أيكم يأتيني بعرش هذه المرأة قبل أن يأتوني مسلمين. وقالوا إنما كتب سليمان الكتاب مع الهدهد إلى المرأة بعد ما صحَّ عنده صدق الهدهد بحجىء العالم بعرضها إليه على ما وصفه به الهدهد، قالوا: ولولا ذلك كان محالاً أن يكتب معه كتابا إلى من لا يدري، هل هو في الدنيا أم لا؟

وقالوا: وأخرى أنه لو كان كتب مع الهدهد كتابا إلى المرأة قبل بحجىء عرشها إليه، وقبل علمه صدق الهدهد بذلك، لم يكن لقوله له ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ معنى، لأنه لا يُلم بخبره الثاني من إبلاغه إياها الكتاب، أو ترك إبلاغه إياها ذلك، إلا نحو الذي علم بخبره الأوّل حين قال له: ﴿ جئتُك من سبأ بنبأ يقين ﴾ قالوا: وإن لم يكن في الكتاب معهم امتحان صدقه من كذبه، وكان محالاً أن يقول نبي الله قولا لا معنى له وقد قال: ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ علم أن الذي امتحن به صدق الهدهد من كذبه هو مصير عرش المرأة إليه، على ما أخبره به الهدهد الشاهد على صدقه، ثم كان الكتاب معه بعد ذلك إليها.

فلما أخبر الهدهد سليمان أنه وجد سلطانا، أنكر أن يكون لأحد في الأرض سلطان غيره، فقال لمن عنده من الجن والإنس: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ؟ ﴿١٠﴾

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ؛ قالَ سليمان: أريدُ أُعَجِّلَ مِنْ ذَلِكَ.

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ وهو رجلٌ مِنَ الْإِنْسِ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ الْأَكْبَرِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ: ﴿١١﴾ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿١٢﴾؛ فدعا بالاسم وهو عِنْدَهُ قائمٌ، فاحتملَ العرشَ احتمالاً حَتَّى وُضِعَ بَيْنَ يَدَيِ سُلَيْمَانَ، وَاللَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ؛ فلما أَتَى سُلَيْمَانَ بِالْعَرْشِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، أَخْبَرَهُ الْهُدْهُدُ بِذَلِكَ، فَكُتِبَ مَعَهُ كِتَاباً ثُمَّ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الْهُدْهُدُ الْمَلِكَةَ أَلْقَى إِلَيْهَا الْكِتَابَ قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ... إِلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ.

فَقَالَتْ لِقَوْمِهَا مَا قَالَتْ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرَهُ بِمِ رِجْعِ الْمُرْسَلُونَ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ إِنَّمَا اخْتَبَرَ صَدَقَ الْهُدْهُدُ سُلَيْمَانَ بِالْكِتَابِ، وَإِنَّمَا سَأَلَ مِنْ عِنْدِهِ إِحْضَارَهُ عَرْشِ الْمَرْأَةِ بَعْدَ مَا خَرَجْتَ رَسُلَهَا مِنْ عِنْدِهِ، وَبَعْدَ أَنْ أَقْبَلَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْهِ.

حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: ثَنَا سَلَمَةُ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مَنبِهِ، قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا الرِّسْلُ بِمَا قَالَ سُلَيْمَانَ: قَالَتْ: وَاللَّهِ عَرَفْتُ مَا هَذَا بِمَلِكٍ، وَمَا لَنَا بِهِ طَاقَةٌ، وَمَا نَصْنَعُ بِمَكَائِرَتِهِ شَيْئاً، وَبَعَثَتْ:

إِنِّي قَادِمَةٌ عَلَيْكَ بِمَلُوكٍ قَوْمِي، حَتَّى أَنْظُرَ مَا أَمْرُكَ، وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ دِينِكَ. ثُمَّ أَمَرَتْ بِسَرِيرِ مَلِكِهَا، الَّذِي كَانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ مَفْصَصٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرَجَدِ وَاللُّؤْلُؤِ، فَجَعَلَ فِي سَبْعَةِ أَيْيَاتٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، ثُمَّ أَقْفَلَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ. وَكَانَتْ إِنَّمَا يَخْدُمُهَا النِّسَاءُ، مَعَهَا سِتُّ مِائَةِ امْرَأَةٍ يَخْدُمُنَهَا ثُمَّ قَالَتْ لِمَنْ خَلَفَتْ عَلَى سُلْطَانِهَا، احْتَفِظْ بِمَا قَبْلَكَ، وَبِسَرِيرِ مَلِكِي، فَلَا يَخْلُصْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَلَا يَرِينَهُ أَحَدٌ حَتَّى آتِيكَ.

ثُمَّ شَخَّصَتْ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ مَعَهَا مِنْ مَلُوكِ الْيَمَنِ، تَحْتَ يَدٍ كُلِّ قَيْلٍ مِنْهُمْ أَلُوفٌ كَثِيرَةٌ، فَجَعَلَ سُلَيْمَانَ يَبْعَثُ الْجِنَّ، فَيَأْتُونَهُ بِمَسِيرِهَا وَمَنْتَهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، حَتَّى إِذَا دَنَتْ جَمْعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ، فَقَالَ: ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿١٤﴾.

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خصّ سليمان مسألة الملأ من جنده إحضار عرش هذه المرأة من بين أملاكها قبل إسلامها، فقال بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أن تسلم فيحرم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها ذلك قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها.

وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عقلها، هل تثبته إذا رآته، أم تنكره؟

قال سليمان لما أتى عرش بلقيس صاحبة سبأ، وقدمت هي عليه، لجنده: غيروا لهذه المرأة سريرها. ﴿قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ، وتنكير العرش، أنه زيد فيه ونقص.

وقيل: إن سليمان إنما نكر لها عرشها، وأمر بالصرح يعمل لها، من أجل أن الشياطين كانوا أخبروه أنه لا عقل لها، وأن رجلها كحافر حمار، فأراد أن يعرف صحة ما قيل له من ذلك.

ثم ذكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبأ تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحا، وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك، وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور منهم والإناث معاتبه بذلك كذلك.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

عن وهب بن منبه، قال: أمر سليمان بالصرح، وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضا، ثم أرسل الماء تحته، ثم وضع له فيه سريره، فجلس عليه، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، ثم قال: ادْخُلِي الصَّرْحَ ليرىها ملكا هو أعزّ من ملكها، وسلطانا هو أعظم من سلطانها؛ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ وهي لا تشكّ أنه ماء تخوضه، قيل لها: ادْخُلِي إنه صرح مُّمَرَّد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وعاتبها في عبادتها الشمس دون الله، فقالت بقول الزنادقة، فوقع سليمان ساجدا إعظاما لما قالت،

وسجد معه الناس وسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال: ويحك ماذا قلت؟ قال: وأنسيت ما قالت:، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأسلمت، فحسن إسلامها.

تلکم كانت قطوف من سيرة سليمان عليه السلام، وكيف كانت أحواله مع الجن والشیاطین والعفاريت؛ نسأل الله أن یحفظنا من شیاطین الإنس والجن.

(والحمد لله رب العالمین)



أيوب عليه السلام

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ *﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيوب يا محمد، إذ نادى ربه وقد مسه الضرّ والبلاء. ﴿رَبِّ إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ *﴾؛ فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضرٍّ وبلاء وجهد. وكان الضرّ الذي أصابه والبلاء الذي نزل به، امتحانا من الله له واختبارا.

عن وهب بن منبه يقول: كان بدء أمر أيوب الصديق صلوات الله عليه، أنه كان صابرا نعم العبد.

وذكر أن لجبريل بين يدي الله مقاما ليس لأحد من الملائكة في القربة من الله والفضيلة عنده، وإن جبريل هو الذي يتلقى الكلام، فإذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبرائيل منه ثم تلقاه ميكائيل، وحوّله الملائكة المقربون حافين من حول العرش. وشاع ذلك في الملائكة المقربين، صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات، فإذا صلت عليه ملائكة السموات، هبطت عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض.

وكان إبليس لا يُحجّب بشيء من السموات، وكان يقف فيهنّ حيث شاء ما أرادوا، ومن هنالك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة. فلم يزل على ذلك يصعد في السموات، حتى رفع الله عيسى ابن مريم، فحجّب من أربع، وكان يصعد في ثلاث. فلما بعث الله محمدا ﷺ، حُجّب من الثلاث الباقية، فهو محجوب هو وجميع جنوده من جميع السموات إلى يوم القيامة ﴿إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ *﴾، ولذلك أنكرت الجنّ ما كانت تعرف حين قالت: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا *﴾... إلى قوله: ﴿شِهَابًا رَّصَدًا *﴾.

قال وهب: فلم يرُع إبليس إلا تجاوب ملائكتها بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره

الله وأثنى عليه. فلما سمع إبليس صلاة الملائكة، أدركه البغي والحسد، وصعد سريعا حتى وقف من الله مكانا كان يقفه، فقال: يا إلهي، نظرت في أمر عبدك أيوب، فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك، وعافيتُه فحمدك، ثم لم تجربَه بشدة ولم تجربَه ببلاء، وأنا لك زعيم لأن ضربته بالبلاء ليكفرن بك ولينسينك وليعبدن غيرك قال الله تبارك وتعالى له: انطلق، فقد سلطتك على ماله، فإنه الأمر الذي تزعم أنه من أجله يشكرني، ليس لك سلطان على جسده ولا على عقله فانقضّ عدوّ الله، حتى وقع على الأرض، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم، وكان لأيوّب البَنيّة من الشام كلها، بما فيها من شرقها وغربها، وكان له بها ألف شاة برعاقها، وخمس مئة فدان يتبعها خمس مئة عبد، لكل عبد امرأة وولد ومال، وحمل آلة كل فدان أتان، لكل أتان ولد من اثنين وثلاثة وأربعة وخمسة وفوق ذلك.

فلما جمع إبليس الشياطين، قال لهم: ماذا عندكم من القوة والمعرفة؟ فإني قد سلطت على مال أيوب، فهي المصيبة الفادحة، والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال.

قال عفريت من الشياطين: أعطيتُ من القوة ما إذا شئت تحولت إعصارا من نار فأحرقت كل شيء أتى عليه. فقال له إبليس: فأت الإبل ورعائها. فانطلق يؤمّ الإبل، وذلك حين وضعت رؤسها وثبتت في مراعيها، فلم تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ منها أرواح السّموم، لا يدنو منها أحد إلا احترق، فلم يزل يُحرقها ورعائها حتى أتى على آخرها فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها براعيها، ثم انطلق يؤمّ أيوب، حتى وجده قائما يصلي، فقال: يا أيوب قال: لبيك قال: هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترت وعبدت ووحدت بإبلك ورعائها؟ قال أيوب: إنها ماله أعارنيه، وهو أولى به إذا شاء نزعته، وقديما ما وطئت نفسي ومالي على الفناء. قال إبليس: وإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعائها، حتى أتى على آخر شيء منها ومن رعاقها، فتركت الناس مبهورين، وهم وقوف عليها يتعجبون، منهم من يقول: ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا في غرور ومنهم من يقول: لو كان إله أيوب يقدر على أن يمنع من ذلك شيئا لمنع وليه، ومنهم من يقول: بل هو فعَل الذي فعل ليشتت به عدوّه وليفجع به صديقه.

قال أيوب: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عُريانا خرجت من بطن أمي،

وعريانا أعود في التراب، وعريانا أحشر إلى الله، ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك الله وتزع حين قبض عاريته، الله أولى بك وبما أعطاك، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع ملك الأرواح، فأجرتني فيك وصرت شهيدا، ولكنه علم منك شرًّا فأحرك من أجله فعراك الله من المصيبة وخلصك من البلاء كما يخلص الزُّوان من القمح الخلاص.

ثم رجع إبليس إلى أصحابه خاسئا ذليلاً، فقال لهم: ماذا عندكم من القوة، فيني لم أكلّم قلبه؟ قال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه. قال له إبليس: فأت الغنم ورعاتها فانطلق يؤمّ الغنم ورعاتها، حتى إذا وسّطها صاح صوتا جَئِمَتْ أمواتا من عند آخرها ورعاءها. ثم خرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرّعاء، حتى إذا جاء أيوب وجده وهو قائم يصلي، فقال له القول الأوّل، وردّ عليه أيوب الردّ الأوّل.

ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه، فقال لهم: ماذا عندكم من القوة، فيني لم أكلّم قلب أيوب؟ فقال عفريت من عظمائهم: عندي من القوة إذا شئت تحوّلت ريحا عاصفا تنسف كل شيء تأتي عليه حتى لا أبقى شيئا.

قال له إبليس: فأت الفدّادين والحرث فانطلق يؤمهم، وذلك حين قرّبوا الفدّادين وأنشئوا في الحرث، والأتن وأولادها رُتُوع، فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف تنسف كل شيء من ذلك حتى كأنه لم يكن. ثم خرج إبليس متمثلاً بقهرمان الحرث، حتى جاء أيوب وهو قائم يصلي، فقال له مثل قوله الأوّل، وردّ عليه أيوب مثل ردّه الأوّل.

فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينجح منه، صعد سريعا، حتى وقف من الله الموقف الذي كان يقفه فقال: يا إلهي، إن أيوب يرى أنك ما متعته بنفسه وولده، فأنت معطيه المال، فهل أنت مسلطي على ولده؟ فإنها الفتنة المضلّة، والمصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال، ولا يقوى عليها صبرهم. فقال الله تعالى له: انطلق، فقد سلّطتك على ولده، ولا سلطان لك على قلبه ولا جسده ولا على عقله فانقضّ عدوّ الله جوادًا، حتى جاء بني أيوب وهم في قصرهم، فلم يزل يزلزل بهم حتى تداعى من قواعده، ثم جعل ينطح الجُدُر بعضها ببعض، ويرميهم بالخشب والجنّيدل، حتى إذا مَثَل بهم كل مُثْلَة، رفع بهم القصر، حتى إذا أَقْلَة بهم فصاروا فيه

منكسين، انطلق إلى أيوب متمثلاً بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة، وهو جريح، مشدوخ الوجه يسيل دمه ودماغه متغير لا يكاد يعرف من شدة التغير والمثلة التي جاء متمثلاً فيها. فلما نظر إليه أيوب هاله وحزن ودمعت عيناه، وقال له: يا أيوب، لو رأيت كيف أفلت من حيث أفلت والذي رمانا به من فوقنا ومن تحتنا، ولو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف مثل بهم وكيف قلبوا فكانوا منكسين على رؤوسهم تسيل دماؤهم ودماغهم من أنوفهم وأجوافهم وتقطر من أشفارهم، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم، ولو رأيت كيف قذفوا بالخشب والجندل يشدخ دماغهم، وكيف دق الخشب عظامهم وخرق جلودهم وقطع عصبهم، ولو رأيت العصب عُريانا، ولو رأيت العظام متهشمة في الأجواف، ولو رأيت الوجوه مشدوخة، ولو رأيت الجدرُ تناطح عليهم، ولو رأيت ما رأيت، قطع قلبك فلم يزل يقول هذا ونحوه، ولم يزل يرققه حتى رقَّ أيوب فبكي، وقبض قبضة من تراب فوضعها على رأسه، فاغتنم إبليس عند ذلك، فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به.

ثم لم يلبث أيوب أن فاء وأبصر، فاستغفر، وصعد قرناؤه من الملائكة بتوبة منه، فبدروا إبليس إلى الله، فوجدوه قد علم بالذي رُفع إليه من توبة أيوب، فوقف إبليس خازيا ذليلاً، فقال: يا إلهي، إنما هوّن على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد، فهل أنت مسلّطي على جسده؟ فأنا لك زعيم لئن ابتليته في جسده لينسينك، وليكفرن بك، وليجحدنك نعمتك؛ قال الله: انطلق فقد سلطتك على جسده، ولكن ليس لك سلطان على لسانه ولا على قلبه ولا على عقله.

فانقضّ عدوّ الله جوادا، فوجد أيوب ساجدا، فعجلّ قبل أن يرفع رأسه، فأناه من قبل الأرض في موضع وجهه، فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده، فترهلّ، ونبتت ثآليل مثل آليات الغنم، ووقعت فيه حكة لا يملكها، فحكّ بأظفاره حتى سقطت كلها، ثم حكّ بالعظام، وحكّ بالحجارة الخشنة وقطع المسوح الخشنة، فلم يزل يحكّه حتى نفد لحمه وتقطع.

ولما نعل جلد أيوب وتغير واتن، أخرجه أهل القرية، فجعلوه على تلّ وجعلوا له عريشا. ورفضه خلق الله غير امرأته، فكانت تختلف إليه بما يصلحه ويلزمه. وكان ثلاثة من

أصحابه اتبعوه على دينه؛ فلما رأوا ما ابتلاه الله به رفضوه من غير أن يتركوا دينه وأهملوه، يُقال لأحدهم يلدد، وألifer، وصافر.

قال: فانطلق إليه الثلاثة وهو في بلائه، فبكتوه فلما سمع منهم أقبل على ربه، فقال أيوب عليه السلام: ربّ لأيّ شيء خلقتني؟ لو كنت إذ كرهتني في الخير تركتني فلم تخلقني يا ليتني كنت حيضة ألقيني أمي ويا ليتني متّ في بطنها فلم أعرف شيئا ولم تعرفني ما الذنب الذي أذنبت لم يذنبه أحد غيري؟ وما العمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني؟ لو كنت أمتني فألحقني بآبائي فالموت كان أجمل بي، فأسوة لي بالسلطين الذين صُفّت من دونهم الجيوش، يضربون عنهم بالسيوف، بخلاً بهم عن الموت وحرصاً على بقائهم، أصبحوا في القبور جائنين، حتى ظنوا أنهم سيخلدون. وأسوة لي بالملوك الذين كنزوا الكنوز، وطَمَروا المطامير، وجمعوا الجموع، وظنوا أنهم سيخلدون. وأسوة لي بالجبارين الذين بنوا المدائن والحصون، وعاشوا فيها المئين من السنين، ثم أصبحت خراباً، مأوى للوحوش ومثنى للشياطين.

قال أليفر اليماني: قد أعيانا أمرك يا أيوب، إن كلّمناك فما نرى للحديث منك موضعاً، وإن نسكت عنك مع الذي نرى فيك من البلاء، فذلك علينا. قد كنا نرى من أعمالك أعمالاً كنا نرجو لك عليها من الثواب غير ما رأينا، فإنما يحصد امرؤ ما زرع ويُجزى بما عمل. أشهد على الله الذي لا يُقدر قدر عظمتة ولا يُحصى عدد نعمه، الذي ينزل الماء من السماء فيحيي به الميت ويرفع به الخافض ويقوّي به الضعيف، الذي تضلّ حكمة الحكماء عند حكمته وعلم العلماء عند علمه حتى تراهم من العي في ظلمة يموجون، أن من رجا معونة الله هو القويّ، وإن من توكل عليه هو المكفيّ، هو الذي يكسر ويجبر ويجرح ويداوي.

قال أيوب: لذلك سكتَ فعَضَضْتُ على لساني ووضعت لسوء الخدمة رأسي لأيّ علمت أن عقوبته غيرت نور وجهي، وأن قوّته نزعَتْ قوّة جسدي، فأنا عبده، ما قضي عليّ أصابني، ولا قوّة لي إلا ما حمل عليّ لو كانت عظامي من حديد وجسدي من نحاس وقلبي من حجارة، لم أطق هذا الأمر، ولكن هو ابتلاي وهو يحمله عني أتيتموني غضاباً،

رهبتم قبل أن تسترهبوا، وبكيتم من قبل أن تُضربوا، كيف بي لو قلت لكم: تصدّقوا عني بأموالكم لعلّ الله أن يخلصني، أو قرّبوا عني قربانا لعلّ الله أن يتقبله مني ويرضى عني؟ إذا استيقظت تمنّيت النوم رجاء أن أستريح، فإذا نمت كادت تجود نفسي.

تقطّعت أصابعي، فإن لأرفع اللقمة من الطعام بيديّ جميعا فما تبلغان فمي إلا على الجهد مني، تساقطت لهواي ونخر رأسي، فما بين أذنيّ من سداد، حتى إن إحداهما لُتري من الأخرى، وإن دماغي ليسيل من فمي.

تساقط شعري عني، فكأنما حُرّق بالنار وجهي، وحدقتاي هما متدليتان على خدي، ورمّ لساني حتى يكتفي، فما أدخل فيه طعاما إلا غصني، وورمت شفتاي حتى غطّت العليا أنفي والسفلى ذقني.

تقطّعت أمعائي في بطني، فإني لأدخل الطعام فيخرج كما دخل، ما أحسه ولا ينفعني. ذهبت قوّة رجليّ، فكأنهما قرّبتا ماء مُلّتا، لا أطيع حملهما. أحمل لحافي بيديّ، وأساني فما أطيع حملة حتى يحمله معي غيري. ذهب المال فصرت أسأل بكفي، فيطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة، فيمنّنها عليّ ويعيرني.

هلك بَنِيّ وبناتي، ولو بقي منهم أحد أعانني على بلائي ونفعني. وليس العذاب بعذاب الدنيا، إنه يزول عن أهلها، ويموتون عنه، ولكن طوبى لمن كانت له راحة في الدار التي لا يموت أهلها، ولا يتحوّلون عن منازلهم، السعيد من سعد هنالك والشقيّ من شقيّ فيها.

قال يلدّد: كيف يقوم لسانك بهذا القول وكيف تفصح به؟ أتقول إن العدل يجور، أم تقول إن القويّ يضعف؟ أبك على خطيئتك، وتضرّع إلى ربك عسى أن يرحمك ويتجاوز عن ذنبك، وعسى إن كنت بريئا أن يجعل هذا لك ذخرا في آخرتك وإن كان قلبك قد قسا فإن قولنا لن ينفعك، ولن يأخذ فيك هيهات أن تنبت الآجام في المفاوز، وهيهات أن ينبت البرديّ في الفلاة؛ من توكل على الضعيف كيف يرجو أن يمنعه، ومن جحد الحقّ كيف يرجو أن يوفّى حقه؟.

وتلك القصة التي رواها الإمام الطبري رحمه الله على تمامها؛ لا أراها إلاّ من ادعاءات أهل الكتاب!!.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضي الله عنه: ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوفِ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في «ص» ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ .
وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينما أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رجل من جرّاد من ذهب» الحديث.

وإذ لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتة؛ فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها أذنك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

وفي الصحيح واللفظ للبخاري أن ابن عباس قال: يا معشر المسلمين! تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ، ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم، وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءته التوراة. والله أعلم.

أما ماورد في تفسير قوله تعالى ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ .

قال الإمام القرطبي: أي فركض فنبعت عين ماء فاغتسل به، فذهب الداء من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداء من باطنه. وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها الجابية، فاغتسل من إحدهما فأذهب الله تعالى ظاهر دائه، وشرب من الأخرى فأذهب الله تعالى باطن دائه. ونحوه عن الحسن ومقاتل؛ قال مقاتل؛ نبعت عين حارة واغتسل فيها فخرج صحيحاً، ثم نبعت عين أخرى فشرب منها ماء عذباً. وقيل: أمر بالركض بالرجل ليتناثر عنه كل داء في جسده. والمغتسل الماء الذي يغتسل به؛ قاله القتيبي. وقيل: إنه الموضع الذي يغتسل فيه؛ قاله مقاتل. الجوهرى: واغتسلت بالماء، والغسول الماء الذي يغتسل به، وكذلك المغتسل، والمغتسل أيضاً الذي يغتسل فيه، والمغسل والمغسل بكسر السين وفتحها مغسل

الموتى والجمع المغاسل. واختلف كم بقي أيوب في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب بن منبه: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وترك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذِّبُ بُحْتَنَصَّرَ وَحُوِّلَ في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمان عشرة سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي. قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب، وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمان عشرة سنة. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

فإن الله أعلم بمقدار لبثه، وقد صبر أيوب على الابتلاء، حتى صار صبره مثلاً وعبرة لكل مبتلى، والله غالب على أمره.

(والحمد لله رب العالمين)



قصة ثمود والنبي صالح عليه السلام

من الأمم التي تكرر ذكرها في القرآن قوم ثمود، والنبي صالح؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ * قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا أَطِيعُوا بَكِ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .

﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ .

أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالحاً، فقال لهم يا قوم: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلوهية، فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة، ولا تجوز الآلوهية إلا له. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ ؛ فهو سبحانه ابتداء خلقكم من الأرض. وإنما قال ذلك لأنه خلق آدم من الأرض، فخرج الخطاب لهم إذ كان ذلك فعله بمن هم منه. ﴿وَاسْتَغْمِرْكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم غمراً وأسكنكم فيها أيام حياتكم.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ واعملوا عملاً يكون سبباً لستر الله عليكم ذنوبكم، وذلك الإيمان به وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح. ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾ واتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فهو سبحانه قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه.

فقالت ثمود لصالح نبيهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ : أي كنا نرجو أن تكون فينا سيداً قبلَ هذا القول الذي قلته لنا من أنه مالنا من إله غير الله. ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فقد كنا نعبد الآلهة التي كانت آبائنا تعبد، ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فكذبوه وشكوا في صحة ما يدعوهم إليه من توحيد الله، وأن الآلوهة لا تكون إلا له خالصاً.

فقال صالح لقومه من ثمود: يا قوم أرأيتم إن كنتم على بينة من ربي وكنت على برهان

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا. ﴿١٠﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ ﴿١١﴾ ؛ فَعَقَرَتْ ثَمُودُ نَاقَةَ اللَّهِ. فَأَمَلَهُمْ صَالِحٌ لِيَسْتَمْتِعُوا فِي دَارِ الدُّنْيَا بِحَيَاتِهِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ.
ذَكَرَ أَنَّ صَالِحًا حِينَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْعَذَابَ أَتَاهُمْ لِبَسَاوِ الْأَنْطَاعِ وَالْأَكْسِيَةِ، وَقِيلَ لَهُمْ: إِنَّ
آيَةَ ذَلِكَ أَنَّ تَصْفَرَ أَلْوَانَكُمْ أَوَّلَ يَوْمٍ، تَمَّ تَحْمَرُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، ثُمَّ تَسْوَدُّ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَذَكَرَ
أَنَّهُمْ لَمَّا عَقَرُوا النَّاقَةَ نَدَمُوا وَقَالُوا: عَلَيْكُمْ الْفَصِيلُ فَصَعِدَ الْفَصِيلُ الْقَارَةَ وَالْقَارَةَ الْجَبَلَ حَتَّى إِذَا
كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثِ، اسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ وَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي يَا رَبِّ أُمِّي ثَلَاثًا. قَالَ: فَأَرْسَلْتُ الصَّيْحَةَ
عِنْدَ ذَلِكَ.

وكان ابن عباس يقول: لو صعدتم القارة لرأيتم عظام الفصيل. وكانت منازل ثمود بحجر بين الشام والمدينة.

روى البخاري عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قد عَجَنَّا وأستقينا.

فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهْرِيقُوا الماءَ وأن يَطْرَحُوا ذلكَ العَجِينَ. وفي الصحيح عن
 آبن عمر: أن الناسَ نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرضِ ثمود، فاستَقَوْا من آبارها
 وعجنوا به العَجِينَ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهْرِيقُوا ما استَقَوْا ويعلفوا الإبلَ العَجِينَ،

وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرُدُّهَا الناقة. وروي أيضًا عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ: « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم » ثم زجر فأسرع. وذلك دليل على أنهم قوم قد لعنهم الله، ونجى صالحًا، وكبت عدوه.

(والحمد لله رب العالمين)

تلكم كانت قطوف من قصص القرآن، أسأل الله أن ينفع بها، وبما حوت من عبر ومواعظ، وما اشتملت عليه من الفوائد؛ إنه قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويجيب المضطر ويكشف السوء، سبحانه ربي؛ رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

٥	إهداء
٩	القصص في القرآن
١٣	أحوال القصص في كتاب الله
٢٦	بيان الإذن في الرواية والتحديث عن أخبار بني إسرائيل
٣٠	قصة أصحاب الكهف
٣٣	ذكر فتية الكهف
٣٦	زمان الفتية
٣٧	ذكر من قال : أن الفتية كانوا على شريعة عيسى ﷺ
٤٠	وصف الكهف
٤١	مقدار لبثهم في الكهف
٤٩	بعض الفوائد من قصة أهل الكهف
٥٤	قصة يأجوج ومأجوج وذي القرنين
٥٦	هل الترك من يأجوج ومأجوج ؟
٥٧	هيئة القوم وسمتهم
٦٠	خبر يأجوج ومأجوج وذي القرنين
٦٢	لماذا سمى بذي القرنين ؟
٦٣	هل ذو القرنين نبي أم ملك ؟
٦٨	هل رأسه من نحاس ؟
٨٠	ذكر سد يأجوج ومأجوج وخرقهم إياه
٨٤	قصة صاحب الجنتين

- ٩٢ قصّة النبي يُوسُفَ عليه الصلاة والسلام
- ٩٦ أحكام الرؤيا و المنام والحُلُم
- ١٠٢ من فضائل يوسف عليه السلام
- ١٠٩ السباق في الإسلام بين المشروع، والممنوع
- ١٤٩ ملاقة يوسف بإخوته والنهاية السعيدة للقصة
- ١٥٤ الحسد والعين، وقوله عليه الصلاة والسلام «عَلَامٌ يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ»
- ١٥٥ أمثلة للحسد
- ١٥٩ لماذا أمسك يوسف بنيامين ونسب السرقة لإخوته وهم براء؟!
- ١٧١ وقفة مع قميص يوسف عليه السلام
- ١٧٢ حكم طلب الصفح من آذى مسلماً ظالماً له
- ١٧٤ حكم انحناء المسلم تحية لغيره والإشارة باليد
- ١٧٨ بعض الفوائد المنتقاة من قصة يوسف
- ١٨٢ قصة موسى والخضر
- ١٨٤ اسم الخضر ونسبه
- ١٨٥ زمان الخضر عليه السلام
- ١٨٦ هل الخضر ملك أم ولي أم نبي ؟
- ١٨٧ الأدلة من الكتاب والسنة على نبوة الخضر عليه السلام
- ١٨٧ القرآن الكريم
- ١٨٩ أما من السنّة
- ١٩٣ ونبدأ القصة
- ٢٠١ هل الخضر حي أم ميت ؟
- ٢٠٢ آراء القائلين باستمرار حياته

- ٢٠٤ ذكر رواية عن بقاء الخضر بعد زمان رسول الله ﷺ
- ٢٠٦ قول ابن كثير في موت الخضر
- ٢٠٨ بعض الفوائد المنتقاة من قصة موسى والخضر
- ٢١٠ قصة موسى الكليم عليه الصلاة والسلام
- ٢١١ ملخص القصة
- ٢١٢ وهذا منتهى التحدي
- ٢١٨ القصة على نحو من البسط
- ٢٣٢ الحكمة من خلع النعل لموسى عليه السلام وحكمها في الصلاة
- ٢٣٦ إقامة الصلاة وحكم تاركها، وقضاء الصلاة الفائتة
- ٢٤٣ ذكر بعض منافع العصي
- ٢٥١ المناظر الكبرى بين كليم الله وعدو الله
- ٢٥٥ يوم الزينة
- ٢٦١ السحر، وكيفية تعلمه، وحكمه في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام؟
- ٢٦٥ قصة مؤمن آل فرعون
- ٢٦٨ فائدة في معنى (التناد)
- ٢٧٤ تنمة قصة موسى عليه السلام
- ٢٧٦ فائدة في معنى الطيرة والتطير، والنهي عن ذلك
- ٢٨٠ هلاك فرعون وجنوده وغرقهم
- ٢٨٢ صلاة البيوت في شريعة محمد ﷺ
- ٢٨٥ الغرق. الغرق. الغرق
- ٢٨٧ روايات غرق فرعون
- ٢٩١ قصة صاحب يس
- ٢٩٧ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ شروط وأحكام

- ٣٠٤ ضوابطٌ وتنبيهاتٌ
- ٣٠٧ قصة أصحاب الأخدود
- ٣٠٩ وتبدأ القصة
- ٣١٦ قصة لوط عليه الصلاة والسلام
- ٣٢٤ حكم من عمل بعمل قوم لوط
- ٣٢٦ قصة ذا النون عليه الصلاة والسلام
- ٣٣١ فضل الدعاء، وكيفية التداوي به
- ٣٣٤ قصة نوح عليه الصلاة والسلام
- ٣٣٨ بعض الآيات ذات الدلالات في قصة نوح
- ٣٤٠ قصة هود عليه الصلاة والسلام
- ٣٤٨ قصة داود عليه الصلاة والسلام و قومه
- ٣٤٩ المعجزات الباهرات التي وهبها الله داود
- ٣٥٠ حادثة الخصم الذين دخلوا على داود عليه السلام
- ٣٥٤ سليمان عليه الصلاة والسلام
- ٣٥٨ سليمان ملكاً
- ٣٥٩ اهدهد وسليمان
- ٣٦١ سليمان عليه السلام مع بلقيس
- ٣٦٥ سليمان والعفريت !
- ٣٦٩ أيوب عليه السلام
- ٣٧٧ قصة ثمود والنبي صالح عليه السلام
- ٣٨٠ فهرس الموضوعات